مذكرات

برترام توماس

في العراق

١٩١٨ - ١٩٢٠



تقديم وتعليق
كامل سلمان الجبوري

ترجمة
عبد الهادي فنجان

منشورات دار الثقافة - بغداد

منشورات دار الثقافة

مذكرات برترام توماس في العراق

١٩١٨ - ١٩٢٠

ترجمة
عبد الهادي فنجان

تقديم وتعليق
كامل سلمان الجبوري

مطبعة المعاني - بغداد

تمهيـــد

يشكل لواء المنتفك ـ محافظة ذي قار اليوم ـ منطقة واسعة انعكست في امتداد ديار عشائره المتوزعة هنا وهناك ، فتحده من الشمال محافظة القادسية ، ومن الغرب محافظة واسط ومحافظة ميسان ، ومن الشـــرق البادية الجنوبية الغربية ، ومن الجنوب محافظة البصرة •

أما ديار اتحاد عشائر المنتفق فأنها تقـع في منطقـة تسمى قديمـاً « البطائح » تغمرها الميـاه ، وينبت فيهـا البردي والقصب ، وكانت أولى العشائر التي سيطرت على هذه المنطقة في القـرن الثامن الهجـــري وما بعده تعرف باسم « العبادة » ولا يزال هذا الاسم يطلق على قرية من قرى هور الحمّار • وبعد أن تكوّن اتحاد عشـائر المنتفق من العشـائر الثلاث الرئيسية (بني مالك ، الأجود ، بني سعيد) زال نفوذ امارة عشيرة « العبادة » كما زال نفوذ عشيرة « ربيعة من شمال هذه المنطقة •

وقد حاولت الدولة العثمانيه السيطرة على هذه المناطق بالقـــوة ففشلت عدة مرات بسبب ما كانت تبديه العشائر من مقاومة حتى قيـــام الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ • وكان أقوى مظهر لسيطرة الدولة العثمانية ما حصل لها في أيام مشيخة السعدون ، حيث وضعت حاميات لها في مراكز المدن والقصبات ، واقتصرت حدود تلك السيطرة عليهـا • وكان أكثـر ما يثير أفراد العشائر « الجندية والضرائب » وخضوعاً للأمر الواقع وبغية المحافظة على الأمن في المنطقة عدّتهـا الحكومـة العثمانيـة « عشائر غير محررة » ، أي انها غير مسجله في ســـجلات النفوس بغيـــة اعفائها من الجندية •

أما من ناحية جبايه الضرائب فكان الشيخ من المنتفق الذي يقـــوم مقام الدولة في السلطة ـ وكان مقره في الناصرية ـ يقدم مبالغ مقطوعـة سنويا الى بغـداد •

كما حاول (مدحت باشا) تسجيل الأراضي بأسماء الشيوخ والرؤساء في دوائر الطابو فأحس أفراد العشائر بأن هذا التدبير الجديد سيؤدي الى تمليك الأراضي لشيوخ المنتفق فقاوموا هذا الاجراء ورفضوه ، وامتد التسجيل بامتداد نفوذ السعدون الى الفاو والقرنة ، فاعطيت سندات الطابو بأسمائهم وتم تأليف قضاء خاص لهـذه الاقطاعات قرب الشطرة لادارة هذه المقاطعات ، لكنه لم يلبث طويلا اذ تقرر الغاؤه وذلك حين أقطع كاتب أحد الرؤساء المدعو « سركيس » منطقة زراعية كبيرة من أراضي بني ركاب والحي . فأثارت هذه العملية حروباً داخلية بين العشائر الخارجة على طاعة السعدون والحكومة ، وظلت المشكلة قائمة[1] .

وبعد أن تم للانكليز احتلال « لواء المنتفق » في عام ١٩١٥ كانت رحى الحرب لا تزال تدور عنيفة في بقية انحاء العراق ، فأرادوا أن يصانعوا الاهلين لكسب ودهم حفظا لخطوط مواصلاتهم ، فاظهروا عناية فائقة في تنظيم القرى والقصبات ، وتحسين وسائل الري ، وحفظ الصحة ، وحسم المنازعات القبلية واشاعة شيء من العدل بين الناس ، كما رتبوا مبالغ شهرية ضخمة لزعماء القبائل وكبار المتنفذين ، وأيّدوا سلطان الرؤساء على الافراد تأييدا مطلقا .

فلما استتب أمر الاحتلال وانتفت الغاية من مصانعة الرؤساء ، انقلبت تلك السياسة رأساً على عقب ، وأظل الناس عهد ارهابي لم يروا مثله من قبل ، فكانت تفرض عليهم الغرامات الثقيلة لأتفه الاسباب ، وتلهب ظهورهم بالسياط الغليظة لأبسط المخالفات ويساقون الى أشق الاعمال وأحقرها سوق النعام ، لا فرق في ذلك بين الشريف والوضيع ، والكبير والصغير ، والغني والفقير[2] .

ومن ذلك سعيها الى اخضاع « بدر الرميض » شيخ عشيرة (البو صالح) أحد رؤساء بني مالك ، بل عدت قدوم « بدر » اليها واعلان

ولأنها مفتاحا رئيسا لدخول جميع مناطق المنفق ، حيث كانت حوادث الانتقام والفوضى في السنوات الاخيرة من الحكم العثماني متفشية في منطقة الاهوار وكانت العشائر تتفاخر وتتباهى بحمل السلاح ، بل كان حمل السلاح رمزا للقوة والمنعة والشرف . وكانت العشائر منهمكة في منازعاتها الداخلية ، فكان لكل عشيرة عداوة تقليدية مع عشيرة أخرى أو فرع منها ، تغتنم الفرصة للانتقام وأخذ الثار منها . وكان شيوخ العشائر يتمتعون بشيء من الاستقلال الذاتي . وفي الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٤ لبى الشيخ « بدر الرميض » دعوة الجهاد لمقاتلة الجيش البريطاني ، وقد أقسم اليمين في سنة ١٩١٥ في معركة الشعيبة ألا يهادن وألا يعقد حلفا مع الادارة البريطانية ، وظل وفياً لقسمه هذا ، بعيدا عن نفوذ الحكومة ، فلم يعترف بالادارة البريطانية(٣) .

وبعد سقوط الكوت واحتلال مدينة بغداد ودخول الجيش البريطاني اليها استمرت العشائر في عدم طاعتها لاية سلطة ، فالتجأت الادارة البريطانية المحتلة الى الاستعانة بشيوخ العشائر الموالين لها في ادارة مناطقهم العشائريه . ولم يكن شيوخ العشائر يدفعون أي ضريبة للحكومة ، ولم يعترفوا بحقوق الملاكين أصحاب السندات الوهمية ، وكانوا مدججين بالاسلحة التي غنموها من الجيش العثماني بعد انسحابه في سلسلة المعارك الطويلة أو التي حصلوا عليها من الانكليز(٤) .

ثم أخذت مقاومة عشائر المنتفق تضعف نتيجة لاسباب منها :

١ – انسحاب الجيش العثماني من شط الحي .
٢ – انتهاء الانكليز من مد سكة الحديد من البصرة الى الناصرية .
٣ – انتصار الانكليز على الاتراك في معركة الكوت الشهيرة .

وسرعان ما أدرك بعض الشيوخ أهداف السياسة البريطانية في احتلال العراق والبقاء فيه وحكمه ، ولهذا تعهد هؤلاء بالولاء والطاعة ، بينما بقيت العشائر مستمرة في قطع اسلاك البرق وعرقلة سير السفن(٥) .

سوق الشيوخ عام ١٩١٨ :

كانت منطقة سوق الشيوخ معروفة بمناعة قلاعها وقوة مفاتيلها . وفي حزيران ١٩٨١ حدثت حادثة (بدر الرميض)[٥أ] رئيس بني مالك في ناحية البو صالح ، والذي كان يتمتع بنفوذ واسع ، وكان شوكة في عين الادارة البريطانية ، فقد كان في طليعة الناقمين على سياستهم الهوجاء ، وظل معارضا متذمرا ، ولم يغادر موطنه في الهور الا مرة واحدة في حياته ، عندما خرج للجهاد ليقاتل ضد الانكليز . وكان حاكم المنتفك في تلك الفترة (هارولد ديكسون) الذي استطاع ان يستميل شيوخ المنطقة كافه ما عدا « بدر الرميض » فقد أخفق في مساعيه معه . ومما تجدر الاشارة اليه ان ديكسون كان يتحدث باللغة العربية الدارجة وكان يعرف الشيوخ وأفراد أسرهم[٦] .

بالاضافة الى ذلك كان بين بدر الرميض وبين الشيخ سكر آل نعمة رئيس آل عيسى في لواء العمارة نزاع على الحدود التي تفصل بين أراضيهما المتجاورتين ، فحاولت السلطة ان تفض هذا النزاع على حساب الشيخ بدر ، فهدد بدر بتحكيم السيف . فعمدت الادارة البريطانية الى قواتها[٧] فأرسلت مركبين مسلحين اليه فرفض المجيء ، فقصفت قلعته وقتل بعض من رجاله وعُدَّ « بدر » خارجاً على القانون . وعين « سليمان النصرالله » منافسه رئيساً لبني مالك وأنيطت به مديرية ناحية ألبو صالح ، ثم ألقي القبض على ابنه « حسن » [٧أ] في الناصرية . ولكن « حسناً » هذا فرَّ من السجن في الناصريه وعاد الى عشيرته ، ومنذ ذلك الحين لم يقم « بدر » بأي عمل عدائي ضد الحكومة البريطانية . بيد أن بدرا كان يتمنى عودة الحكم العثماني الى العراق . وكانت الادارة البريطانية توجه اليه مختلف الاتهامات مثل رفضه الاعتراف بالحكومة البريطانية ، ودفع ما بذمته من ديون مستحقة ، وايواء الجواسيس ، وقبوله مساعدات من

الحكومة العثمانية وحماية المجرمين وقطاع الطرق •

وقيل أن « حسن بن بدر » قدم مبلغاً قدره ١٠٠٠٠ عشرة آلاف روبية مقابل خروجه من التوقيف • واكتفى الانكليز أخيرا بحضور « حسن » الى مركز اللواء •

كما حاول كل من « ياسر العتابي » و « كاظم الحمداني » ان يستدرجا بدر الرميض بدعوته الى السوق والغدر به ، وحين أدرك الحيلة وبخهما واتهمهما بأنهما غير عربيين وليس لهما كلمة شرف[٨] •

وبقي بدر صامداً أمام هذه القوات حتى اضطرها الى اتباع سياسة اللين معه خشية أن تتسع حركته • الا انه فيما بعد تم الاتفاق بين ديكسون وبدر على ان يتقابلا خارج مدينه الناصرية ومن دون سلاح • وفي الموعد المقرر جاء بدر وتبادل التحية والسلام مع ديكسون ، وطلب منه ديكسون (بالحظ والبخت) المجيء الى الناصرية وأخبره بأنه سيبرق الى المندوب السامي يعلمه بتقديم طاعة بدر للحكومة ، ووعده بالمحافظة على حياته ، وبالوصول الى حل شريف ، وبالعودة الى عشيرته دون أن يناله أذى • فشكره بدر على وعوده ، ووعده بالذهاب معه في صباح اليوم الثاني من اللقاء ، في المكان نفسه ، والزمان نفسه ، ولكن بدرا ودعه ولم يعد اليه ثانية[٩] •

قلعة سكر :

كانت أول بلدة في منطقة المنتفك ظهرت فيها بوادر التحفز للثورة على الانكليز ، وذلك في منتصف شهر تموز ١٩٢٠ ، فقد قامت العشائر بقطع خطوط التلفون الممتدة بين الشطرة وقلعة سكر • وفي أواخر ذلك الشهر وبينما كان « الكابتن كراوفورد » معاون الحاكم السياسي في قلعة سكر ، عائدا الى البلدة من جولة قام بها مع أعوان له ، كمن له في الطريق

ستة رجال وأطلقوا عليه النار ، غير أنه نجا بأعجوبة ولم يصب منهم سوى حصانين • وقد طلب كراوفورد من بغداد ارسال طائرات للقيام بتظاهرة جوية في سماء قلعة سكر بغية ارهاب الاهالي ، فوصلته طائرتان ولكن احداهما أصابها عطل فارتطمت في الأرض ، فأدى هذا الحادث الى عكس النتيجة التي أرادها كراوفورد ، اذ صار الاهالي يستهينون بالانكليز وبقوتهم ، وعدوا سقوط الطائرة معجزة ربانية • فاضطر كراوفورد الى طلب طائرات أخرى • وأبرقت قيادة الناصرية الى بغداد تقول : « اذا عجزتم عن ارسال طائرات الى قلعة سكر فاننا مضطرون الى اخلائها ، واذا سقطت قلعة سكر بأيدي الثوار فاننا مضطرون الى اخلاء الشطرة أيضا » •

فأجابت بغداد تعتذر عن تلبيو الطلب حيث قالت أن الموجود لديها من الطائرات خمس فقط ، وهم محتاجون اليها في أماكن أخرى •

تقرر أخيرا ارسال طائرة الى قلعة سكر لنقل كراوفورد الى الناصرية • وقد وصلت الطائرة في ١٢ آب ، فنقلته الى الناصرية بسلام • وعند هذا بادر الاهالي مع العشائر الى السراي فنهبوه كما نهبوا دار كراوفورد . واستحوذوا على أسلحة الشبانة ، ثم أنزلوا العلم البريطاني من فوق السراي ، وقطعوا أسلاك البرق •

وعلى أثر ذلك اجتمع عدد من الزعماء والرؤساء في جوار القلعة ، في موضع يسمى « المصيفي » فوقعوا ميثاقا ينص على :

١ ـ المطالبة باستقلال العراق استقلالا تاما ناجزا ، وانتخاب الامير عبدالله ملكا عليه •

٢ ـ المحافظة على المؤسسات الحكومية المفيدة : كالمستشفيات ، والجسور وغيرها ، والانتفاع بها عند الحاجة •

٣ ـ اتباع ما يأمر به العلماء المجتهدين •

٤ ـ أن تتعهد كل قبيلة بالمحافظة على الطريق الذي يخترق حدودها ، وأن تضمن أرواح المسافرين فيها ، وكذا أموالهم •

٥ ـ تأليف هيأة محلية في كل بلد يحتله الثوار ، تكون مهمتها المحافظة على الامن والسهر على أرواح العالمين •

[illegible]

موحان الخيرالله ، محمد الحاج شلال ، السيد دخيل السيد فياض ، السيد عبدالمهدي ، ابراهيم اليوسف ، خيون العبيد ، صكبان العلي ، سلمان الشريف ، مزعل الحميدة •

كما وقع عليها رؤساء الشويلات والقراغول وبني سعيد وغيرهم[10] •

الشطرة :

كانت الشطرة أهم بلدة في المنتفق بعد الناصرية ، ولعلها كانت أهم من الناصرية من حيث قوتها العشائرية • فهي من الوجهة الجغرافية تعد مركزاً لاتحاد عشائر المنتفق الذي كان يشغل الحوض الأسفل لنهر الغراف ، وكانت هذه المنطقة مثاراً للقلاقل والفتن • ولم يستطع الأتراك أن يخضعوها لسلطتهم • يتمتع آل سعدون بنفوذ واسع في المنطقة ، لكونهم أصحاب الاراضي الذين تعود اليهم الملكية الاسمية للاراضي الزراعية • اكتفى آل سعدون بالحصول على الولاء العشائري ، وبأخذ الخراج الاسمي من عشائرها • أرسل الاتراك في سنة ١٨٨١ قوة عسكرية تقدر بحوالي ثمانية عشر ألف جندي . زحفت من الكوت جنوباً فأخضعت المنطقة وأزاحت نفوذ آل سعدون وفر الكثيرون منهم الى المحمرة وبقوا هناك مدة عشرة أعوام • الا أن الادارة الجديدة في الشطرة أخذت بالانحلال والانهيار بسبب عودة الرؤساء السابقين والفساد الذي ساد

حكومة القضاء لكثرة الرشوات واستشراء المحسوبية ، أضف الى ذلـك محاولة الحكومة العثمانية تقديم تشريعات جديدة تتعلق بملكية الاراضي الزراعية ، التي أرادت زعزعة الاسس والقواعد القائمة • لجأت الحكومة العثمانية مقابل تنازل آل سعدون عن سيادتهم وسيطرتهم الى منحهم حقوق التصرف والملكية على الأراضي العشائرية•الا أن « الملكية » و « الايجار » مؤسستان غريبتان على العقلية العشائرية • ثم اتبعت الحكومة العثمانيـة طريقة « المزايدة العلنية » في ايجار الاراضي الزراعيـة وتفويضها ، ممـا أدى الى وضع المنطقة في حالة من الاضطراب والفوضى مدة نافت علـى العشرين عاماً ، فكان الحرمان الزراعي وعدم الاستقرار في طبيعة ملكيـة الاراضي الزراعية هي المصدر الرئيس لاثارة القلاقل والفتن في مثل هذه المناطق الزراعية •

وبسبب تأخر اعـلان ولاء « خيون العبيـد » وخضوعه للادارة البريطانية والمواقف المعادية لعشائر الازيرج • وخفاجة ، والعبودة ، لـم يكن أمراً منطقياً آنذاك ارسال ممثل الحكومة البريطانية الى الشطرة سنة ١٩١٨ ، فقد زار مدينة الشطرة لأول مرة الحاكم السياسي « ديكسون » في ١٠ آذار ١٩١٨ ، وقبل هذا التاريخ لم تكن هناك أية سـلطة فعليـة على العشائر • وقد كانت محاولة قديمـة وفاشلة تعيين « حسن الجاسم » وكيلا بريطانياً في مدينة الشطرة لأنه لم يكن يتمتع بأي نفـوذ عملي في حسم الخصومات العشائرية والمدنية • وقد تم تعيين الشيخ « خيون » في تلك الزيارة وكيلا للحكومة البريطانية في الشطرة ، وكان لهـذا التدبير آثاره الحسنة بنظـر الادارة البريطانيـة ، لأن « خيـوناً » أكثر الشيوخ وأوسعهم نفوذاً في تلك المنطقة • كمـا كان في العهـد العثماني قائمقاماً للشطرة في فترتين مختلفتين ، ويعـده البريطانيون الرجـل ذا الارادة الحديديـة • ولـكن حدث تغير جوهري في الادارة ، حيث تقدمت قوات نهرية في هور الحمار والغراف والبدعة ، وعيّن معاون حاكم سياسي في

قلعة سكر كان يراقب بعين يقظة ما كان يجري في الشطرة • فاعتذر « خيون » من المهمة التي أنيطت به وانسحب الى عشيرته في « الصديفة » • ونقدم معاون الحاكم السياسي الى الشطرة واتخذ منها مركزاً له ، ولا شك في أن هذا التدبير قد تم باتفاق سابق[11] • ثم اختير الكابتن برترام توماس ليكون معاون حاكم سياسي فيها •

ونعود الى ما ذكرناه سابقاً من اجتماع الزعماء والرؤساء في « المصيفي » فما أن فرغوا من التوقيع على ذلك الميثاق الذي سمي بميثاق « المصيفي » حتى تحركوا نحو الشطرة بصحبة مائتي خيال من أتباعهم بغية اثارة أهل الشطرة وعشائرها ، ومحاولة منهم تجريد القوة المحلية « الشبانة » من سلاحها ، والقصبة من حاكميتها ، والسراي من العلم ، كما فعلوا ذلك في « قلعة سكر » فلم يوفقوا الا الى تجريد القوة من سلاحها ، فارتاع الحاكم « برترام توماس » من هذه المظاهر ، فدخل بيته وأصبح كالمحجور عليه[12] •

كان في نية الثوار استنفار عشائر الشطرة للزحف على الناصرية ، وكادوا ينجحون في ذلك لو لم يقف في طريقهم خيون العبيد حيث استطاع أن يثبط هممهم مما جعلهم ينسحبون من الشطرة ويعودون الى مواطنهم[13] •

ورغم ذلك فقد استمر الوضع متوتراً فيها ، بل ازداد التوتر جراء النشاط الذي أبداه رجال الدين فيها بالحث على الجهاد واعلان الثورة ، فلقد صارت أصوات الطلقات تسمع في البلدة ليلا ونهاراً ، كما أصبح الشارع الرئيس المحاذي للنهر ـ والذي كان فيه بيت الكابتن توماس ـ يعج بالمظاهرات الصاخبة في كل يوم •

كانت العشائر قد قطعت خطوط البرق التي تربط الشطرة بالناصرية

في ١٥ آب ، فاضطر الكابتن توماس الى استخدام السعاة للاتصال بالناصرية • وكان لدى توماس ثلاثون رجلا من الشبانة ، غير أنهم بدأوا يتململون • وفي الثلث الاخير من شهر آب هرب عشرة منهم وأخذوا معهم كل ما لديهم من أسلحة وأعتدة وملابس ، فعمد توماس الى تجريد الباقين من أسلحتهم ، ووضعهم تحت أمرة خيون ، كما جعل خيون مسؤولا عن الأمن في البلدة •

استدعى توماس اليه من الناصرية ضابطا اسمه « الكابتن هول » لمساعدته في هذه المحنة ، فجاء هذا الضابط وهو يحمل معه قنابل يدوية موضوعة في صناديق بيرة • وعند وصوله الى الشطرة أخرج القنابل من صناديقها ووضع قسماً منها تحت سريره ، والقسم الآخر تحت سرير توماس ، تحسباً لما يقع من طوارىء في أثناء الليل[١٤] •

الا أن الأخبار لم تنقطع عن توماس ، فقد كان نصيره ومستشاره في تلك المحنة الشيخ خيون العبيد ، ورجل آخر اسمه الحاج ألماس الذي ينقل اليه أخبار البلدة وأسماء المهيجين ونشاطاتهم في اثارة الناس •

وفي ٢٥ آب وصل الى الشطرة من النجف الشيخ محمود الخليلي مرسلا من شيخ الشريعة ، فخرج أهل البلدة كلهم لاستقباله كما خرجت مظاهرة كبيرة تحمل الرايات أمام بيت توماس تحدياً له • ولما دخل الخليلي البلدة عج الفضاء بطلقات البنادق احتفاءً بقدومه • وقد أدرك توماس عندئذ أن من الخطر عليه أن يبقى في الشطرة مدة أطول ، فأرسل رسولا سرياً الى الناصرية يطلب منها ارسال طائرات لنقله هو والكابتن هول • فعاد الرسول من الناصرية ليقول أن طائرتين ستصلان اليه في صباح ٢٧آب •

وفي صباح اليوم المعين أرسل توماس الى خيون يستدعيه اليه ، فلما

جاء اليه قال له توماس انه يودع حكم البلدة اليه ، ثم أخذ يشكره على ولائه الثابت للحكومة ، وأكد له ان أهل الشطرة سيحمدون له موقفه هذا فيما بعد لأنه أنقذ البلدة من انتقام الجيش الانكليزي الذي سيأتي قريباً .

وحين سمع توماس أزيز الطائرتين في الجو تحرك من بيته هو ورفيقه هول يحف بهما « خيون العبيد » و « الشيخ علي الشرقي »[١٥] مع نفر من الرؤساء الموالين له فعبر الجميع نهر الغراف مشياً ، لأنه كان جافاً في ذلك الحين ، ثم ساروا متجهين نحو مطار البلدة الذي كان على بعد نصف ميل عنها ، وكانت الجماهير تسير على مقربة منهم ، على الجانبين وفي الخلف ، ولم يجرأ أحد منهم أن يقوم بأي عمل عدائي خوفاً من خيون .

لم يكن المطار يومذاك سوى فسحة منبسطة من الأرض . ولما وصلوا اليه ارتأى توماس أن من المستحسن أن لا يستعجل في ركوب الطائرة لكي يظهر للناس انه غير خائف من شيء ، وصار يتحدث الى الرؤساء بشيء من الدعابة ، وألقى عليهم كلمة موجزة قال فيها أنه سيعود اليهم حاكماً بعد قليل عندما يعاد الأمن والنظام الى البلدة ، وأنه يسلم الآن مقاليد الحكم الى الشيخ خيون ، ثم صافح الجميع وركب هو ورفيقه الطائرتين متجهين نحو الناصرية .

لم يكد توماس يغادر الشطرة حتى أسرع أفراد العشائر الى السراي وبيت الحاكم ينهبونهما نهباً . ولوحظ أن خيون لم يمنعهم من ذلك ، بل تركهم يفعلون ما يشاؤون[١٦] .

فقال أحدهم يعاتب الشيخ خيون العبيد لتقاعسه عن الثورة وانخراطه في صفوف الانكليز :

يا خيــون شنهو المانعــك لليــوم
تد لــه فرض مثــل الصلا والصوم
أظن ابليس غشك بالطمع والنــوم
سَوَّ جنة عاد اسكن بيهـا

ظـل خيــون جاعـد شـنهو المطله
يكنز للدنيــا اودينــه امبطله
اگصور ايريد فضــه يو ذهب حطله
ايكنزه اوبيـه ايجوونه[١٧]

ســوق الشيوخ عــام ١٩٢٠

كانت سوق الشيوخ تتحفز للثورة منذ زمن غير قصير ، فقـد وصل اليها عبدالكريم السبتي وهـو من وجهـاء الناصرية المشتغلين في القضيـة الوطنية • فاتصل بالحـاج علي الدبوس الذي كان من رؤسـاء السـوق المتنفذين وأخذ يحثـه على المساهمة في الثورة • ثم وصـل الى السوق بعدئذ عالم الناصرية الشيخ عبدالحسين مطـر وهـو يحمل رسـالة شـيخ الشريعة الموجهة الى رؤساء العشائر يحثهم فيها على الجهـاد • فنزل في ضيافة الشيخ محمد حسن حيدر ، وصار الرجلان يتعاونان في حث الناس على اعلان الثورة •

في ٢٧ آب ١٩٢٠ زار الســوق حاكم الناصريـــة السياسي الميجر ديجبرن • وكانت له معرفة سابقة برؤسائها محاولا اقناعهم بعدم انضمامهم الى الثورة • وعندما عاد الى الناصرية كتب الى ويلسون في بغداد مذكرة بشأن الوضع في السوق بوجه خاص ، وفي منطقة المنتفق بوجه عام • ننقل فيما يلي جزءاً من تلك المذكرة :

« بناء على طلب ملح من معاون الحاكم السياسي في ســوق الشيوخ

قمت بزيارة البلدة بالأمس ، وعقدت مجلساً حضره كل الشيوخ الكبار • وظهر لي أن كل واحد منهم كان موالياً لنا في نياته ومقاصده ، ولكن هناك عشائر قليلة تضم عناصر معادية للقانون وطموحها الوحيد أن تعود الى الفوضى ، فتعزل شيوخها ، وتتحكم هي بقانونها الخاص ، ان الموقف ليس خطيراً ، وهو ليس سوى نتيجة للاضطرابات القائمة في المناطق الاخرى • فعندما كانت الثورة محصورة في منطقة الديوانية ، كان في الامكان ضبط العشائر هنا بسهولة . ولكن الحركات المعادية ظلت ناشبة هناك طيلة شهرين تقريباً ، وقد بدأت تقترب منها شيئاً فشيئاً ، وأن اخلاء الشطرة مؤخراً كان عاملا في زيادة الاضطراب •••

« وكما ذكرت سابقاً أن الموقف كله متوقف على الشيخ خيون • أن معالجة الكابتن توماس لهذا الشيخ قد أنقذت الموقف حتى الآن ، وأن معظم الذين تحدثت معهم في شؤون المنتفق يرون أن العشائر سوف لا تنضم الى حركة الجهاد ، ولكن عشائر الغراف لو أرادت التحشد على الناصرية فان الناصرية ، والسوق أيضاً ، سوف تنضم بعواطفها الى الحركة •••

« مهما كان الموقف حرجاً فاني ما زلت واثقاً أن المنتفق من الممكن انقاذه اذا ظل خيون متماسكاً • فلو أن هذا الرجل تغلب عليه المتعصبون فاني أخشى أن يكون اخلاء الناصرية مستحيلا ، وفي رأيي أن حاميتي الناصرية والسماوة لو جهزتا بما فيه الكفاية من الطعام والعتاد لكان في مقدورهما الثبات تجاه العشائر الى النهاية ، وذلك لسببين : أولهما نقص العتاد لدى العشائر ، والثاني نقص الشعير •

« ان تقوية حامية الناصرية سوف تكون عاملا أقوى في منع الثورة من الرشوة مهما كانت كبيرة • ان حركة الجهاد لا يمكن وأدها الا بطريق القوة • أما الرشوات في مثل هذه الظروف فمن الممكن أن تكون

عملا مساعداً لملء خزانة عدو متوقع • وفي خلال ذلك نحن مستمرون في المغازلة مع خيون » •

ان التفاؤل الذي أبداه الميجر ديجبرن في مذكراته لم يدم طويلا ، ولا سيما فيما يخص سوق الشيوخ ، يقول هالدين :

« ••• ان الوضع في السوق أخذ يسوء تدريجياً ، وانتشرت فيه حركة الجهاد ، وبدأت العشائر تفكر بأن يد الله ضد البريطانيين ، وصار أفراد الشرطة يفرون ، ففي ايلول لم يبق منهم سوى رجل واحد هو الذي يحرس السجناء • وأدرك معاون الحاكم السياسي الكابتن بلاتس أن محاولة السيطرة على الوضع أصبحت مستحيلة ، وفي ظهر ذلك اليوم ، في الوقت الذي يتناول العرب فيه غداءهم ، ركب بلاتس ومن معه من البريطانيين باخرة حربية كانت راسية هنالك منذ أيام قليلة عندما ظهرت بوادر الاضطراب • وسارت الباخرة بهم نحو الناصرية فوصلوها بسلام » •

لم يحصل في سوق الشيوخ ما حصل في غيرها من نهب دور الحكومة أو تخريبها ، فقد تمكن الشيخ محمد حسن حيدر من المحافظة على أموال الحكومة وسجلاتها وقد حمد الانكليز له عمله هذا فيما بعد •

كانت في هور الحمار حينذاك كراكة تعمل لفتح طريق البواخر فيه ، وقد حاول الثوار الاستيلاء عليها • وفي ٤ أيلول خرجت من الناصرية باخرتان حربيتان لمساعدة الكراكة وحراستها ، ولما وصلت الباخرتان الى مقربة من الهور جنوب سوق الشيوخ أطلق الثوار عليها نيران بنادقهم ، فأطلقت الباخرتان عليهم نيران رشاشاتهما وقنابل مدافعهما • واستمرت المعركة ساعة ونصف ساعة • يقول هالدين : أن نوتية الباخرتين لم يصبهم أي أذى لما كانت عليه الباخرتان من التحصين

الجيد . بينما أُصيب الثوار بخسائر فادحة . ولكن جريدة « الاستقلال » النجفيه ذكرت أن الثوار قتلوا من ركاب الباخرتين قائداً برتبة ميجر وأربعه جنود(١٨) .

النـاصرية :

كان في الناصريه معسكر يتسع لثلاثة فصائل من المشاة الهنود ومائتين من المجندين المحليين (الشبانة) والشرطة(١٩) .

ووصل في ذلك الوقت قادما من النجف الشيخ محمد نجل الشيخ حبيب الله حاملا راية خضراء لاستنهاض القبائل ، فجمع حوله لفيفا من المسلحين التابعين لقبائل « خفاجة » وآل « أزيرج » و « أهل الشطرة » والقرى المجاورة ، وعسكر بهم في « البطينجة » وتبعهم جمهور كبير من « البو سعيد » و « بني زيد » فمكثوا مع الثوار زهاء أربعة أشهر يهاجمون « الناصرية » بين الفينة والفينة ، دون نجاح ، كما لحق بهم « الشيخ عبدالحسين مطر » ذلك العالم الديني الذي كان المثل الاعلى لرباطة الجأش وعدم المبالاة(٢٠) .

وينقل د. عبدالله فياض حديثا للشيخ ابراهيم اليوسف من رؤساء بني ركاب يصف فيه حالة عشائر المنتفق حينذاك فيقول :

ان ما يقارب الثلاثة آلاف مجاهد من بني ركاب عسكروا حول الشطرة لمدة اسبوع انتظارا لالتحاق الشيخ خيون وعشائره بحركة الجهاد ، ولما ظهر انه لا ينوي الخروج توجه المجاهدون نحو الناصرية ، بينما عادت عشائر موحان الخيرالله الى الرفاعي . وقد واصل المجاهدون سيرهم حتى عسكروا في المناطق المجاورة للناصرية . وبالرغم من أن أن عشائر الزيرج والحسينات لم تكن جادة في قتال الانكليز فانها لم تعرقل جهود المجاهدين ، فسمحت لهم بالاختباء في مزارعها واطعام حيواناتها من

حقول الذرة التي كانت على وشك النضوج آنذاك • وبقينا هناك حوالي ستة أسابيع نهاجم القوات الانكليزية المعسكرة بجوار الناصرية في الليل غالبا ، اذ ان الطائرات كانت تشل حركتنا في النهار ، ولم نستطع الدخول الى مدينة الناصرية لان الشيخ عجيل التويلي وجماعته من رؤساء الحسينات والزيرج حذرونا من ذلك بحجة الخوف على اضطراب الامن في المدينة • وقد ذكر ابراهيم اليوسف أسماء ثلاثة من رؤساء بني ركاب هم . مرزوق الرويح ومحمد الصالح وعبيد الخنفر ، فوصفهم بأنهم كانوا من أكثر الناس تحمسا للجهاد ، وقد قتل اثنان منهم في ذلك هما مرزوق وعبيد(٢١) •

استمرت الحالة على هذه الشاكلة حول الناصرية حتى تشرين الثاني ١٩٢٠ • وفي ١١ منه نشر البلاغ الرسمي الانكليزي يتضمن الفقرة الثانية بشأن عشائر المنتفق •

« •• كتب موحان الخيرالله يطلب المجيء الى الناصرية ، وأخذ معسكر العالم – يقصد الشيخ عبدالحسين مطر – في بطينجة بالتشتت في ٤ تشرين الثاني ، ولم يبق هناك سوى مائة رجل ، على ان العالم لم يزل هناك مع الخيم • والمظنون ان البقية منهم ستتفرق بعد بضعة أيام •• ان القتال الجاري بين قبائل بني خيكان وآل حسن هو المانع الوحيد للشيخ حمودة بن مزعل والشيخ فارس الياسر وغيرهما من كبار الشيوخ من المجيء الينا في الناصرية • وقد عرض المفاوضة على ممثلنا في سوق الشيوخ في ٥ تشرين الثاني شيوخ المجرة • وقد كان هؤلاء انشط من غيرهم في هذا اللواء • والحاكم السياسي في اتصال مع جميع شيوخ المنتفق • ويستدل من الرسائل التي وافت مؤخراً انه حدث تبدل حسن في موقف القبائل العام »(٢٢) •

وفي ٢٠ منه نشر البلاغ الرسمي التالى :

. اشعر حاكم سياسي الناصرية في ١٧ تشرين الثاني ان الموقف في المنتفق أخذ يتحسن . وقد جاء الينا اربعة شيوخ من البو سعيد في الغراف . وقد كتب لنا موحان خيرالله يقول انه ينظر ان يسود الامن في الطريق ليأتي الينا . وفاتحنا بالمفاوضة ثلاثة آخرون من كبار الشيوخ ، وقد رفعت جميع خيم قلعة سكر التي كانت ضاربة في الشطرة ، وعاد رجال القبائل الى قراهم . وقد تفرقت أيضا مضارب سوق الشيوخ التي كانت قرب السكة والزعماء الآن في المدينة يتفاوضون مع الحكومة »[٢٣] .

نهاية الثورة :

وهكذا كانت نهاية الثورة في المنتفق ، وحيث شعرت القيادة البريطانية بهذا الضعف على نحو ما ذكرناه سابقا ، سيّرت رتلين على (لواء المنتفق) سار أحدهما من (الكوت الى قلعة سكر) وسار الآخر من (الناصرية الى الشطرة) فتمكن الرتلان من اعادة احتلال (الغراف) دون عناء كبير ، وجرت محاكمات صورية لبعض الزعماء انتهت بـ (لا شيء) فقد مثّل الشيخ خيون العبيد دور الوسيط بين زعماء الحركة وبين السلطة المحتلة . واستغل مقامه لديها في تخفيف الاضرار[٢٤] .

أما في سوق الشيوخ فقد قال البلاغ البريطاني :

« خضع جميع زعماء سوق الشيوخ الذين اشتركوا في الاضطرابات الاخيرة »[٢٥] .

صاحب المذكرات :

هو الكابتن برترام • اس • توماس (Bertram.s. Thomas) أحد الضباط الانكليز الشباب الذين عينتهم الادارة البريطانية في العراق[٢٦] واعطتهم مقاليد وصلاحيات في مناطق واسعة •

كان فارسا في الحرس الوطني لشمال سومر سيت في الفلاندرز عام ١٩١٤ • اشتغل في عدن واستطاع ان يعبر الربع الخالي في الجزيــــرة العربية برحلة موفقة دونها في كتابه « عبر الربع الخالي في بلاد العرب » ط ١٩٣٣ •

ثم شغل منصب مساعد الضابط السياسي في سوق الشيوخ في ٦ آذار ١٩١٨ ، ونقل الى الشطرة في ٦ شباط ١٩١٩ ، وبعدها الى بغـــداد في ٦ شباط ١٩٢٠ مساعدا ثانيا في سكرتارية الدخل الحكومي ، ومنها أعيـــد الى الشطرة ثانية في حزيران ١٩٢٠[٢٧] ، وبعد ٣٠ حزيران ١٩٢٠ اضيفت له قلعة سكر ، وفي تموز ١٩٢٠ عزز بالكابتن (هـــول) ، وفي ٢٧ آب ١٩٢٠ غادر الشطرة الى الناصرية مع هول ، وعين فيها ضابط استخبارات للواء ٧٤ ، وفي شباط ١٩٢١ عاد الى الشطرة حاكما سياسيا لها ولقلعـــة سكر وضم اليه الغراف أيضا • وفي آب ١٩٢١ ودع الشطرة •

وكان المستر توماس من جماعة فيلبي المناوئين لتنصيب فيصل ملكـــا على العراق ، ولذلك قابله حين نزل من القطـــار في الحلة قبيل وصولـــه الى بغداد من البصرة عند أول مجيئه الى العراق ، بكل وقاحـــة وصلف وصارحه علنا بحضور مرافقيه قائلا : « ان الاهالي لا يريدونك » ، ومـــع هذا فقد أبقاه الانكليز مفتشا اداريا الى سنة ١٩٢٤ حيث فصل عن الخدمة في العراق برغم الحاح مستشار الداخلية كورنواليس على ابقائه •

ثم شغل وظيفة وزير المالية لسلطنة مسقط وعمان ، ثم رئيســـــا للوزراء فيها[٢٨] •

المـذكرات :

ان المذكرات التي كتبها الكابتن توماس – والتي نضع ترجمتها بين يديك – مصدر مهم من مصادر التأريخ السياسي للعراق وعمان ، وترجمة اســم الـكتاب (Alarms And Excursions In Arabia)

هي (مخاطر ورحلات في الجزيرة العربية) وبما اننا قد استللنا المغامرتين الاولى والثانية المتعلقتين بالعراق (سوق الشيوخ والشطرة وقلعة سكر) جعلنا العنـوان (مذكرات برترام توماس في العــراق ١٩١٨ – ١٩٢٠) •

وقد سرد توماس الحوادث والمواقف التي عاشها بنفسه ضمن منطقته وحسب منظوره الشخصي ، فاذا ما قورنت هذه المذكرات مـع ما أورده بعض القادة العسكريين البريطانيين أو رجال الثورة العراقيين في مؤلفاتهم ، نجده يختلف مع القادة أحيانا ومتفقا مع الثوار ، واخرى بالعكس • فهو ينظر الى الثورة على وجه العموم نظر من وكل اليه قمعها باعتبارها تمردا في مفهوم المحتلين ، لذلك لم يجد بدا من أن يتغافـل أو يغفل ذكر بعض الامور ، بقصد أو بغير قصد •

وعلى كل حال فالكتاب يضم بين دفتيه معلومات قيمة مهمة عن هذه الثورة الدم بقدر ما تيسر له – بصفته معاون حاكـم سياسي ، وحاكـمـا سياسيا – من تقارير ورسائل ادارية وسياسية وعسكرية ، وما حصل عليه من خبرة شخصية وهو يدير الحركات الحربية بأزاء الثوار البواسل •

وقد شغلت هذه المذكرات – التي بين ايدينا – فصلين كبيرين من ص ٢٢ – ١١٢ من أصل الكتاب الكلي والذي يضم ٢٩٦ صفحة متوزعة على خمسة فصول كبيرة ، وقد أطلق على كل فصل اسم (مغامرة) •

كما صدره بمقدمة بقلم السر أرنولد • تي • ولسن وكيل الحاكم الملكي العام ، وعززه بصور وخرائط لا يستغنى عنها •

كل تلك الامور هي التي حملتني على أن أكلف السيد عبدالهادي فنجان بترجمتها ، وفعلا قام بذلك مشكورا على أتم وجه ، كما رغبت في توضيح بعض الأمور بتعليقات وتعقيبات واستدراكات وتصويبات اثبتناها في الهوامش تجلي فيها بعض الحقائق ، ليكون القارىء على بينة من مجريات الحوادث • وان لنا رأينا الواضح الخاص بثورتنا الكبرى • فلا نقر بكل ما ذكره توماس ، وما نحن بمقريه • ولئلا يشـيع الرأي الخاطىء عن طريق ترجمة الكتاب •

وكتبت تمهيدا لها يوضح موقف لواء المنتفق بمناطقه سوق الشيوخ والشطرة وقلعة سكر والغراف والناصرية من الثورة العراقية ومقدماتها • وختمتها بملحق يضم تاريخ الشطرة بقلم الشـيخ محمد باقر الشبيبي والذي كتبه عام ١٩١٨ خصيصا للشيخ احمد اطيمش الذي كلفه الكابتن توماس بوضع تأريخ مختصر لمدينة الشطرة والعلاقات العشـائرية فيهـا • وقد طعمت المذكرات بمجموعة من الصور تخص المناطق الوارد ذكرهـا وأعلامها الواردين طي المذكرات ، وبعض الوثائق الخاصة بها من محفوظاتي الشخصيه •

فجزيل شكري وتقديري للاستاذين المترجم والاخ حامـد المؤمـن لابدائه بعض الملاحظات بشأن النصوص •

آملا أن أكون قد قدمت خدمة مقبولة ، والله ولي التوفيق •

الكوفة في ١٩٨٣/١١/٢٠ •

كامل سلمان الجبوري

مؤسس المتحف الوثائقي لثورة العشرين

في النجف ، ومديره سابقا

ملاحظة : الهوامش التي لا تحمل أرقاماً ، والمؤشرة بعلامة (*) تعود لصاحب المذكـرات •

هوامش التمهيد

(١) د· عبدالجليل الطاهر / العشائر العراقية ١ : ٣٣ـ٣٤ ·

(٢) عبدالرزاق الحسني / الثورة العراقية الكبرى ط٤ : ٢٤٧ ·

(٣) الطاهر / ن م ٩٢ ·

(٤) الطاهر / ن م ٩٥ ·

(٥) الطاهر / ن م ٩٢ـ٩٣ ·

(٥ أ) هو بدر بن عجيل بن رميض بن سلمان بن ثنيان المالكي ، رئيس عشيرة البو صالح مدة تزيد على ٨٠ عاماً ، توفى عام ١٩٤٢ وله أكثر من ٤٠ ولداً توفى بعضهم في حياته والباقي منهم على قيد الحياة ثلاثة هم : حامد ، شيحان ، خيون · وكان شاعراً شعبياً ، يقرأ ولا يكتب ·

(٦) الطاهر / ن م ٩٣ ·

(٧) الحسني / ن م ٢٤٧ـ٢٤٨ ·

(٧ أ) حسن بن بدر الرميض ، توفى في حياة والده عام ١٩٤١ ، عضو في المجلس النيابي عن المنتفك بدورتيه السادسة من ١٩٣٥/٨/٨ لغاية ١٩٣٦/١٠/٢٩ والسابعة من ١٩٣٧/٢/٢٧ لغاية ١٩٣٧/٨/٢٦ · يقرأ ويكتب ·

(٨) الطاهر / ن م ٩٥ ·

(٩) برترام توماس / انظر نص المذكرات ·

(١٠) الحسني / ن م ٢٥٠ ·

(١١) الطاهر / ن م ١٦٤ ـ ١٦٥ ·

(١٢) الحسني / ن م ٢٥٠ ·

(١٣) د· علي الوردي / لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ج٥ق٢ ص٨٢ ·

(١٤) الوردي / ن م ٨٣ ·

(١٥) فريق المزهر الفرعون / الحقائق الناصعة في الثورة العراقية ٣٤١ ـ ٣٤٢ ·

(١٦) الـوردي ٨٤ ـ ٨٥ ٠

(١٧) د٠ عبدالله فياض / الثورة العراقية الكبرى ٢٥٩ ـ ٢٦٠ ٠

(١٨) د٠ الوردي / ن م ٨٨ ـ ٩٠ ٠

(١٩) برترام توماس / ن م ٠

(٢٠) الحسني / ن م ٢٥٢ ٠

(٢١) الفيـاض / ن م ٣٤٠ ٠

(٢٢) جريدة العراق ع ١٣٧ في ١١ تشرين الثاني ١٩٢٠ ٠

(٢٣) جريدة العراق ع ١٤٥ في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٢٠ ٠

(٢٤) الحسني / ن م ٢٥٤ ٠

(٢٥) جريدة العراق ع ١٤٨ في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٢٠ ٠

(٢٦) يقول الدكتور جورج كيرك في حاشية من حواشي كتابه :
(The Insurrection in Mesopotamia "1922")

ان ٢٣٣ فقط كان يتجاوز عمرهم الخمسة والاربعين عاماً ، وان ثلثي عدد الحكام السياسـيين العاملين بتاريخ اول حزيران ١٩٢٠ كان يقل عمرهم عن ثلاثين سنة ، وما يقارب ربعهم كان يبلغ عمره خمساً وعشرين سنة فقط أو أقل من ذلـك ٠ أما ولسن نفسه فلم يـكن يتجاوز الرابعة والثلاثين من عمره في ١٩٢٠ ٠

(٢٧) د٠ الوردي / ن م ٨٠ ٠

(٢٨) هناك اختلاف في تأريخ ومناطق تعيين الكابتن توماس ، يبدو هـذا التباين في كتاب العشائر العراقية ص٨٧ـ٨٩ ، ولمحات اجتماعية في تاريخ العراق الحديث ج٥ ق٢ ص٨٠ ومذكراته التي سيرد نصّها

المذكـــرات

الصفحه ٩ من الكتاب :

مخاطر ورحلات في الجزيرة العربية

بقلم . برترام توماس

مع مقدمة بقلم : سير آرنولد • تي • ولسن

* * *

موضح بالصور

لنـدن

جورج آلين وآنوين لمتد

شارع المتحف

* * *

الصفحة ١٠ :

نشر لأول مرة عام ١٩٣١

جميع الحقوق محفوظة

طبع في بريطانيا العظمى بواسطة

آنوين اخوان لمتد • وكنكك

* * *

الصفحة ١١ (الاهـداء) :

الى

سمو سلطان مسقط وعمان سير سيد تيمور بن فيصـل بن تركي ابن سعيد •

كي • سي • آي • إي ، سي ، أس ، آي

مع شكري الجزيل لافضاله التي استمتعت بها بين يديه وبقضاء أسعد خمس سنين قضيتها في خدمة حكومته •

المقــدمة

تحتفظ الجزيرة العربية بمدى غير اعتيادي لقوة اخضاع القلوب • ان الاوربيين الذين هناك غالبا ما يجدون نواقص وعيوبا في السنوات القليله الاولى • فقد جلبوا معهم الساعات وملابس المساء ، ومذاقهم المكتسب أو الموروث للاكلات الاوربية في ساعات معينة ، للمشروبات الباردة ، الجرائد، السيارات ، الهاتف ، ومتع اجتماعية ، ومتطلبات الالعاب مع كرات من مختلف الاحجام ، ولحد الان فالكثير منهم ــ من يبقون مدة طويلة ، أو يتركونها ــ لابد من أن يتذكروها ، وسيأتي وقت يشعرون بأن مواد التسلية هذه مجرد تقاليد ، وقد حان الوقت للرجوع الى طرق أبسط ، عندما يفكر بعض هؤلاء الرجال بالجزيرة العربية ، فلهم في بعض الوقت وجهة نظر ، وفي وقت آخر وجهة نظر اخرى تسيطر على أفكارهم • الطالب يفكر بمتعة لغرض البحث : اللغة ، وعلم الآثار ، التي لا زالت الجزيرة العربية تعرضها • أما ما يفكر به أتباع « لانيوس » فبالطيور التي لا تحمل أسماء والتي تماثل ، الحيوانات ، الزهور ، والتي لحد الآن لم تحتوها قارة •

المسافر في شوق الى اجتياز ورسم خارطة قسم من المناطق الواسعة لجنوب الجزيرة العربية ، والتي لحد الآن لم ترها عيون المستكشفين الرواد الاوربيين . وآخرون ثانية ، وهم كثيرون يستمتعون بالجزيرة العربية لانهم يحبون العرب ، لا لعاطفة الاراضي ، أو تفضيل نكهة أو مذاق ، والتي جعلت من العرب والصحارى العربية الرملية موضوعا لروايات لا تعد ولا تحصى في السنوات العشر الماضية ، ولكنهم وجدوا أن فيهم الكثير مما يجذب . لقد أدركوا ان العرب قد تطوروا في غضون قرون عديدة فلسفة وطريقة حياة بتطابق هارموني مع بيئتهم ، والتي جعلت من صحتهم الجسمية والنفسية في اطمئنان دائم • لم يدم تفكيرهم بالعرب

طويلا بأنهم « متعصبون » و « جبريون » (يؤمنون بالقضاء والقدر) • ويزدرون التسلية أو حتى يشمئزون من الحاسدين ، انهم مشدودون الى طريقة حياتهم بأحكام ، وميالون الى أن يلمسوا أو يتحسسوا الحياة التي تختلف بشكل أساسي عن حياتهم ، يستسلمون للحزن ، وفي أصلاح أعمق لفهم حجم العاطفة • مثل هؤلاء الرجال (الاوروبيين) غالبا ما يكونون أكثر من طلبة أو تلاميذ ويتطورون الى سفراء حقيقيين من الغرب الى الشرق •

مؤلف هذا الكتاب كان واحدا من أكثر الضباط السياسيين الشباب الموهوبين في بلاد ما بين النهرين خلال وبعد الحرب ، وخدم بقدرة مشابهة ما وراء ــ الاردن قبل ان يختار ليشغل وظيفة مسؤول المستشار المالي ووزيرا لسمو سلطان مسقط وعمان •

لقد أظهر شجاعة ودهاء في ظروف صعبة جدا وخطرة خلال وبعد الحرب في بلاد ما بين النهرين • ان سجل أعماله في عمان والتي تكون الصفحات التالية لهذا العمل العرضي خلاله • ولكن الضوء المتواضع ، يكون فوق الاعتيادي ، ان له أهمية فريدة حقا •

انه كما اعتقد أول رجل انكليزي استطاع ان يشغل منصب رئيس وزراء في حكومة عربية حرة مستقلة • في مثل هذه الموهبة ربح الثقة التامة لكل من صديقي السلطان سير سيد تيمور بن فيصل ومجلس الحكومة • ان علاقته بقادة المتمردين من قبائل العرب في الساحل العماني مكنته من أن ينجز خلال فترة وظيفته رحلتين رائعتين جدا في منطقة لم تعرف تماما لحد الآن .

الاولى . كانت من الجنوب الشرقي من الجزيرة العربية الى حدود الربع الخالي ، من قرب رأس الحد الى ظفار « انظر مجلة الجغرافي • آذار ١٩٢٩ » • •

الثانية : من ظفار الى مسافة مئتي ميل على ابر • « انظر مجلـــة الجغرافي ١٩٣١ » •

ان الرحلتين اذا ما اخذتا سوية فانهما تشكلان أهمية كبرى وقطعة واسعة جدا من الريادة في الاستكشافات الجغرافية التي شرع بهما في قسم ما من العالم خلال الحروب •

لقد نشر في مجلة علم اجتماع الانسان الكبرى « حزيران ١٩٢٩ » بعض الدراسات التمهيدية بشأن القبائل التي صادفها في رحلته الاولى ، كما نشر بعض الدراسات المهمة التي تخص لغة الكلام التي يتكلم بها الكومزارا في شبه جزيرة موساندام (مجلة المجتمع الآسيوي الكبرى ـ تشرين الاول ١٩٣٠) ، والمهم بشكل عام هو مقالته حول قمة الجبل الداخلة في البحر (موساندام) وسكانها القاطنين هناك (مجلة مجتمع آسيا الوسطى ، ج١٥ : ١٩٢٨) وهو في لحظة الكتابة مشغول برحلة استكشاف ذات أهمية كبرى وذات خطر كبير •

أنا أوصي بهذه الآثار الرائعة ـ مع ثقتي التامة ـ للقــارىء ، الذى يرغب ، كما نرغب كلنا ، في معرفة شيء عن الحياة المعاشة اليوم لسلالــة ليست أقل ذكاء وبراعة ، وليست أقل مرحا أو اهتماما منا نحن •

وأثناء قراءتنا هذه الصفحات من المحتمل ان نرى القوافل تسير ، أو نسمع رنين الاجراس في الطرق التي تقع فيما وراء المدن ، وفي الطـــرق والمنحدرات الجبلية وعلى تخوم الصحراء ، من المحتمل ان نرى الفلاحين يعملون في بساتين النخيل والرجال المسلحين يجبون الجزية من القرى ، مع قليل من تأنيب الضمير ، كصياد السمك الشعبي من البحر ، السلطان في قصره ، والقبائل تحلب جمالها ، كل هذه الممارسات الحياتيــة تشبه حياتنا الى حد كبير ، ومثلنا تشغل بالهم شؤونهم الخاصة ، انهم يعيشــون

حياتهم ويحتفظون بزوجاتهم واذا أراد الله فسوف يكونون عوائلهم ، اذا كانت نشاطاتهم اليومية لا تظهر مهمة بالنسبة لهم كما هي لنا ، فالسبب لانهم دوما مستعدون لتقديم أنفسهم ضحية لبعض الاسباب التي يعتقدون انها أكثر أهمية من الحياة نفسها ، انهم واعون كونهم عربا ، وهم فخوريين بوطنهم ، انهم أميون ، غير متعلمين ، ولهذا فهم يتوارثون وما زالوا أحياء ولهم ثقافتهم العامة واعتقادهم العام ، ولغتهم العامة[1] ، كما في كلمات أيكسليسيا ستيكوس الثامن والثلاثين :

انهم لن يبحثوا عن مجلس حكومي
ولا الجلوس عاليا في التجمع
انهم لن يجلسوا على مقعد القضاة
ولا يفهمون جمل القضاء
انهم لا يستطيعون أن يصرخوا بالعدالة والقضاء
ولن تجدهم عند الكلام عن الحكايات الرمزية
ولكنهم سوف يدافعون عن وضع العالم
وكل اعتبارهم هو في احتراف عملهم

١ كانون الثاني ١٩٣١ — أ. تي. ولسن

المغامرة الاولى

حملة التأديب ضد عرب الاهوار

الفصل الاول : العناد ·

الفصل الثاني : المواجهة التمهيدية ·

الفصل الثالث : الهدوء

الفصل الرابع : قدوم للقبض ·

الفصل الخامس : اتفاقية استسلام ·

الفصل الاول

العنـــاد

بلاد ما بين النهرين : انه ربيع ١٩١٨ ، السنة الاخـيرة من الحرب العظمى ، الجيش البريطاني اكتسح الاتراك ودفعهم الى خارج أراضـي الرافدين ، الى مرتفعات الموصل ، وسياسة بريطانيا كانت مشغولة باخضاع القبائل العربية في المؤخرة • كل شيء كان حسنا في أهوار المنتفك باستثناء عدم طاعة شيخ واحد قوي ، هو بدر بن رميض ، وهو رفيـق مشاكل ! كان منبعاً ثابتا لعدم الراحة •

لقد رافق نجاح الجيش البريطاني تحســـن في المـوقف المحـلي للقبائل ، أما الموقف المضاد العنيف في البداية في منطقة المنتفـك الهائجـة (البرية) فقد كان يسير نحو الضعف مع سير الاحداث :ـ انســحاب الجيش التركي من نهر الحي ، اكتمال خط سكتنا الحديد من البصرة الى الناصرية ـ والنتيجة مفرحة بالنسبة لنا ، وعداء صارم طويل مع الاتراك في الكوت . الامتحان المحلي القاسي ، ويجب ان نقول ان ما أدى بانتصاراتنا الى القمة هو احتلالنا بغداد ، وخلال السنوات الماضية الى تعزيزنا لمكاسبنا • القبائل « بحواسها التي في عيونها »[٢] كما يقال في الامثال ، جعل عقولهم تفكر بأننا لم نسرف في التضحيات الدموية والمالية لامور تافهة ، ولكن حب الآخرين كان مهنتنا ، لقد صدقوا اننا جئنا لنبقى ، وقد لاحظوا قوتنـــا ، وطبعا وبمرح قرروا أن يحترمونا ـ بالرغم من نشاطاتهم الليلية ـ وغارات قوارب الانهار ، وقطع اسلاك الهاتف ، ونهب القتلى في ميادين المعـارك ، ستؤخذ هذه عندما تعلق القضية في الميزان •

ولكن ذلك المنظر انتهى ، وفي المستقبل سوف يقسمون كلهم ، عدا رجلنا الكبير في الاهوار •

« الطاعة ؟ » تساءل بدر الرميض شيخ قبيلة البو صالح والرئيس الاعلى على الاقل اسميا ـ لبني مالك ، والثالث في تحالف المنتفك الكبير[٣] ، « الطاعة ؟ » انها تعرض لكل الشيوخ الآخرين في هذه المنطقة المبتلاة بالحرب ، أما بالنسبة لي « لا أبدا ! » ثم وضع اصبعه على بندقيته نموذج ١٩١٢ موزر ، مع ولع المحارب الصحراوي القديم •

الفوضى واراقة الدم ، كانت هي المسيطرة في الاهوار في أواخر أيام الاتراك ، وهكذا فان جهودنا كانت لتوطيد السلام والنظام • وعلى أي حال لم يطل الوقت حتى شعروا بأن العلم يجب أن يؤخذ بنظر الاعتبار ، وبالمقارنة فقد أعطيت الاراضي اهتماما كبيرا •

الاتراك ، بالرغم من الهيبة التي ارتبطت بهم لقرون من الهيمنة السياسية الموروثة للاعتقاد العام ، كانت منذ زمان الحكم القبلي الشعبي للسلطان عبدالحميد ، كانت هنا غير ملائمة • لقد خضع للروح القبلية الهادفة أكثر وللنظام القبلي في ذات نفسه ، المضاد للاهداف وطرق الحكومة السائدة • وحكومة العرب القومية في العراق اليوم من المحتمل أن تمنح تأملا مريحاً فيما اذا كان النظام القبلي سيكون تحت التأثير التدريجي للتطورات الصناعية وطرق الحكومة التي أُسِّسَتْ على طراز منظم وأفكار تقدمية ، أو في وقت تنمو قواهم المعادية • ولكن في الوقت الذي آلت فيه متطلبات السياسة طوعاً أو كرهاً كان احتضاننا للقبائل هكذا • حاجتنا المهمة ـ في قطر تسيطر عليه القبائل ـ هو الهدوء لكي تكرِّسَ قوات جيشنا نفسها لفكرة واحدة ولهدف رئيس هو تحطيم الأتراك •

هذه الحالة التي اعتقدنا انها ستنجز بشكل جيد بواسطة السيطرة المخفية (المبطنة) من خلال الرؤساء التقليديين الملقبين محلياً ، أو بتسمية أهل البلد لهم بـ (شيوخ القبائل) • ان الاختيار البديل المنجز مسبقاً في الحكومة البيروقراطية وهيئتها من السكان المحليين كانت تتعمد الغاء

نهاياتنا السريعة وأن تكون حذرة • وفي الوقت نفسه كانت هيبتنا كافيـة لاجبار القبائل على الوئام • والقبائل واثقة مطمئنة من بعضها الى درجـة لم يسبق لها مثيل . واستطاع أفرادها أن يبيعوا حبوبهم وتمورهم ويشتروا حاجياتهم وطعامهم بأسعار نادرة ، وجيشنا الكبير في الحقل ، حقق لهم في السنين القليلة ، منذ هدنة الحرب ثروة لم يحلموا بها ، لقد زينوا نساءهم بالذهب الجميل ، وسلَّحوا أنفسهم بالبنـــادق الحديثة التي التقطت من ميادين المعركة التي توفرت فيها ، وكانت حصاداً سخياً •

أنا مقتنع تماماً بأنهم لم يفكروا لحد الآن بيـــوم سيأتي قريبـــاً ، يوجهون فيه هذه الأسلحة الى مصدر رخائهم ، وهكذا سيكون وضـــع حركاتهم التي ستقودهم الى الجفاف • وللتسليح وظيفة المفاضلة والشرف عند القبائل العربية ، كل قبيلة لها عدوها الوراثي ، ثارات قديمة ، لطخة في شـعار النبـل يجب أن تمحى أو تقوَّض • وقوفهم الفـردي للدفاع والمحافظة على الحقوق ، والآخر أما للحماية أو للمطاردة • ولقـد كان بلا مسوّغ أن نفترض ذلك التسليح الشاذ غير الاعتيادي • ظهـــر من رخاء شاذ في هذه الفترة ، أن باعثاً خفياً خاصاً ـ وفي الحقيقة ـ تحت ظل فساد النظام العثماني البطيء الذي شكل تجربته لوحده هو الذي وضـع لكل شيخ قانونـه الخاص لنفســه ، القوة كانت هي الحق ، التفـوق في السلاح أصبح بالنسبة للقبائل هـــو سـيد الأهداف ، مفتاح المآثر ، انـه « اِفتح يا سمسم » • ولكن ماذا عن الشيخ بدر ؟

انه أكثر تنسكاً من الكثيرين من أمثالـه ، لقـد قضى فترة قصيرة بعيداً عن أهواره في حياته الطويلة ، لقد كان في التحاقه بدعوة الجهاد[٩] لصد الموجة الأولى من غزوا البريطانيين عند انتشار الاعمال العدائية ، ثم

(٩) الجهاد أو الحرب الدينية ، واحد من خمسة معتقدات في الاسلام ، والاربعة الاخريات هي الصلاة ، الصيام ، الحج الى مكة ، الزكاة •

معركة الشعيبة في ١٩١٥ . أقسم أن لا يهادن وأن لا يعقد حلفاً مع الادارة البريطانية . وظل وفياً لقسمه هذا بعيداً عن نفوذ الحكومة ، ولم يعترف بالادارة البريطانية . والآن لثلاث سنوات ، انه واثق من موضعه الخلفي المنعزل ، لقد تجاهل كلامنا وعروضنا للسلام ، لقد احتقر موظفينا ووكلاءنا ، وأخفى جواسيس الأتراك وعملاءهم[٤] ، وبمرور الوقت أصبحنا نحن أكثر وأكثر توطداً وثباتاً وقوة ، فيجب عليه أن يتنبأ بأخطاء العصيان والتمرد[٥] .

من دون شك لقد حان الوقت الذي يفكر بعواقب أعماله وقد تعدت حدود الاصلاح . الى هذا الحد ، الى حد عدم قدرته تصور العالم الخارجي والعالم المسطح الذي يعتقد فيه بأن أهواءه هي المركز ، مع قوة العثمانيين غير الواضحة في التفكير حول حدودهم والى حد ما ، من المحتمل إن أثر جنون العظمة في شخصيته ، يجب أن يعزى اليها تمرده وعناده الاخير .

لقد بدا أنه يعدنا قسماً من مخلوقات الله الغامضة ، كفاراً ، من الذين جاءوا متطفلين ، وأنه لا يعرف من أين ولا يهتم بأيهما ، أو أي نجم يجب أن يغرب . كل الشيوخ الآخرين التزموا بطاعة الحكومة . بدر وحده تمسك باخلاصه القديم ، اخلاص راسخ لا يتغير بسلطان أهوائه وبعودة الأتراك ، اذا كان فقط على وضعهم الغامض في الماضي القريب . انه الوحيد من بين قلة من الشيوخ الذي رفض أن يقبل السلام البريطاني ، انه الوحيد الذي سيبقى أمامنا متحدياً .

فطرية الجهاد هي دعوة لحمل السلاح لحماية الاخلاص ، الحق ، ولكن للسلاح كان بيد الاتراك قبل ان يلغي السلطان نظام الخلافة ، من المحتمل ان ترجع الى أهمية سياسية ، هذا العمل كان في بلاد ما بين النهرين ، عند اندلاع الحرب العظمى ، ثارت القبائل وامر الاتراك كقضية دينية مقدسة . في ترجمة مولاي محمد علي القرآن (هامش

هاروند ديكسون كان الضابط السياسي لمنطقة المنتفك(*) في ذلك الوقت ، وبدر كان اخفاقه الوحيد • ديكسون كان يمتلك نفسية تفهم عرب القبائل ، ومعرفة بلهجة سكان الأهوار ، كتجربتي التي مرت ، وكان فذاً في كل القطر ، انه يملك حباً حقيقياً ، ومن المحتمل مفرطا لرجال القبائل . وأعتقد انه يعرف بالأسماء كل رجل ، كل امرأة وحتى الأطفال في بعض المناطق ، ونتيجة لصلابته استحق لقب أبو رصاص(**) انه (خريج) من نتاج كلية أكسيد جامعة أكسفورد ، ومن سلاح الفرسان التاسع والعشرين ، وكان بصفته ضابطاً سياسياً رائعاً للمدرسة الحرة • لقد جمع عواطف كريمة مع طول أناة ، لا يعرف التعب أو الكلل . وقد فاق العرب في مباريات حكاية القصة •

ولكن هذه الصفات الناجحة والفعالة لم يقدر لها النجاح للأسف ، ولم تثبت فعاليتها في التعامل مع الخصم بدر ، لم يستطيعوا أن يجمعوه أكثر من مدة المقابلة مع الرجل الكبير وقد حدث خلال ذلك كما أخبرني بعدها •

١٠٧٣) ترجم كلمة الجهاد بـ (كفاح ، نضال) • (وجهة النظر من دون شك تعود الى الطائفة الصغيرة الأحمدية) وانكر كل معنى حربي لها • ان دراسة اصل الكلمة وتاريخها من المحتمل ان يكون هكذا ، ولكن بين القبائل العربية نفسها فان الكلمة تمتلك الدلالة أو المضمون الذي أعطيناه) •

(*) هذا الشكل من الالقاب كما عند العرب ، انه بغير معنى لا يتملق أو لا يشبع غروره او كبريائه ، والاسم البارز قلما ينسى ، سير ريجارد • ثم ان كابتن برتون في رحلته السرية الى مكة كان يعرف عند البدو القدماء بـ (أبو شوارب) نسبة الى شواربه التي لا يقلمها ولا يقصها كما في المذهب الشافعي • لقد كنت استمتع في احدى المناسبات في جنوب الجزيرة العربية بأن اسمع ان ضابطا بريطانيا ممتازاً كان قد زار المكان قبل عدة سنوات ، وكان يذكر فقط بـ (ابو خرطوم) نسبة الى انفه البارع (الطويل) •

لقد قام بجولة في هور الحمار ، بمركبه الحربي الذي كان يرفرف عليه العلم البريطاني لارهاب العشائر وتخويفها أو استمالتها ، وخاصة استمالة الشيوخ والرؤساء . وكن يرغب في مقابلة بدر ، الا أن مبعوثيه جلبوا له رسالة من بدر مفادها : « لن أذهب الى الناصرية ، ولكن اقابلك وجهاً لوجه ، نعم بكل معنى الكلمة ، اذا كنت ترغب في المكان نفسه ، في بداية السهل غداً عند طلوع الفجر ، بشرط أن تكون المقابلة من دون حمل السلاح » .

لقد كان هذا بالتأكيد تقدماً ، وعندما استشار ديكسون الشيوخ الموالين له ، أشاروا عليه بعدم الذهاب مؤكدين وجود نية سيئة . ولكن ديكسون لم يأخذ مشورتهم لأنه رأى فيها غلقاً كاملا للباب المفتوح على مصراع واحد .

وذهب لمقابلة « بدر » في كوخ قائم على احدى الربوات ، عند الفجر في سهل مفتوح .

انتظر « ديكسون » مدة من الوقت حتى ظن في البدء أن بدراً لم يفي بوعده .

ولكن ما أن انتصبت الشمس في كبد السماء حتى شاهد « ديكسون » باخوره غباراً متصاعداً ، واستطاع أن يميز ثمانية من الخيالة قادمين نحو الكوخ ، وقد ترجل من وسطهم بدر بخطوات واسعة ، وأخذوا يعدون على جيادهم بسرعة ليطوفوا حول الكوخ . ونهض « ديكسون » الذي وصف بدر بقوله :

« طويل القامة ، عريض الكتفين ، ظهره مستقيم ، ولكن منحن قليلا رغم بلوغه الخامسة والستين من عمره ، له عينان ثاقبتا البصر ، وله لحية مربعة ملتهبة » .

ذلك الانطباع الذي تركه ولا يمكن أن يُنسى .

« سلام عليكم » قال ذلك وجاء مباشرة الى ديكسون بطريقة نزع السلاح ، لقد كانت طريقة خداع غامضة لتضليله بدعوة السلام . لكل ذلك بدت كالمصيدة ، والسياسي شعر بأن بدراً يتصرف بطريقة مبغضة وينتهك حرمة القانون بحالته هو وجهاً لوجه . لقد امتلأ غيظاً ، واستدار ، وحكى غضبه بصراحة . الشيخ العربي وقف هناك ينظر اليه صامتاً في تلك الأثناء ، ثم انفجر ضاحكاً ، واتجه اليه واضعاً يديه المجعدتين السمراوين على أكتاف ديكسون ، قبله على خده الأول ثم قبله الأخرى على الخد الأيسر ، ثم بدأوا يبحثون في موضوع المقابلة .

قال الرجل الانكليزي لبدر : « تعال معي ، تعال معي وبالحظ والبخت الى الناصرية ، وسوف أرسل برقية الى المفوض الاهلي(*) في بغداد وأعلمه أنك أعلنت الأمان ، وأنا أعدك بأن حياتك ومكان استقرارك مشرف .. تعال معي كالضيف المحترم ، وأنا سأعطيك التعهد المهيب بأنك سترجع سالماً الى قريتك بعد أيام قليلة » .

نظر الى السياسي بغرابة أول الأمر ، لقد بدأ بدر العجوز فجأة بأنه لا يلين ، ومدّ يده الى الآخر لمصافحته قائلا : « كلماتك كريمة ولطيفة وكما توقعت كانت » قال له ذلك ثم « أشكرك كثيراً أيها الحاكم . سوف نلتقي غداً العشاء ان شاء الله ثانية في نفس المكان وفي نفس الساعة وداعاً . في حفظ الله » ثم استدار وذهب كما أتى الى قعقعة حوافر الخيل الشجاعة .

(*) في الأيام الاخيرة من الحرب ومدة البريد الحربي المستعجل لم تكن تستعمل كلمة « المندوب السامي للعراق » . ان المسؤول الأعلى عن السلطة الاهلية كان يعرف « المندوب او المفوض الأهلي لبلاد ما بين النهرين » استعملت لأول مرة للسير برسي كوكس ثم للسير ارنولد ولسن .

ديكسون أطرى نفسه أنه سلك الطريق الصحيح في محاورته ، وامتطى جواده ليرجع الى المعسكر ، وفي ذهنه تصور للبرقية التي ستنطلق غداً بسرعة مرضية الى الجهات العليا •

ولكنها كانت تخيلات واسعة ، مع مجيء اليوم التالي جاءت أخبار ارتداد بدر وفراره •

ما الذي أزعجه بعد هذا الوعد الذي استمع اليه ؟ بالتأكيد لم ينتابه الخوف ؟ لماذا لم يعلل اختفاءه في محارته ثانية ؟ المحارة التي تبدو وقد قدر لها ألاّ تمنح الا برودة الفولاذ •

وما هو تأثير القبائل الصديقة التي وصل خضوعها المخاض العظيم ؟

ان غرور بدر وقوته الشخصية أوصلته بعيداً وستكون عواقبها وخيمة •

لقد أحبط ديكسون آماله التي استأنفها لايجاد سبب اخلاصه القوي في المساعي السلمية اهتزت بفظاظة •

ألم يكن هو ممثل الجيش الحكومي ؟ بالتأكيد فان بدراً سوف يدرك قوة جيشنا •

يبدو أن بدراً مصمم على وضع اصبعه في أذنه وأنفه ، متحدياً مع « التعاقبية الخامسة » الممقوتة من دكاترة الموسيقى ، الضابط الآمر العام ، دفاعات الفرات •

الفصل الثاني

المواجهــة التمهيــدية

١٩١٨/٥/٢٨

أمر العملية رقم - ١ -

بواسطة الضابط آمر الرتل النهري

« المصدر . خارطة ½ الى ١ ميل مسح : غيشية[٧] ، خميسية[٨] ، ناصرية »

١ - الموقف :

بدر الرميض شيخ قبائل البو صالح ، الى هــذا التاريخ لم يسلم للحكومة البريطانية .

موقفه خلال المدة الطويلة الماضيــة سلبي ويرتكب الجرائم ولـكن عناده بعدم التسليم يؤخر استقرار شؤون البو صالح .

٢ - الهدف :

ان المقصود من مركبات الدفاع « فاير فلاي » و « كرين فلاي » و « أس ٩ » وفوج المشـــاة ٩٩ المنفصلون و « القســم د » المنفصل « المستقل » ومجموعة البنادق الاوتوماتيكية الهندية .

المجموعة تحت إمرة الضابط السياسي للناصرية ومساعد الضابط السياسي للسـوق ، سـوف تذهب الى قريـة بدر الرميض في يـوم ١٩١٨/٥/٢٩ وتأمره بالتسليم للحكومة البريطانية .

٣ - أمر وتفصيلات التحرك :

في صباح يوم ٥/٢٩ ، المركبات الواردة أسماؤها في الأمر سـوف تتحرك من المزلاگ ، الأولى في التسمية الساعة الخامسة صباحاً .

مركبة الدفاع فاير فلاي

مركبة الدفاع كرين فلاي

أس ٩

« كرين فلاي » سوف تتحرك مسافة ٤٠٠ ياردة بينها وبين « فاير فلاي » ، ومثلها بين « فاير فلاي » و « أس ٩ » كذلك تترك ٤٠٠ ياردة خلف « كرين فلاي » المركبات سوف تمر عن طريق هور الحمار[٩] ، الفهود[١٠] ، هور أم الكطن[١١] ، أبو غليوين[١٢] ، وهور الطلائع[١٣] ، الى نقطة مواجهة لقرية بدو « في دائرة قطرها ٥٥/٢٠/٢ قدماً » .

٤ ـ الحماية والحذر :

لا نتوقع أية مقاومة ، ولكن مع ذلك وكتدبير حذر ، عند دخول المركبات الى هور القطن على الجنود كافة وبقية الملاك في كل المركبات أن يكونوا في غاية الحماية والحذر ضد نار البنادق ، وكتدبير حذر ، فان الرسو والنزول الى اليابسة مسألة ضرورية وفصائل المشاة ٩٩ ، وحاملي البنادق الاوتوماتيكية = ومجموعة اسعاف الميدان سوف تجهز طعام غداء الليلة .

٥ ـ العمل في حالة اطلاق نار على المركبات :

في حالة حدوث اطلاق نار على المركبات فان على البنادق الاوتوماتيكية والبنادق العادية أن تفتح النار مرة واحدة على العصابات المعادية . المركبات سوف تسير بحذر كأنما الابحار في أماكن غير أكيدة العمق وبسبب الضفاف والمياه الضحلة .

٦ ـ وسائل الاتصال :

ملاحظة : ثلاثة خطوط للاتصالات المشتركة ، سوف تربط بين « فاير فلاي » و « كرين فلاي » و « أس ٩ » .

٧ ـ التقارير :

كل التقارير الى الضابط آمر الرتل النهري ومركبة الدفاع « فاير فلاي » •

كانت هذه العملية هي أول تجربة لي في العمل السياسي • ولقد كنت على يسار الفوج الذي بأمرتي ٤/١ من الحركات في الناصرية لآخذ مكان الضابط السياسي في سوق الشيوخ • هايسن(١٤) ، كابتن شاب يتكلم عدة لغات وقد استثني من فوج الراجبوتي ، كان في مهمة وكنت معه على ظهر الـ « أس ٩ » لنتفق على الأوامر ، عندما مرت باتجاه مجرى النهر في الساعة ٧٫٤٥ صباح يوم ٥/٢٨ اللاذع •

لقد تعارفنا على ظهر السفينة بواسطة الملازم الكولونيل ضابط القيادة في الرتل ، وبأمر الميجر ديكسون رئيسنا السياسي المحلي ، كنا نعمل ـ سوية كلنا بسرعة ـ الخطط السرية ضد رجل الأهوار الكبير •
بساتين النخل الكثيفة تأخذ خطاً على ضفتي نهر الفرات الجبارة وفي بيوتهم القروية الطينية أو هنا وهناك تجد قبة زرقاء على المقامات والأضرحة التي يزورها الشيعة لتعطيهم الهبات • لقد وصلنا هناك ظهراً فوجدنا كميات كبيرة من المياه المنتشرة ، هور الحمار ، حيث ترسو الباخرة المدرعة « فاير فلاي » و « كرين فلاي » اعتيادياً ، لم يكن هنالك زوار لجناح الضباط في السفينة غير اعتياديين ، ولذا فقد جئنا الى طعامهم المثلج ، والمزيه المؤثرة في الثلج لا يعرف قيمتها غير الرجل الذي يشرب بيرته حارة في المناطق المدارية أو الاستوائية تحت حالات الحملة ، التي تسجل فيه درجة حرارة الظل ١٢٠° • في تلك الليلة تحولنا الى ضابط القيادة في الرتل في « فاير فلاي » وفي الوقت نفسه جلبنا تخصيصات وذخيرة ١٢ مدفعاً نقلت من سفينة الى أخرى •

لابد من أن تكون البداية مبكرة غداً ، لنستعين بعنصر المفاجأة ،

وعليه لابد من أن نخدع أنفسنا بالافتراض بأن رد الفعل لتركيزنا قــد فقد على الشواطيء العربيــة ، أو بأن هــذه الترتيبات ستفشل لترسل السعة الى رجلنا العجوز في الأهوار ، قبــل أن يبــدأ قذفنــا الأسود من مداخننا ، يرتفع فوق أفقه لتحذيره بالزيارة الوشيكة ٠

لقد استيقظت لأجد باخرتنا في الطريق ، المؤشر ، والرماة كانوا منشغلين لملأ أكياس الرمل لبناء المتاريس بجانب حواف السفينة ذات الجدران الحديدية السميكة • أربع ساعات ونصف الساعة ، أوصلتنا الى الجانب البعيد من الهور ، وفي الساعة ٩٫٣٥ وصلنا الى نقطة الرسو التي تبعد ٢٤٠٠ ياردة جنوب غربي قلعة بدر •

اطلاق نار متقطع من البنادق ، هدفه اظهار العداء ، رحب بنا من الضفة الشرقية ، وكأننا نترك البحيرة فقد اقتربنا من القنال الضيقة التي يضللها سعف النخيل الى الأمام باتجاه قرية بدر • ولكننا لم نرجع منها « الكلاب تنبح والقافلة تسير » لقد أثيرت كلها من واحد من الحرس يتسلى باستعراض التحدي هذا الذي لا طائل تحته •

ان ساعات الصباح الأولى انتهت بالتسلية ، طول الطريق بفضل راوية القصص العربي ، الرجل القبائلي العربي ، من المحتمل أنه على حساب أميته تمرّن أن يكون راوي قصص أو أخباري بارع ، وتشبيهه الرائع للصورة على حساب شجاعة بدر والمآثر جعلتنا كلنا نتسلى • قبل أشهر قليلة ، كنا نسمع الآن = بأن الرجل العجوز قد استولى على باخرة مدرعة أرسلت بقصية مشابهة لطبيعة هذه ، وقد ضرب بالسيف كل رجل كان على ظهر الباخرة ، لقد كان ذلك غريباً ولم نسمع حتى بهمس عنه من الأمور التي لابد أن تصل الى أسماعنا ، ولقد أثبت العربي للجميع أنها مفارز للسلب !! السفينة ، كما ذهب الملفق ، طفت على الشاطيء ذو الضفة الرملية ، تقدم العرب لها بسرعة لاخراجها من النهر لميل أو ميلين ، وجلسوا يشتغلون بجد لصناعة الحبال من الحشائش بالمئات ، ونزلوا بأثقالهم الى النهر ، عاموا تحت الماء أسفل النهر وحبال الحشيش عملت ما هو مطلوب منهم ، لقد أصبحوا الآن قريباً من الوقوع في الشرك ، في الدافع (الرفاس) المتحرك ، وأعاقوا أعمدة الادارة • عملوا

اكثر مما تحتمل المكائن ، والبقية كانت سهلة ، عندما شوهد طاقم السفينة البريطانيون متورطين بعمق في عمليات انقاذ السفينة ، بدر ورجاله السعداء كانوا يقفون بالانتظار ، وهكذا أخذوا السفينة •• وانتهت القصة الملفقة •

يتبع القصة سلوك اخلاقي على أية حال • بدر كان بلا شك رجل مواهب وكفاءات ، وبه بسالة وطني (محلي) ، ألم يتزوج خمسا وستين امرأة(*) • وبترتيب حسابي شابة عذراء لكل سنة من حياته وهكذا[٥١] ، وعندما ذهب للحرب ألم يذهب معه عشرون مجندا من أولاده برفقته ؟•

انه هنا سليمان واليوشع في آن واحد ، والان فلتعجب من مناخ هذه المنطقة ـ ألم تكن أرض شنير(**) ، أرض البابليين ، جنة عدن ؟•

(*) شيوخ القبائل لبلاد ما بين النهرين يبدو انهم يقيمون وزنا لسبق الشيوخ في الأقسام الاخرى من شبه الجزيرة • خمس عشرة أو عشرون امرأة (كلهن يعملن يدويـاً ، واقتصادياً مربحات) يصرن لشخص واحد كان بلا شك نادراً بين المنتفك ، والتعايش الزوجي كان محجوزاً لثلاثة أو أربعة ، وتجربة الاخريات ليصبحن محدودات لأمد قصير لوصولهن المبكر ، وذلك عندما كنّ في حوالي الرابعة عشرة او الخامسة عشرة من العمر ، وفي نظرية المسلمين يسمح بالزواج الشرعي من اربع زوجات فقط ، أما البقية فجائز الاحتفاظ بهن خليلات أو عبيداً • ولكن قانون المتعة ، وذلك التعليل الذي أسرف به بدر كثيراً ، قانون خاص للشيعة ، القسم الكبير والرئيس من قبائل العراق جنوب بغداد ، انه ينشيء علاقة تعاقدية مع نساء حرّات ، والذي يكون في القبائل غير مميز الشكل عند الزواج : المتعة (زواج المتعة) لايشبه الخليلات ، انه قانون مقدس لمنزلة وممتلكات الرجل وفي مقام زوجاته الأربع المفروضات نفسه • النظام مطاطي بشكل ملائم ، وعلى اية حال ، فخلال الزيارة للاماكن المقدسة في كربلاء والنجف ، فان رجل القبيلة سوف يحرز في الحال زوجة المتعة يأخذها لليلة أو ليلتين أو لاسبوع أو لمدة إقامته ، هذه الفقرة في ذات المدة القصيرة لا تتعارض مع قانون الشيعة الديني ولكنها الآن غير مقبولة حتى عند الفرس •

(**) شنير في الانجيل ، وشومير في التوراة •

هذا المناخ هو مناخ الآباء القدامى والحديثين ، نوعوا أغاني الوقت •

وهذا نموذج من أغاني الجنود في ذلك الصباح في وجود بهيج ماجن[16] .

لقد وصلنا نقطة ابحار الامان المحدودة لسفننا ، والاميال الاخيرة القليلة التي تشبه الموت البطيء ، كانت محفوفة بالمخاطر حقا • ان وجود التغيرات في الاراضي المنخفضة من يوم لآخر مع ارتفاع منسوب المياه في النهر ، وكان هنالك مجال كاف حقا للمناورة عندما يكون الفيضان في أعلاه في تموز وآب ، ولكن الحرارة الشديدة لتلك الاشهر تعمل ضد نجاح عمليات الادارة ، والاتصال بواسطة الجنود البيض ، واذا استطعنا اختيار الوقت لرمي القفاز للتحدي فأن أشهر الصيف لن تكون مسلية أو كريهة معنا •

المشهد خلفنا لم يكن مميزا ، كل من الضفتين الشرقية والغربية كانت خلفها امتدادات جافة ، والتي في الدوران تعطي لمناطق البحيرات المؤقتة ، الاسراب كانت متعددة ، الحقول الصفراء الواسعة في وسط المكان ترى من بعيد ، ولقد كانت هذه المناطق تحتاج الى الكثافة السكانية للمناطق المجاورة • قرية بدر كانت تضطجع الى الغرب من بساتين النخيل ، وبينها وبيننا كانت منطقة جرداء تتخللها طرق مغمورة ، والتي ستكون مكانا مفضلا لمهاجمة الجنود غير المطلعين عليها ، لمحة بسيطة تكفي لترينا ان نزود قوة صغيرة مثل قوتنا الى البر كانت غير مضمونة بالرغم من احترافنا ذلك •

قضيتنا بعد كل شيء هي السلامة ، ولكن يجب أن نأخذ الاثنين لنعمل السلام • اذا اراد بدر الامان فسيأخذه بسهولة بمجيئه الى السفينة للتفاوض • انه سيحصل على تأكيدات برجوعه سالما اذا لم تعجبه اقتراحاتنا ، او اذا طلب وقتا لدراستها ، وفي كلا الحالتين لن يصيبه أذى

أكثر من عدم مجيئه بتاتا ، من المكان الذى كنا فيه بدت قرية بدر مهجورة ليس هناك انسان يمكن رؤيته عدا الخيمة الكبيرة ، وأخرى أصغر منها ، وجياد قليلة قيدت بحبل بطول معين وكانت ترعى حديثا ، اذا لم تكن حقيقة فهي حادث مفتعل •

فجأة ظهر من الخيمة الكبيرة شخص ، واتجه مباشرة نحونا ، وعندما اقترب اكثر بمشيته المبجلة ، وبجسمه ذي التغذية الجيدة ، ومظهره السوفسطائي ، وملابسه الوقورة التي دلت على انه رجل دين ، انه في الحقيقة موجه بدر الديني ، « ملا مشرف ، رجل الدين الرئيسي ، والكاتب ـ وكان واحدا من طبقة قوية عليا في وقته ، وكان تأثيره ممتدا للسنوات الطويلة الماضية وما يزال •

لقد بدأت الاجراءات الشكلية ، وبادرنا « لماذا جئنا ؟ وان القبيلة أثيرت بمجيئنا • اذا كنا نسأل عن شيخ بدر فللاسف ذهب منذ الصباح الباكر الى قضاء بعض الشؤون الخاصة ولكن ولده الاكبر حسن حاضر وحسن خادمنا المطيع » •

قال ديكسون : « إرجع واحضره » ، وحسن متوقع حضوره في الطريق •

« أين والدك يا حسن ؟ »

« شيخ بدر ـ قبل ساعة ركب وذهب بعيدا » •

« لقد جئنا لنراه ، ولا حاجة لايقاع الاذى به ، وليس هناك أخطاء تفرض علينا محاسبته على ذنوبه الماضية • كل ما نريده هو زيارة شكلية للناصرية ، والتعهد عن منطقته ، ان تبقى على حالها ليس أحسن ولا أسوأ من الجيران » •

ردّ حسن : « الله يبارك فيكم » •

« ولكننا نريده هنا • هل يستطيع أن يأتي الى الباخرة » •

أجاب حسن « الله أعلم » وأشار مشككا « ولكننا في خدمتكم ، اخواني الاثنين في القرية ، خذهم وخذني بمشيئتك ، خذنا اذا شئت رهائن » •

هذا هو السخط • الشيخ كان يظهر بوضوح وهو يلعب لعبته القديمة ، ديكسون لاطف ، ووعد ، واقتنع بالعودة ، ولكن كل ذلك من دون فائدة • ان الذهاب بين بين فلما يتوقع للكلام بعقل سيدهم حتى ولو عرفوه ، وفي نهاية ثلاث أو أربع ساعات من المجادلة كان صبر السياسي قد نفد ، تراجع من الضابط آمر الرتل للسير بالخطوة الثانية • لقد قررت حالا :ـ

« ملا مشرف » انزل الى الشاطىء مع انذار رسمي الى بدر بأن يحضر الى ظهر السفينة في ظرف ساعة •

وحسن الذي بقي على ظهر السفينة ، أرسل رسالة خاصة في الوقت نفسه ـ ولهذا لم يكن واضحاً تماماً الى أي مدى سوف يستمر بخداعنا ـ طالبا اخوته الاثنين ان يأتيا الى ظهر السفينة بلا قيد أو شرط •

وهذا ما أجبرهم على اعلان آرائهم الحقيقية ومبادئهم •

في الساعة ١٫٣٠ جاء الملا ، حاملا رداً مكتوباً برفض لطيف من بدر حاملا ختمه ، لا بدر ولا أولاده سوف يأتون •

اذاً لم يفعل الرتل النهري شيئا ، ورحلوا تاركين القالة ، انهم لم يفعلوا شيئا ، كان لا يعتقد فقط تشجيعا لبدر ان يمضي بعناده ، ولكن لاغراء الشيوخ المحليين الذين في الطاعة ان يتركونا باعتقاد انهم يستطيعون ان يفلتوا من العقوبة • وعمل من نوع ما كان بالضرورة مهما لنريهم ان

الحكومه جادة ـ وعمل كهذا في قسمنا كان قد احبط بعمل مسبق من الشاطىء ، وايضا الهجوم المفاجىء بفعالية من حول الخيمة ، انطلاق الرصاص ، عويل النساء ، رقصة الحرب ، كلها شكلت رد بدر ـ (فزعة) القبائل أو القيام بالانتفاضة ، هذا كان نتيجة طبيعية لتحديه الفعلي . وبعد قليل جاء حوالي مائة وخمسون من رجال القبائل = البنادق بأيديهم منطلقين بسرعة من خارج بساتين النخيل ليعبروا السهل هارعين للنجدة ملتفين حول القبيلة المنتفضة ، والآن هم خلف الخيمة ، ونحن كنا في موقف ممتاز ماسكين أيدينا (ضبط نار) الى أن ينقضي الوقت المذكور في انذارنا ، من ناحية اخرى سنعمل فوضى كثيرة اذا بدأنا العمل .

الساعة ١٫٤٠ وصلت هذه الدقيقة وأمرت « فاير فلاي » بفتح النار أولا . واحد من بنادقها تعطل عن العمل بعد دورات قليلة ، وگرين فلاي دخلت الى العمل بقصف مباشر . واستمر القصف . أولا الخيمة الكبيرة تحولت الى شظايا . ثم الصغيرة شبت فيها النار ، بعض الضربات وقعت في بيت الضيافة القصبي (المضيف) ، وقد تركز القصف على البرجين الشمالي والغربي .

الكولونيل لوكسمور ، أمر بهذه العمليات ، جلس عالياً بشجاعة في اعلى نقطة على الجسر وكان قد أخذ موقفا جيدا ليرصد ويسجل الحركات على الشاطىء ، ليرسم ويستطلع ويكشف للبنادق ، ونقطته المكشوفة رسمت مسارا جيدا لنار البنادق التي كلها ـ لحسن الحظ ـ كانت عاجزة عن اصابته لم يكن هنالك اشارة للحياة بعد الرمي الاول المستمر (الصلي) حتى ظهر رجال قليلون من المحتمل ان يكون بدر وحاشيته قد اندفعوا خارجا ، وقفزوا على ظهور جيادهم = واختفوا في غمامة من التراب الى الشمال .

في الساعة الثالثة بعد الظهر صدر أمر وقف اطلاق النار ، وتبعه الأمر بالانسحاب ، « أس ٩ » تحركت مباشرة باتجاه مجرى النهر في الساعة ٢٫٤٠ ، و « كرين فلاي » ، « فاير فلاي » تتابعان الآن في مسافات حذرة ، متوقعين في أية لحظة أن يأتي الوهج من بساتين النخيل التي يغطي سعفها ضفة النهر من رجال القبائل الذين ـ كما كان يعتقد ـ سوف يرجعون بعد انسحابنا . وبينما نحن نرفع المرساة ونضعها على ظهر السفينة واذا مئات من القرويين بدأوا يظهرون ثانية من السهل يمضون في مساكنهم المهجورة . « كرين فلاي » اتجهت الى الشاطىء الطيني اكثر من مرة ولم تخرج الا بصعوبة ـ وفي هذه الفرصة توقفت « فاير فلاي » كمؤخرة ، بينما « أس ٩ » تمكنت قليلا من ان تعطي لنفسها بعض الاهمية ودفعتها . لقد كانت لحظات مثيرة للعرب كي يهجموا اذا رسونا خلال عملية انقاذ السفينة ـ انهم يملكون الفرصة للنجاح خصوصا بعد حلول الظلام .

عرب الاهوار يكونون طبعا برمائيين كالضفدعة ، سباحين أقوياء جدا ، حتى بيد واحدة ، وفي الماء البارد ، انه يتعامل مع النهر بيد ويمسك باليد الأخرى ملابسه عالياً بعيداً عن الماء ، وهذا ما يمكنهم من أن يلبسوا ملابسهم جافة في الضفة الثانية .

في عهد الاتراك وفي مدة الحرب أيضا كان حرا مطلق العنان في عادات غير مسرة في استعمال هذه الطرق الماهرة لابعاد الشك باستعمالها ، بانتظار الليل يمسح جسمه بالزيت ، ويطفو باتجاه مجرى النهر على طول الجانب المركب الذي رصده قفز الى ظهره ، وبصمت انسحب من على ظهر المركب ثانية مع غنيمته ، التي يصل بها الى الشاطىء وهو في حالة جافة تقريبا .

لحسن الحظ » فاير فلاي » و « گرين فلاي » هنا الآن ، وتوقفها قوي وسريع ، لقد حدث خلال لحظات التوتر في النزول الى الارض حادث مسل والذي أظهر الاغنية المرددة كاملة للقاء البريطاني ، كلب زعبي[١٧] صغير من أصل غريب ، يعرف عموما للجيش في تلك الفترة بـ « كلب الموصل الصغير » سقط من على ظهر السفينة ، مالكه مارد ضخم من رجال البحر ، ظهر على ظهر المركب في تلك اللحظة ، ومن دون توقف للنظر بعين الاعتبار الى العرب الأعداء ، أو ليتعرى هو نفسه من ملابسه المرتقة وبهدوء مشى على الجانب كأنما يمشي خطواته على الرصيف ، لقد اختفى تحت الماء لحظة واحدة ثم ظهر على السطح وانطلق الى الكلب ، والآن تراجع في تيار النهر سريع الجريان ، وكافح عبثا ليبلغ السفينة ، ولم يدم ذلك طويلا حتى لحق بها ، رجع ورمى الكلب الى ظهر السفينة بعد أن أمسك بها وجذب نفسه الى ظهر السفينة ، بدلته المبللة التصقت بجسمه البدين ، ولقد لفظ بقوة لعناته وسبابه على البائس الصغير المنبوذ ، نصف الغريق وهو يمسد رأسه بحنان ، ولقد شاركنا ضحكنا القلبي على أليفه المفقود ، لم يكن يدرك أنه فعل أي شيء غير ما يمكن فعله ، ولكن الاقدار كانت لطيفة حيث لم يكن هنالك أي عربي يكمن في ذلك النخيل الخطر ، ولكن حجرا ما رمي بعيدا .

« گرين فلاي » انزلقت الى المياه العميقة ، والرتل النهري واصل رحلة العودة الهادئة ، وعند مغيب شمس غد ، عدنا كلنا الى هواياتنا العادية .

أما حسن[١٨] بن الشيخ الذي جلبناه معنا كرهينة أو سجينا مقبوضا عليه فقد « نقض عهده أخيرا » . ورجل الاهوار العجوز كان قد أعلن الخروج على القانون شكليا ، وقد أشيع على ظهر السفينة ان منافسا[١٩] قد وضعته الحكومة خلفا أو وكيلا . وهو شيخ بني مالك .

« هايسون » وأنا كنا قد نزلنا في ذروة الموجة في سوق النيوخ ، لاسلكي قصبي[٢٠] (Tail baīrdi) أو ببساطة أكثر اشاعة

العرب : سبقتنا بنشر خطة الرحلة المحملة عملت بحيوية في زخرفة الخيال الاعتيادي ، وقد تعلمت في هذا الوقت الا أفاجأ أو أصدم عندما يقابلني الحمالون العرب ويحيوني بابتسامة عريضة ، ويروون بقناعة واضحة تلفيق السوق النموذجي ، يتبعه القصف بالقنابل ، والرأس المدمى لأحد أولاد بدر الذين لا يحصون ، كان كل ذلك مكشوفا من أعلى فرع الى أبعد شجرة نخيل .

الفصل الثالث

التهـــدئة

بعد مرور سنة ..

خلال الشتاء ، تركت سوق الشيوخ في أسفل الفرات لمهمة مستقلة ممثلا سياسيا لمنطقة الشطرة ، في الغراف ، في أسفل نهـر الحي . ومـع ذلك فأنا ما زلت في منطقة المنتفك . بدر عاش فيما وراء حـدود منطقتي و « بعيدا عن النظر ، بعيدا عن الفكر » ولقد فكرت بأن أرى نهايتـه . ولكنني كنت مخطئا سقوط النهر دعا الى توقف العمليات .

وعند الالتفات الى اللحظات ، للنظر الى صـورة المنطقـة . أولا ودائما ، واسعة ، غرينية ، سهول ذات شمس لاذعة ، لقد كانت الطبيعـة في واحد من أكثر أمزجتها صرامة وتجهما ، والسهول هذه هي هبـة الرافدين . وهما يشقان طريقهما متلـــويين وغير مســـتقرين متخللتي السهول ، جالبتي معهما في الربيع وفي بداية الصيف ، حملا من الغريـن الاحمر الذي يترسب بمجرد ان يهبط الفيضان . الأشهر الخمســة من مايس الى ايلول ، درجة الحرارة في الظل في اليوم قلما تحسن ٣٠°ـ٤٠° بارد بسعادة وتقدير . الحصى ولو كان صغيرا كقبضة كف الرجل قلما يوجد في أي مكان من هــذا السهل الهائل ، لهــذا السبب بابل بعاصمتها النبيلة ، لا تشبه نينوى والعواصم المطوقة ، بالجبال الآشورية ، كانت تبنى بالطين والآجر .

والنهر يجرى بوهن في الشتاء فقط ويصبح متموجا وسريعا ودمويا عندما تذيب شمس الصيف الثلوج من على قمم الجبال ، مرسلة فيضـانا عنيفا خلال الاراضي ، يمتزج في النهاية مع مياه « الخليـج العربي » ماذا سيعمل عقل الرجال اذا كانت السدود التي عملتها القبائل ضد الحوادث

التي من المحتمل ان تحدث للنهر المتضخم ، والفيضان الماضي بجنون ، والذي يكون مستواه أعلى من مستوى السهل ، خرق واحد سوق يغرق كل المنطقة المجاورة في فضاء الليل ، وسوف يعمل عملا قصيرا بمحاصيل الجهد الشتوي • لبعض التوقعات للفيضان بهذه الطبيعة بالتأكيد ، ونحن بذلك نكون مدينين لقصة نوح • ولكن الفيضان أيضا نعمة ، انه ينمي الحياة في الريف ، أن غرينه السنوي هو الموحد لحقول الرز الخصبة ، والذي سوف يطرد بغير توقر طائر الشقنب (الجهلول) من حقول الرز •

النهر هو المجهز الوحيد للريف بالماء ، أيضا اذا كنت تعيش في مدينة وتكون باقية كأثر لاحتلال الجيش البريطاني ستصرف عمليات التطهير بالكلور اللطيفة • أو اذا كنت تعيش في منطقة خارج المقاطعة ليست فيها هذه التجربة كالتي عشتها لمدة اربع سنوات عملا حربيا •

ولكننا يجب ان نرحل من مجرى النهر لننظر بلمحة الى حياتهم • بقية الزرع بعد الحصاد الاصفر في الحقول على الضفتين هو كل ما تبقى من محاصيل الشتاء ، حنطة أو شعير أو دخن أو شيئاً آخر من الرز من محاصيل الصيف • رجال القبائل يعيشون في أكواخ صغيرة تتألف من بعض الحزم من القصب غير المشقق تربط مع كميات من الحشيش وتسند بوضعها واحدة مقابل أخرى ، ويعمل منها كوخ بائس والتي تمتد على طول ضفة النهر ، ومهما كان حجم القرية فان قلعة الشيخ سيكون لها برج قتال خارج مركزها الوسطي • ليس بعيدا عن السحر لو أطرينا كثيرا • وقريبا منها جامع بسيط متواضع ، ومقابلها يقف تفق جبار صغير مبني من القصب ، انه المضيف أو بيت الضيافة •

مجموعة من الكلاب السائبة تتسابق على طول مدى الضفة مع مركبك لمائة ياردة تقريبا ، تنبح منزعجة من تطفلك • ورجل القبيلة

المنفرد ، المنعزل ، أسود البشرة ، وعار عدا ما يستـــتر عورته ، يقف في الماء الى عمق فخذه ، ماسكا رمح الصيد بيده (الفالة) محدقا الى أسـفل بقصد صيد فريسته المتمردة •• الجاموس ، ضخم وبليـد وغير لطيف ، والجذام يصل الى عمق الرقبة ، في هذه المياه الفاترة ، أو يسبح بفراغ من ضفة الى أخرى • غيوم من الحشرات الطائرة تحتشــــد في كل مكان ، والهواء مليء بطنطنات البعوض •

اسطول من المشاحيف – الزورق المحلي الطويل – على خط الضفة أسفل القرية ، تشبه قارب الجندول ، وهو قارب طويل وله عمود يغرز في الطين الضحل ، بمقدمته العالية الجميلة القوية التي تشبه فم دلة القهوة النحيلة بخط مقوس ، مع تغريفهم وسط المياه الضحلة يعملون لوحـة جميلة • واحد منهم يمضي بحركات سريعة مفاجئة مع مرح خفيف الى القارب القوي لأحد أبناء (المعدان)[٢١] (رجال أهـــوار من أصل غير عربي) ذي البشرة الداكنة ، جسمه الاسود القاري بتضاد قوي مع أكثر منافسيه طموحا ، البلم الابيض الانيق – البلم يعتمد على الجذف الاعتيادي بمجاذيف يدوية طويلة ، يتفاخر أيضا لظله الظليل في سطحه العريض المفروش ، حيث يستلقي المرء بكل ارتياح فيه ، الشيـخ أو ذو العمـــامة الخضراء (السيد) يقف مبتسما بمرورك المرحب به •

على الضفة يلعب أطفال عراة بصخب – أجسامهم محـــلاة بحنان الأمهـات بتمـائم دينيـة أو محفظات (جزادين) صغيرة تحتوي علـى قصاصات من الكتابات الدينية لتحفظهم من عين الشر ، يغسلن الملابس في النهر الصغير ، قيمات بمنظر السواد ، وعذارى شابات والاخيرات يمرحن بملابس زاهية الالوان لتميزهن ، واذا كن من أبناء المعدان ، أو معدان الأهوار ، فهن يمطن اللثام بفجور !! عن وجوههن الضاحكة التي تشبه

القمر ، شعرهن مضفور وملون بالخرز • عيـــونهن الكبيرة البـــراقة ، واسنانهن الباهرة المتألقة ، وأجسامهن القوية الشابة ، مستقيمة كالسهم ومليئة بالجمال كلها • اشياء مليحة للامساك • كل شفة موشومة ، ويجملن أنفسهن بحلي فضية ثقيلة ، حلقات الأنف اليغروزية (الخزامة) ، أقراط متدلية (تراجي) ، قلائد من حلقات الذهب ، عدة محابس بالاصابع ، وأسورة فضية في اليد ، وخلاخيل في الارجل ، والفتاة شاعرة بحليهـا ، وعذراء الاهوار بأية حال غير جذابة •

مع مجرى النهر هناك (المهيلة) ، وهي مركب نهـري ضخم ، تنزلق تحت شراع واحد من الجنفاص ، وراية الشيعة الخضراء ترفرف على ساريتها ، وشحنتها المختلفـة من الفرس والعرب الزوار يتجهـون شمالا الى الاماكن المقدسة في كربلاء والنجف ويتجمعون على ظهرهـا بالاضافة الى صناديقها المحملة بالجثث (التوابيت) في طريقها الى الجنة(*) •

ولبعض الرحالة المنفردين تكون السفرة ـ من يدري ؟

(*) في ذلك الوقت الذي كتبت فيه ، الدفن في الاماكن المقدسة في النجف كان قانوناً ثابتاً لقبائل الشيعة ، وقلما يمر يوم لا ترى فيه الحمير مع مومياتاتها حاملة الاثقال وبادئة رحلة المائة ميل متجهـة شمالا • وحتى من الاماكن البعيـدة ، من مسقط ، اليـوم فان جثث اولئك الشيعة التي تدفن ، تحفر ثانية بعد ستة أشهر من التجفيف في مكان راحتهم وترسل بواسطة الدهـو (وهو مركب شراعي مألوف فـي شواطىء الجزيرة العربية وشرقي أفريقيا) الى البصرة ، ثم تحمل في سفينة الى النجف ، كل ذلك اعتقاداً بأن الجسد الذي يطوفون بـه ضريح علي ويدفن في الارض التي دفن بها علي سوف يذهب مباشرة الى الجنة •

الوادي لظـــل الموت ، والذي يأتي ليقســـمه برأس العباس(**) ليبرئ نفسه من بعض الشبهات الجرمية التي في بعض الاحيان لا تحـل الا بدمه .

وهنا نتحول من النهر الرئيس لنرجع الى الاسـفل الى واحـــد من القنالات الصغيرة التي تمتلئ لتصب في هور خاص ، كثيف بأهداب العشب المائي المتكون منه علف الجاموس ، اذ أنه يستعمل وقودا في بعض المـدن المتنور . وبعد ان ينجح الماء في شق طريقه ينتشر بعيـدا الى الاســـفل ، ويصل أوجه ح شواطئ متباعدة: فلما تمكن الرؤيا فيها ؟ وليست للنخيل الهزيل أو لاغصان الصفصاف التي ترتمي للاراحة .

ان سطح الاهوار يكون لوحا زجاجيا مع تساقط عرضي للالوان : الأصفر ، القرنفلي ، الأخضر ، حيث تكون زهور اللوتس ولسان الثور وزهر الاوز تمري نفسها بوجهها الصافي ، والغرة ذلك الطائر المـــائي الارجواني ، أو الغاق ذلك الطائر المائي النهم القزم يطفـو بلا حســـاب هنـاك .

(**) العباس بن علي ، ابو راس الحـار ، المنتقم المرعب ، وضريحـه في كربلاء ، والمكان المقدس كثيراً عند الشيعة ، والقسم به اذا كان كذباً فسوف يأتي بنتائج مرعبة . وهنا فان القسم بالعباس في هذا الضريح يكون للشيعة في العراق ، وان أعظـم الأيمان من الممكن للرجـل ان يأخذها . ولكن القسم يكون على عدم الارتداد عن القول والفعل . والنظير لهذا المقام موجود في جنوب الجزيرة العربية بأسم (أبـــو هود) وهو قديس قبل الاســـلام . وأكثر الناس في ظفار يقسمون بالله وبرسوله وبالقرآن ولكنها لا تحمل نفس الرعب كالقسم بمقام (أبو هود) والمجرم الذي يفترض التصريح ببراءته عموماً ســوف يعترف بجريمته او انه سيواجه نتائج قسمة الكاذب عندما يجلـب الى هذا الضريح .

كلها تعيش بأمان هناك بين أنين الريح في القصب • وهـــذه كلف اقتربنا منها تشكل جيشا قويا من عشرين قـدما من الخضـــرة التي تقف كحرس ، كثيفة وفي مخبأ جيد • ومركبنا الضعيف الذي قدناه ، لا يخطىء بلا ريب الى قتال اختباء صيقة وهي الوحيدة التي تكون مستغلقة الاعماق • في الحواف قصب كثيف ، تحطم ، اعلمنا بأن الجواميس اقلقت بمرورنا ، أخيرا حلق عقاب وتبعنا بنظرة غبية وهو يطير رافعا سمكة تتخبط بطريقة غير متقنة وهي تقشر رؤوس القصب • وهنا موطن الثعالب المائية المختلفة ، والخنزير البري ، وهنـا المســكن الشتائي لعشــرات الآلاف من البط والحذاف والجهلول •

وبمجرد أن ظهرنا في الجانب البعيـد غربت الشمس في لـون من ألوان الجنة لم أشهد له مثيلا الا في سـيلان في وقت الغروب • تغـور تدريجيا الى الشفق وتبدو كأنها تغرق في الشفق • لقد حدث تغير مفاجىء ومريح في درجات الحرارة ، وسائق المركب أوقف عمله ليصلي صـلاة المساء ، الرياح طابت وبدأت ترسل قطعا سوداء من الغيوم بمقدار كبير خلال التواءاتنا ، وأسراب الاوز اتخذت شكل حرف **(V)** في طيرانها وهي تصيح بصوت عال في صفوف متناسقة ، والظلام هبط على الميـاه المليئـة بنقيق الضفادع •

وعلينا أن نرجع الى الشيخ بدر • في ذريعة له أن قبيلته قد عملت له أشياء مخلصة جداً ، بدر أرسل تحياته لزيارة الرتل النهري بالانحدار الى الهور ، من جانب آخر أنه بدون شك قد تمرن على التأثير المباشـر على شؤون البو صالح • ولنفيده في التهيؤ للمجيء فقد عيّنا سياسياً محلياً في الفتحي[٢٢] ، مع خمسين من الجنود المتطوعين (الليفي)[٢٣] تحت أمرة (هول) ضابط ممتاز خـدم مـع خيالـة المنتفك في بدايتها ، والآن صعد ليكون آمراً لها • هدفنا كان أن نكسب بدراً ، اذا أراد أن يربح ،

ولكن ذلك يتطلب تفاؤلا كبيراً لنستبين علامة على مثل هذا النصر •

والآن مع مفاجأة غير متوقعة انبثق من غموضه (ظلمته) مليئاً بأصباغ الحرب ، والشهر كان نيسان ، لقد كان هادئاً لما يقارب الاثني عشر شهراً • وحفلة سباق الخيل في الناصرية في هذا الوقت جلبت الشيوخ من أبعد وأوسع مكان ولقد وصلوا متحمسين ليعبروا أقزامهم وليعيروهم ، مع خيول المنتفك المحبوبة ، في الوقت الذي يكون فيه الشرب محظوراً بشكل صارم ، والرفرفة الصغيرة على الحصان يوافق عليها حتى من قبل أكثر الأتقياء المتدينين ، وهنا تكون فرصة المتمرد القديم •• وهكذا ، بينما العالم مبتهج بالسباقات فاذا هو ومئتان من رجاله ظهروا في زوارقهم في وضح النهار قبل قلعة الحكومة في الفتحي ، وعندما جاء الليل هجموا على نقطة المتطوعين (الليفي) ، لقد أزيح عن المنطقة وفقد أربعة قتلى وثلاثة جرحى ، أما نحن فلم تكن هنالك أية اصابة في جانبنا •

ولكن كان في تلك المناورة الكثير مما لم تره الأعين ، وحتى جرأة بدر ، قلما يجازف الى هذا الحد بلا وجود سند في ظهره • في كلمات اذن هناك شك صغير بأنه يعمل بتستر مع بعض الشيوخ ، المعلنين ولاءهم للحكومة ، ومن ضيوفنا في السباق • مثل هذا الموقف في بعضهم كان أكثر من واضح • لقد شعروا أن قوتهم قيدت بسلام الحكومة الاجباري ، الحكومة التي منعت طمس الديون القديمة بالطرق التقليدية أو بالعودة الى السلاح ، ولا أسوأ من ذلك كله ، انهم دعوا الآن الى رفع الربع الحكومي للفترة الاولى • ضرائب !! تحقيق رهيب وشاذ ! أنشدوه قليلا ثم بعد ذلك استحسنوا نشاطات بدر بجعل الحكومة في قلق متوتر • ورأوا فيه آلتهم التي تخدم نهاياتهم « هياج » أن استمتاعهم النفسي كان يبدو أنه قد شجعهم ليقولوا لبدر خلف المشاهد : « نحن معك » اذا تعكر

السلام ، الحكومة من الممكن أن تحث على الامتناع عن أخـــذ الريـع الحكومي ومتطلباته ، ولعدم استطاعتنا الحضور لوضع قيادنا في القـوة الحاضرة سوف تملك التأثير لدفـع الجميع الى معسكرك والنتيجة هـي ارتداد اجمالي عـن الحكومة والتي هـي الآن بانفتـاح وباعتراف تعلن الخضوع لألبو صالح ، مثل هـذه الفرضية الظنيّـة فقط سوف توضح أولا : انبثاق بدر ، ومحافظته على نفسه ، بعـد محاولات اعتداء مخفقة على الفتحي التي تبعد ستة أميال عن قلعتنا في قلب منطقة ألبو صالح .

في هذه الدرجة كان بدر يمتلك بوضوح التنظيم الجيد ، اذا كانت الأمور تسير بهذا الاتجاه ، فسوف تنتج في زيادة أبعد في شهرته . لحـد الآن أخبـار استعدادنا غير ملائمة للقيـام بحملة تأديبية تؤهلنا للوصول اليه ، وكل العمل الذي يحتاج اليه هو العودة الى الأهوار وينتظرونا هناك حتى نعود الى أماكننا بعد امتلاء النهر ثم بعـد ذلـك يعود للظهور بهيبـة واقدام مضاف .

« بالتأكيد بلا فائدة اذا نشرت الشبكة على مرأى من الطير » ولكن الطير ليس بعيداً أن يكون لنا فقط ، اذا بقيت رئاستنا محترمة مهابـة . ولقـرى الرميض أن تعطي بشكل واضح الثائر الحماية الكافيـة ، بأن تساعده وتغريه ، والآن يجب أن يأخذ درساً صيفياً اذا لـم يكن الموقف الخطر يسمح بالنمو .

الفصل الرابع
اقتراب من القبض

ان حرارة صيف بلاد ما بين النهرين بدأت تؤكد نفسها .

انه ٢٠ مايس ١٩١٩ ، يوم مضايق جداً في الشطرة . لقد كنت أنام تحت المروحة عندما جاء رسول رسمي من الناصرية ، ليبلغني بأمر الرسالة السرية الملح ؟ مسحت عيوني وندبت الحاح بعض الخدم ، وضعفي أنا ، شعرت بأنني يجب أن أفتح الرسالة . واعتيادياً يخمن القارىء فحوى الرسالة ، خروج رجل الأهوار القديم ، ثانية !! .

ليس من أحد أبعد في ذهني من بدر ، الذي فقدت شكله لشدة انهماكي بالعمل في المقاطعة الجديدة ؟ والادارة الطبيعية . ولكنه كان أمراً مقضياً أن تكون أكثر من طريق غير الحرب ، ولهذا فالدور الذي أسند الي أصبح مختلفاً جداً عن حماية ظهر مركب واحد نهري مدرع كعمليات السنة الماضية .

« يجب أن تتحرك مع قوة رسمية تؤلف من مائتي رجل من رجال القبائل الأصدقاء مرة واحدة » واستمرت أوامري « وتواصل السير الى الجزيرة بين المنتفك وأهوار العمارة الى الشمال ، الى قرية بدر ، وهناك حيث تتعاون مع القوة الرئيسة التي ستهاجم من الجنوب » .

الضابط القائد العام لدفاعات الفرات مع تعاون سياسي بشكل سري وبهجوم مفاجىء ، الرتل النهري الجديد أمر بالتعاون كالسابق من جانب هور الحمار للسيطرة على القسم اليابس الكبير بواسطة الجنود النظاميين الهنود كقوة ضاربة مؤلفة من ٤٠٠ رجل من لواء المشاة التاسع والتسعين ، مئتين من خيالة المنتفك ، مائة رجل من سوق الشيوخ ، مدفعين وثلاث

طائرات بإمرة الملازم الكولونيل أف.دي. دافيد سون . آي – أي .

الى حد هذه اللحظة أجهل تماماً أن العمليات وشبكة الحدوث ، الصمت يخيم على أولئك الذين يعلمون ، ولهذا كان هنالك وضوح محدود لعامل المفاجأة باستغلال السرية في النهر والهور ، ان خط الأمان الوحيد شبكة مواصلات المياه التي تكون حالتها صالحة للملاحة تكون معطلة ببعض الفصول المختصرة من السنة فقط . وكانت تعرف بشكل عام ، استعدادات عسكرية محجبة ، وعلى أية حال فهي قد ذهبت الى الأمام في أكثر الأحيان . ومن دون فضول قدر الامكان كانت قلعة المجندين في الفتحي مهيأة أن تكون مكاناً للجنود النظاميين : المدافع ومراكب الماء دفعت حديثاً الى الخارج كي تستعمل هور الحمار كقاعدة طبيعية ، والطائرات التي جلبت من البصرة كذلك تمركزت في الناصرية ، أقرب أرض هبوط لتشهد العمليات القادمة ، كانت قد حجبت لبعض الأيام ولم يسمح لها بالطيران فوق المدينة . في الجانب السياسي ، خليفة بدر حجبته الغيوم ، اذ لم يكن حقاً سجيناً ، علاقات صداقة مع ابن بدر لمدة عشر سنوات قديمة ، كانت تفسر من القبائل كدلالة لموقف استرضاء لبيت الرميض ، واعتبرا سوية ان هذه الحقائق مؤهلة لتهدئة المتمرد الى مشهد من السلام والأمن الزائف .

الطائرات جعلت من الحكومة أن ترى بادراك ذكي جدية نشاط بدر وتهيأتها للميلان معها أما أنا فقد دفنت رأسي في الأوراق التي وصلت حديثاً ثانية لتصور دوري في العمليات القريبة .

صداقة ديكسون . دي .أو كانت توضح « الهجوم الرئيسي . وكانت تقول « خططت لفجر اليوم الثالث والعشرين ، اذا هرب بدر وهو حتماً سيفعل ذلك فسوف يهرب الى الشمال ، وهناك ستكون أنت هناك . يجب

أن يبقى مستمراً في هربه قدر المستطاع ، واذا استطاع أصدقاءك فسوف يغلقون ثقب الحجر » .

وعندما كنت أدير الأشياء بعقلي بدا لي أنه اذا لم يقبل الرجل القديم أو قبضنا عليه وأرسل خارجاً فهو في الحقيقة سوف ينسحب لاتجاهي ح ومن الممكن مع الموالين والوكلاء أن يكون هناك ما فيه الكفاية لاعطاء حساب جيد لنفسه . وفي الجانب الآخر سوف ينسل خارجاً ويجعل من مأواه الأهوار . ثم دوريتي سوف تكون بلا فائدة . ولكن في تأملات الساعة الحادية عشرة ، وخصوصاً تلكم التي تقود الى أبواب المآزق ، لم تكن لتشجع ، وكانت على أية حال تبتلع بامكانية المغامر والتي لم تكن بغيضة بالنسبة لي .

اليوم هو العشرون . الهجوم الرئيسي خطط له أن يكون يوم الثالث والعشرين ، وأنا هنا كنت أبعد ثمانين ميلا من النقطة التي حددت لي للتعاون . وليس معي من أحد يساعدني من المجندين الجدد . من الواضح والواجب أن أجمع قوتي قريباً من مكان العمليات قدر الامكان اذا كنت في المكان المحدد في نفس الوقت ، لأنظر الى منطقة البو سعيد ، ثم كان هنالك أملي الوحيد .. بنصف ساعة جمعت قليلا من المخزونات ثم نزلت الى مركبي ، الذي ارتفع اشتغاله المعتاد مستمراً لتتخلص الماكنة من البرودة . تحركت وتركت الشطرة خلفي ، وبعد قليل بمجرد أن شققنا النهر الى البدعة(٢٤) ، وردنا الانحناء ، فوجدنا التيار معنا ، عندها تحركنا في انطلاق جيد ح وعبرنا بحيرة العجول ، ودخلنا الدواية(٢٥) بأربع ساعات ونصف الساعة أخيراً .

« السلام عليكم صاحب » قال ذلك صديقي القديم الشيخ محمد عندما جاء ليقابلني ، وابنه قفز الى رأس حصاني بلطفه المعهود . فرددت عليه في

الحال : « وعليكم السلام » ، كما جاء مدير الدواية الأعرج[٢٦] ، رجل جليل وكبير ، قابلني على حافة الماء بجياد صغيرة لينقلني الى اليابسة ، وبعد الدورة الاعتيادية من المصافحة أخذنا طريقنا عند الأرض المفتوحة خلال الحنطة المدروسة ، حيث أكوام القش الصفراء والقشور التي تبين الحصاد الحديث ثم الى المضيف خلفها •

لقد دخلنا مداخلها المتضادة المظلمة ، والضوء اللطيف بعد شروق الشمس المتألقة في الخارج ، كان مريحا حقا ، فوق كان سقف واسع مقوس من قصب مضفور مسند على أعمدة من القصب غليظة الشكل وتشبه أضلاع جوف السفينة ، وبالقرب من هذه الدعامات المتساوية المسافات فيما بينها ، طول هذا السقف يبلغ مائة قدم من المكان الفسيح الرحب ، عمود من الدخان الكثيف ، ولهذا السبب فان باب المضيف ملون بهذا اللون المعيب ، يرتفع من مربع صغير لموقد قوي قريب من المدخل • وهنا يجلس صانع القهوة الذي يتعذر اجتنابه بجانب يد الهاون والهاون ، مع صف من أواني القهوة ، لونه أسود • وكبير في العمر والخدمة ، يدق القهوة بنغمة خاصة ، وحجمه يشبه أولئك الاشخاص في قصص حضانة ساوثي ، من الاشخاص الخرقين ، رأسه منخفض الى الارض ، الى الموقد ، رجل القهوة القديم أنعش اللهيب المنطفىء تقريبا بقوة رئتيه « بالنفخ » بعد قليل « ابو الدلال » سخن القهوة على النار ، وقبل ذلك بكثير وزعت القهوة بـ « الدلال الصغيرة » بتقليد سخي على حوالي مائة شخص نصفهم جالس ، والنصف الآخر يجلس على ركبتيه ؛ وهم يعملون خطا يحيط بالمضيف من جهاته الأربع • والجلوس على الأرض مطلوب بموجب آداب المعاشرة ، والفراش الناعم سحب وقدم لي ، ومعه اعتيادياً (وسائد) النسيج الزبيري ذو اللون القرمزي والاخضر • ومع كل ذلك عرض فنجان القهوة عليَّ ، الشيخ وقف هنا وأصبح مضيفي ، تقدم وقدم

السيكارة المسندنة الطويلة التي في الريف ، التي من المحتمل انه لـم يشعلها بيده ، حملها بشكل متعامد من نهايتها بين اصبعه وابهامه ، بايماءة مناشدة قائلا : « هنا ، ايها الرجال ، ليس هنالك من خداع ! » •

أخذت عدة أنفاس وبدأت •

انه من الفظاظة في الشرق ان تدخل في موضوعك مباشرة بينما أنـا في داخلي أتحسر على تبديد اللحظات الثمينة فقـد كانت شفاهي تردد الكلمات العربيـة عن المحاصيل والأخبار التي تستطلع الجو والتي تتطلبها آداب المعاشرة • الهمس في العلن لجيرانك في الباب الآخـر ليس فيـه انتهاك للاعراف المحلية ، وهكذا كنت أفعل باستمرار ، مع مشاعر جزئية بالاستمتاع ، أمل جزئي ، مساعدي العربي ، بفمه المغلوق لاذن الشيخ المائلة ••• وهكذا استمر الحال لدقيقتين طويلة مخزية • يجب ان يؤكد كما فكرت ـ على خلو المضيف • وهكذا كان • بعد قليل لم يبق غير الشيخ بجانبي •

قلت له بطريقة لفتح الموضوع « نعم شيخ محمد ، أنت تعرف ان الحكومة قوية على المعاقبة على أعمال الخطأ ، كريمة في مكافأة خدامهـا المخلصين ! » •

وهنا أجاب بعبارات ملتـوية « الحـكومة هي الأب ، الله أولا ثم الحكومة » • واستمر الحوار .

ـــ « قول جيد يا شيخ ! ولـكن الاب غضب على الكسـلان أو العاق » •

ـــ « الله يخرب بيت ابو الكسلان » قال ذلك بلغز •

ـــ « لقد جئت اليك باسم الحكومة ، الحكومة بحاجة الى مائتي رجل وجياد من بني سعيد ونريدهم اليوم » •

— « أبوس ايدك ولكن ... » بدا الشيخ جافلا في نفس الوقت الذي كان يرفض مؤقتا ، كانت أصابعه تحرك خرز سبحته(*) تقسمها ، هامساً . وينظر عالياً قائلا : « الحمد لله » وتأملت :

— « ليس عليك ، يا شيخ محمد ، ان تتحمل الوطأة العظمى من هذا الطلب . اذا جمعوا الرجال من الحقول ، دعهم يجمعون فقط نسبة بيد كل الأقسام ، معتمدين على قوتهم . وهؤلاء الرجال يؤخذون فقط لأيام قليلة ، وسوف لن تفقد أحدا منهم ان شاء الله » .

— « ولكن لماذا تريد كثيرين هكذا ، وما هو القصد ، يا صاحب ؟» .

شيخ محمد كان أكثر ذكاء من الكثير من أبناء جيله ، وفوق ذلك صديق ، وقد شعرت بأنني لن أندم اذا أطلعته على خططي ، قلت لـــه بالنتيجـــة .

(*) السبحة : في الاستعمال العام خلال مناطق الاهوار هذه تتألـف مـن تسع وتسعين خـرزة ، أقـل وأكثر أحياناً ، والاختلافـات كثيرة في استعمالاتها ، فهي تستعمل للصلاة وتحمل للتسلية كعادة عامـــة شائعة ، ورجال القبائل الخرافيين طوروا ذلك الى الاعتقاد بأن للسبحة قوى سحرية كآلة من خلال الوصايا الدينية التي وضحتها . ومن المحتمل ان الطريقة العامة الاكثر استعمالاً – والطريقة التي يستعملها الشيخ محمد الذي يرى الدين مرشدا في القضايا التي عرضتها عليه – وهي كالآتي : يأخذ خيط خرزاته ويفرز عدداً منها كيفما اتفق بين إصبعه وابهامه بكلتا يديه ، والخرز التي قسمها يسـميها من اليمـين الى اليسار بالصيغة التالية : « الله ، محمد ، علي ، أبو جهل » ويبـدأ بعزل الخرز مؤشرا على الله بالاولى ، والاسمـــاء الناجحة بالخرز التالية ، والصيغة تتردد حتى آخر خرزة وصلت اذا تطابقت هـذه الخرز مع واحد من هذه الأسماء (الله ، محمد ، علي) فانه فأل حسن ويبشر بخير ، واذا مع (ابو جهل) يكون العكس « ابو جهل معاصر للنبي ومن عشيرة قريش ، وكان عدواً للاسلام ويلعن من كل مسلم الى هذا اليوم » .

ـــ « تعال » ، « ليس هنالك من وقت لنضيعه ، ارسل الخيالـــة ليوصلوا هذه » وسلمته حزمة من الرسائل معنونة الى رؤساء الافخاذ ، التي كتبها مساعدي العربي عندما جئنا في طريقنا بالمركب • الموعد حـدد على الغد في خيمة الرئيس الأعلى ، الشيخ نايف[٢٧] التي تبعد حوالي خمسة عشر ميلا • ساعة الصفر هي الثامنة مساء •

ولكن في نفس الليلة كان الشيوخ يلتقون معي هنا ومن الخير لهـم ان يخبروا ليعلموا •

المساء كان يتقدم ، وخلاله تعبنا ، أدرت وجهي الى الشباك المفتوح ، مكان التهوية الوحيد في المضيف ، لكي أنام • قهـر القوات بالعمـــل لخداعي، أخيراً ذهبت مع انعكاس النعاس لأن المضيف مصان بما فيه الكفاية ويجعلك لا تشعر بالذباب ، ويمتلك حساسية فلسفية حيث جاء مسلحـا بكميـات كثيرة من باودر كيتنك[٢٨] • عندمـا استيقظت وجدت معظم الشيوخ الذين أرسلت اليهم الرسل قد وصلوا ، أستطيع سماعهم في صلاة المغرب • مساعدي العربي جاء ليخبرني بالشعور العام ، هذا كان أفضـل تماما ، وأنا كنت متأكدا من الحصول على علاقات جديدة • ليس هنـاك تلغراف يعمل في هذه المناطق النائية ليمكنني من الكتابة لاعلام المركز • ان أقرب رجل انكليزي كان يتمركز على بعد اربعين ميلا الى الشمال ، وفكرت مليا كم سيكون فعالا ، هيبة الجيش الناجح • هنا منطقة تخلـى عنها الاتراك عمليا لمدة عقد من الزمان لانها بالنسبة لهم كانت نائية جدا ، وايضا بلا قانون للادارة المفيدة « ذات المكسب » • منطقـة حتى لا تعرف موطىء قدم الجنود البريطانيين ، وتقع فيها الطرق المرهقة التي تتبع مجارى الفرات ودجلة ، ولحد الآن ، ومنذ سنة من الاحداث ، لم يستطع ضابط بريطاني ان يأتي ـ وحده ـ غيري ويجمع القبائل للعمل بدعوة الحكومة •

في اليوم التالي استرحت للاستعداد للبداية • لقد كانت ليلة مسرة ، وبعد ركبت في الصباح من الدواية ـ رحلة في حر لاذع ، وعندما كنا نخوض حول الشواطيء المفتوحة للهور ـ كنت أهنيء نفسي لانني جلبت معي سرجي الخاص - لعدم الراحة من السرج الريفي ، كان شيئا لا يمكن أن ينسى بسهولة ، انه كان مقعدا صغيرا وسخيفا • وورك العربي يكون اعتياديا ضيقا ، ، لقد كان حنو السرج عاليا ، ويرهق جلد الراكب قليلا حتى أضونهم ، مربع كبير من الحديد يعوق الراكب كالذي عند قطاع الطرق المكسيكيين المتبجحين ـ في قصره ، ان عملية جمع المؤيدين غير مريحة الى أبعد حد ، لاوروبي طوله ستة اقدام ، حديدة اللجام المعترضة فم الفرس أيضا ، بالرغم من ان الفرس القزم لابد من ان يفكر بها ، انها فصل غير ضروري •

هبط الظلام ، لقد كانت الثامنة مساء ، ساعة البدء لم تخذلني نسبة القبائل ، حتى لو كان هناك احتمال السفر بالجمل الخفيف ، وتحركت مع موكب فرساني العرب ، مائتين اقوياء ، الى ليل الصحراء ، في تعقب المتمرد القديم • آل بزون[٢٩] في الطرف الغربي لاهوار العمارة . كان هدفي الفوري = الى هناك اتجهنا الى الشمال الشرقي محملين ، راحلين عبر السهل خلال الساعات القليلة لنصلها في الفجر •

الراحة لمدة يوم عند آل بزون ، لقد قسمت قوتي الى قسمين ، تمكين سرية خيالة من ان تبقى هناك تحت امرة مساعدي العربي ، ومع الاخرى خططت لاعمل مسيرة اخرى في تلك الليلة الى آل عيسى[٣٠] ، الى الجنوب في المقاطعة التي تحدث فيها مشاهد العمليات •

لقد كنا على ظهور جيادنا عندما طلع الفجر ، ومعه جاءت ، مع الريح أصوات هدير القصف المدفعي • ان قرية بدر كما اعتقد تبعد عشرين ميلا الى الغرب والجنوب الغربي من نقطتنا • لقد توقفت قليلا وقواتي الآن

ـ كما فكرت ـ انتشرت لفائدة احسن في الاهوار الغربية ، مأوى بـدر المفضل في منفاه الجديد • ان هواء الصباح الباكر بين الهور والصحـراء كان متألقا بشكل واضح ، والضوء الاول للصباح ظهر ضعيفا عبر مائة ميل في ريف مفتوح بشكل تام في منطقتنا ، خط المرتفعات السفلى لبلاد فارس •

في ساعة واحدة عملت كل تنظيماتنا البسـيطة ، البنـادق أوقفت أزيزها ، ثم خيم صمت مشؤوم •

الافكار التي تراود المرء : كم يبعد القتال عنا ؟ أين كان بدر ؟ ميت ؟ سجين ؟ هارب ؟ اذا جاء الى مقاطعتنا فهو كالقادم الى المصيدة ، و ـ أفكار غير مسرة ـ مع قوة يجب ان تغمرنا ؟

لقد أرسلت مرة أو مرتين حضيرة من فرقتي الى النقاط المجـاورة للرصد والانتظار وان يجلبوا لي المعلومات ، والاكثر من ذلك انني لـم استطع الاستغناء عنهم بأمان ، كلنا كان متعبا وجائعا بعد ليلتين مجبرين في الاهوار • نذبح ونطبخ من الغنم السمينة (ذات الليّة) من الريف ، كان عمله يستغرق ساعتين ، وبعد ذلك مكننا انفسنا من أن نأتي على الهيكـل المحشو بالرز بضراوة •

نقطتنا سيطرت وبالرؤيا بشكل جيد على كل اتجاه ولم تلن لتترك نفسها للمفاجأة من قبل العدو • مراقبين كانوا قد نظموا ، واعترف انني اخترت نفسي من ضمن العدد في أول نوبة من مجموع (استراحة من الواجب) • نعاس ثقيل سيطر عليّ واستيقظت بعد ساعات قليلة عندما كان النهار يوشك ان ينقضي ، وعلى اضطراب وهياج في خيمتي •

ولكن ما الذى حدث لجبهة القتال الرئيسة ، فقط تحت خط السماء الخفي الى الجنوب ؟

المعركة كانت قد التحمت ، ووفقا للخطة ، فان قوتنا تذهب الى النقطة في الليل من دون علم العدو • ولكن خطا كان قد حدث هذا الصباح في ساعة الصفر ، وقبل ان تصل الطائرات لترمي القنابل على قريه بدر والقريتين الصغيرتين « الحافظ » و « العريشم »[٣١] ، القرى كانت مستيقظة لصلاة الفجر وأصبحت مدركة للخطر الذي يجابهها ، وفورا عملوا اخلاء، تركوا المكان للفرار ، ثم هذا ـ من المؤسف ـ قبل وقوع الضربة •

وكقاعدة عامة كان اطلاق النار من رجال العشائر مخطئا في اصابة الاهداف وضعيفا ولكن بهذه الحادثة كانت ثقيلا ومضبوطا • لقد كان دفاعهم عنيدا ، وعلى أية حال فانهم لن يستطيعوا ان يقفوا ضد قواتنا المتفوقة المسندة ببنادق لويس من فوج المشاة التاسع والتسعين وخيالة المنتفك كانت أول من عبر الشريش[٣٢] وأجبروا المقاومين وساقوهم خارج قرية بدر وخارج « العريشم » واستجمعوا قواهم ليهاجموا في قرية (حافظ) التي دلت على، وقوف قوة رئيسية من قواه في الخضرة المحتشدة ، ولميلين فيما وراء هذا المكان يقف هناك مائة وخمسون شخصا أقوياء ، وقد زودهم بكل متطلبات الفرار ، اذا كان من الضروري نهوضهم ، أو بمعنى الهجوم لتطويق الجوانب لمشاتنا اذا تم عبور الشريش ، اذا عبر هذا العائق في منطقتهم ولكن هذا الاحتمال لم يحدث •

فرسان الريف كانوا بشكل واضح هم أول من يشتبك مع العدو[*] خيالة المنتفك كانوا بقيادة هول ، وكانوا مهيئين لتحمل الوطأة العظمى ،

(*) ان النهوض للقتال لم يكن شعبياً مع القبائل العربية ، وخلال الحرب فان النجاحات التي حققوها كانت نتيجة قابليتهم للتحرك والانتقال• ينسلون الى الجوانب وخصوصا بعد هبوط الظلام ، ويحصلون على ما يريدون ويهربون من دون ان يراهم أحد بواسطة اجسامهم العجيبة ان الجياد الصغيرة للعرب في الريف كانت غريبة المظهر وملساء الشعر ، لقد جلبت لتأكل بشكل شاذ وتشرب وتمشي ثلاثين ميلاً

مفتخرين بأنفسهم بشرف ، والان مجموعة منهم يكتسحون قرية حافظ • هذا ما عملوه مع فوج المشاة التاسع والتسعين في الاسناد ، ولكن باندفاع عنيف وطائش لطائراتنا غير مدرك للانحسار وجريان المعركة • لسوء الحظ ألقت قنابلها على القرية بعد حصارها ، وقتلت واحدا وجرحت أربعة من أتباعنا • ولكن لهذا الحادث البسيط ، أصبح الهجوم غير مؤهل لنجاح الجيش ، خسائر العدو في الساعات القليلة كان ٣٩ قتيلا و ٣٩ جريحا ، وفي الساعة ٨,٣٠ قبل الظهر • بدر كان هاربا تماما الى الشمال الغربي • وهنا فشلت الترتيبات لان أحدا لم يؤمر بمطاردته ، ولهذا في الغد كان الميجر ديكسون الذي يعرف وضع المنطقة جيدا أكثر من أي شخص آخر أعطى أمرا لقسم كبير بالاستطلاع الواسع ، الذين تحركوا في دورة سعتها ستة أميال مخترقين حقول المحاصيل وخائضين مياهها •

ان ترجع يوما لتحكي ما حدث معي « خارجا في القوة » الى الشمال• استيقاظي لاصرخ واستثير الصرخات في المعسكر لن يفعل شيئا لفرار بدر • لقد اعلن وصول مارس ، وريفت كارناك ، زميلي من جانب العمارة ، التي ارتدت ، جاءوا في قضية مشابهة لقضيتي • في مثل هذه الظروف من المفيد جداً أن يكون الهدف هو أن يقضي على التشابك • الشيخ سكر النعمة[٣٣] ، شيخ في منطقة العمارة ، كان القوة المحلية الرئيسة في المنطقة وكان حاضرا هنا وزعم تعاونه معنا • عربه يعرفون كل قضية في الاهوار وهذا ما سيزودنا بفعالية وتأثير بعيد أكثر وهذا يعني انني يجب أن أجلب المجندين من المناطق البعيدة من العرب • ولكن بمشاركة سكر . ذهبنا سوية ، استخدمنا كل شيء الا الركوب بالطائرات ، وعندما

في اليوم ولعدة ايام دون ان تدير رأسها • أضف الى ذلك معرفة العرب بمنطقتهم جعل من غير الضروري لهم أن يحملوا طعاماً وأصبح من الواضح ان قوة واحدة فقط تجمع محلياً وتجهز بتجهيزات مشابهة ويمتطيها رجال مشابهون تكون متمكنة من ان تأتي لالقاء القبض •

انطلقت الطلقة الاولى ، أحضر ممثل الحكومة العربي أوراقه الى خيمة سكر ، يا سكر ، قال له « الآن يجب ان ترفع علمك وتدعو له كل رجل خيال من اتباعك • لا تفكر بصداقتك الشكلية مع بدر ، وكيف أكلت الخبز معه في خيامه ، وانظر الى انك من قبيلة متكافئة ، ليس هنالك من عذر اذا خذلتنا ، ومثل السيد محمد(٣٤) ومثلي أنا نفسي ، لقد أقسمنا أغلظ الايمان بأننا سنكون مع الاوائل على عدو الحكومة هذا • واذا لم تدع رجالك سوف تضطرنا الى الرجوع الى العمارة وان اسمك سيكون مخزياً الى الأبد » •

لم يكن أمام سكر غير الامتثال • تبعت ذلك الفزعة ، ومن كل جانب جاء الخيالة يجرون بجيادهم بسرعة لمنظر الراية • كل رجل حمل بندقية حديثة • الهوسة (رقصة الحرب) تبعت ذلك وأعطت صورة جريئة لرجال الاهوار الاقوياء • ونصف العراة يطلقون صرخاتهم الحربية ، ويلوحون ببنادقهم فوق رؤوسهم ويقفزون حول راياتهم مرة على القدم ومرة على الاخرى ، بينما خيالة سكر الذين هم من أصل أعلى امتدوا على شكل دائرة حول عرب الاهوار • وهنا ، من الطبيعي ، كانت المقومات لصنف القبائل ولكن ما يبعث على السعادة ان لا أحد منهم يجسد ذلك •

فريقي من الواضح انه يتراجع ليشغل مكانا آخر والحكم على تطورات اليوم أفضل لخطتي ، والادعاء بأن هجومنا الرئيسي الى الجنوب ، للاحسن أو للاسوء ، أطلق نهمه القصير ، وانا عازم على التقدم الى مشهد العمليات • لقد بدأ الخيالة حركة حذرة ، وان ترى أعور كأن لا يشير بالنجاح ، أو أن السقوط جاء من تلك الفضاءات الكبيرة الصامتة للجزيرة •

تبع ذلك وليمة سخية من الدجاج المشوي ، ثم لنمتطي صهوات جيادنا • لقد انتظرت لاول ظهور القمر ، ثم لنتحرك ثانية لنعبر السهل الى الحدود الشمالية لمنطقة البو صالح • كثير من الحيوانات انثنت من

المسيرة ، وانا عملت على اتباع التوقفات الكثيرة خلال الليل لغرض اراحتهم وللاستماع الى أصوات الناس الاخرين في الحركة • ان يخيم الصمت على عربي ـ من غير النظاميين ـ خلال مسيرة الليل ـ وتذكرت دروسي الخاصة كفارس في الحرس الوطني لشمال سومر سيت في الفلاندرز لعام ١٩١٤ ـ الذي كان مفيدا ، الضوضاء التي عملوها كانت غير مؤملة • ان لهم عاداتهم في التحرك للحرب •

واحد من المتقدمين للحرب يتقدمهم بأغنية مثيرة تحرك مشاعرهـم بصوت عال ، وبصوت رنان ، وبنغمة قوية • كثير من هذه ـ أجرأ أن أقول ـ محترمة بما فيه الكفاية ، والكثير منها كانت مرتجلة وتقال باللهجة المحلية ، وكثير كذلك منها متطرفة وخليعة الى درجة لا يمكن تثبيتها هنا • وهذا نموذج من الشعر الهزلي المضحك • (وهو محطم الوزن عادة)[٣٥] كما ترجمته بصعوبة في ذلك الوقت :

جنود المتحدين التفتوا الأمري
صموا آذانكم لاشارة الرعديد
تشجعوا لشرب ماء الموت
أمر الله المقدر لابد ان ينقضي

* * *

جنودي لا تناموا
لكن كونوا مستعدين
للانقضاض على الضحية
مثل الذئب البارع في الصيد

* * *

سوف نذبح بدون أمر
هؤلاء المتومين[٣٦] أصحاب بدر
من أجل نسائه الغريبات
اللواتي تبعنه قبل فراره

* * *

بعد فترة طويلة من العطش ، والليلة الصاخبة ، وصلنا في الفجر على بعد أميال قليلة من ريف أبو صالح . وهنا نزلنا في خيام البدو من عرب السوالم[٣٧] ، ومعهم حوالي ألف بعير ، متجهين شمالا ، استقبلونا بكميات وافرة من الحليب ، واسترحنا عندهم ساعات قليلة .

ان سهل الجزيرة الذي قطعناه وعدنا مرة ثانية لقطعه ، انـه الآن قفر ، حفرنا علامة وتشكيلة المجد المعتبرة ، لقد أحيطت أربعة أخاديـد قديمة جدا لمجاري النهر وكأنها آثار سد قديم ، وقد رأيت روابي كثيرة ، خرائب لمدن كانت عامرة ، ومزدهرة هنا ، حقا ، كان مجرى دجلة القديم قبل ان يغير مجراه الى الطريق الحالي ، والجزيرة كانت اقليـم الفرس الضاحك في الوقت الذي غزا العرب وانتهكوا أو انتصروا واستولوا على القطر في القرن السابع من تاريخنا . الميجر ديكسون الذي كان خلال هذه العمليات يمتاز كضابط اتصال ليطير فوقها ، أخبرني أن المميزات الرائعة من الهواء كانت في مجرى النهر القديم الميت الذي اشتهر باسم شـط الاخضر ، من المحتمل وجود المواقع لتلك المدن التي لها علاقة ببابل من مكان بعيد مثـل لاراك (الوركاء) . أو أن همازي[٣٨] ، مايير[٣٩] ، باد ـ تبيرك ، نايسين[*] ... وبقية المدن الاخرى[٤٠] .

(*) موقع نايسين ، على أية حال يمكن ان يكون بحريات تبعد سبعة عشر ميلا جنوب نيبور . البرفسور أي . تي . كلي الـــذي اعلمتـــه باكتشاف مخروط عشتار ، في موضعه الأصلي ، بواسطة الكولونيل

الشمس كانت عالية ، وليس هناك وقت للتباطؤ والتأمل • لقد اندفعنا لنصل الى آل عساف[41] في الساعة الحادية عشرة بعد الظهر ، الرجال والحيوانات تعبوا بعد سلسلة الاهوار الليلية ، والقلـــق ، وأيام الترقب وعندما جئنا كانت الحرارة مؤلمة جدا ، والسرج اذا عرض للشمس لفترة طويلة يصبح حارا جدا ، وينفث الجو سموما عنيفة تلفح وجه الانسان ، كالنفحات التي تخرج من الفرن • بدر كما اكتشف في الاشــهر التالية ، كان يختبيء على بعد ياردات من المكان الذي مررنا به ، وقد أصابه منـا قلق بشكل عفوي مدة ساعة •

لقد صرفت معظم ذلك اليوم في الراحة عند آل عســاف ، ولكـن أرسلت خفرا في مغيب الشمس لنقطة في الجزيرة لمكان قيل ان المتمرد مع ثلاثين شخصا كانوا يختبئون فيه • وهذا بلا ريب ، أثبت المشهد الزائف ، في الساعة الثانية بعد الظهر • كنا نتحرك ثانية وبخمس ساعات وصلنـــا آل كردي[42] • عند الوصول الى هناك ، وعند ارتفــاع الشمس حدثت بعض الاثارة للشيء الاول الذي أرانا اياه ضوء الصباح وهو جسم مهيب لفارس يتحرك في خط الافق باتجاهنا • من يكون ؟ فكري تحرر من كل خوف من مظهره ، انه يشبه الجندي وهذا في تضاد مع مظهر أرجـــل الكلب الخلفية ، واصدقائي السذج يجب ان يحضروه ، ثم فكرت بأنـه هول ورجاله المرحين ، لم يستطع أحد منا ان يستغل الفرصة ، وعلى أية حال ، ارسلنا كل منا فارسا يعدو بالفرس بسرعة ليستعلم عن الآخر • ثم للتأكيد سارعنا للوصول الى القرية ، التي دخلهـا من أحـــد الجوانب ، ودخلتها أنا من جانب آخر •

كي• ستيفنسون الصديق الذي يهوى الآثــار ، اعتبرت ان المصـدر للمخروط من المحتمل ان تكون قد حددت الموقع لهذه المدينة القديمة•

أنا وهول وجدنا مكانا هادئا ضليلا لاستذكار الماضي بمرافقة المقانق المعلبة المسخنة على نار احدى المعسكرات القريبة ، لقد كنت ظمئان لاخبار الحملة والقصة أخذت وقتا قصيرا • بدر هرب لمكان ناء في أعماق الاهوار ، وقواتنا رجعت الى الناصرية • هذه هي النقطة الحاسمة التي تحدد خططي للتحرك باتجاه بيتي •

واثناء ذلك كان من الممتع مقارنة الملاحظات ، ونحن لدينا اليوم السابق الذي خلفناه كله • واحد من سلسلة الاحداث المضيئة ، والاعمال الرئيسة كان في الخارج عندما كان فوج المشاة التاسع والتسعون يتقدم عبر الفتحة بتعاقب العصاة • ظهر شاب عربي من الستار الى يمين جبهتهم ، ووقف قليلا هناك ، ثم تقدم عدة مرات بتردد ، وقد ظهر من دون سلاح ، الكولونيل لوكسمور ، آمر فوج المشاة التاسع والتسعين لم يستطع ادراك هذا الغموض ، ولكنه فكر بأنها حيلة سرية ، تنويم مغناطيسي لعيون رجاله ، وانتبه عندما ظهر بعد الظلام وتحرك بشكل آخر • أمر رجلا بارعا في الرماية ليصوب على الهدف الغامض ، الاطلاقة أخطأت والشاب صعق وسقط على الارض • أخيرا في أثناء اليوم ظهر عربي يمتطي جوادا من أمام الفوج التاسع والتسعين ووقف عنيدا كذلك • فالتفت له الكولونيل ببندقية لويس ، ووجهها اليه في الحين الذي ارتعد كل واحد رآه يسقط ميتا تماما ، كما اعتقدوا ، وعندما فرّ الحصان من دون فارسه • وكان رمادي اللون ، ولكن بعد دقائق ، الفارس الميت ظهر الى أقصى الشمال يركض مثل الارنب •

والكولونيل الذي سمعت منه هذه القصة أضاف « وأنا مستمر بالضحك المحتال الكبير سقط بقصد تحت بعض الستر ثم ركض على طولها ، الى أن أصبح خارج السلسلة ، لم يكن قد مسّ طبعا • بعض العرب في صفنا أقروا بأنه لم يكن غير رجل الاهوار الكبير نفسه ، ولكن

كائناً من يكون ، فقد كان رياضياً •

هول وأنا انتظرنا برودة مغيب الشمس ، ثم تقدم الى الجنوب في اتجاه قلعة الفتحي ، وانا اتجهت الى الشمال مع اصدقائي على طول الشواطىء لبحيرة المنتفك لتسريحهم في الدواية ، وكذلك سأجد حماماً أعيد به نشاطي وليلة نوم مريحة ، وهو أول شيء أبدأ به الاسبوع • وعند فجر اليوم التالي كان مركبي ينطلق الى الشطرة • بالنسبة لي المطاردة انتهت •

الفصل الخامس
اتفاقية استســلام

جاء الرتل النهري عائدا من رحلتـــه النهريـة بأضبـــة المراكب المرفوعة .

الموقف في الاهوار يبدو غير متغير ، ولكنـــه يظهـــر على عكس الحقيقة ، بدر بدأ يتعب أكثر من النزاع غير المتساوي ، وديكسون شعر بنفس الشيء ، عندما ذهب للسفر كان ذلك واجبه ، ورجل الاهـــوار القديم من المحتمل ان يقدر بأنه يستطيع المجيء الى الحـــكومة دون أن يخسر المواجهة .

ليس من تفكير منطقي في النهاية يستطيع ان يشكل شؤون الاهوار . وحماية الشيخ من أحد الأنظمة لم يكن كافيا بالتأكيد للمستقبل . وقوة « البمبع » ، بمحاولة (بأمر) وقته هو ، جاءت اليه هو ولنفسية الانسان ان تصبح ما هي عليه وليس من رجلين سينظران الموقف في كل وجوهه بالطريقة نفسها .

وهكذا كانت عندما خلف دجبرن(*) ، ديكســـون . رأى بـدر بصيص أمل ودجبرن هذا كثير الحذق والدهاء ، وبيَ الى لهيب الادراك ، لقد تطلب خمسة أشهر مرهقة . واللهيب يخفق بعض الاحيان بهـــذه الطريقة وفي الاحيان الاخرى بتلك وكانت دائما في خطر الانطفاء .

ولحد هذا التاريخ فالمتمرد كان متضادا بكل ما في الكلمة من معنى . انه يمتلك النهر والهور للمخالفات ، ومثل هذه المخالفات تكون تحت يد

(*) الميجور اى. اج. دجيبرن : مدير الشرطة في العراق فيما بعد .

العناية الالهية وكانت غير مضللة ، ولكن الآن ، في آخر المطاف ، عقابنا الجديد للقبائل أعطاه العنان خلال خروجه وكان له تأثيراته : انهم سوف لن يجازفوا بتعريض انفسهم للاخطاء ثانية • بدر أصبح بعد ذلك ، منفيا بلا أمل من جانبه ـ لقد أثبتنا حرمانه من حماية القانون وهذا أثر عليه قليلا • من المحتمل ان أية ادارة غير الادارة البريطانية في زمن الحرب ستضع ثمنا لغرض اخراج المتمرد خارجا ، وبالمثل تهدد أية قبيلة بالقصف اذا تستر عليه أو تحميه ، وهذه الصيغة حتى مع وجود القوة الجوية لم تتطور لهذه الدرجة التي وصلتها اليوم ، من المحتمل ان تحصل على النجاح الحالي ، وتعمل على ايجاد رتل نهري غالي الثمن وغير ضروري ، ولكننا رأينا ان ذلك غير صحيح ، ورغم ذلك فالتقدم لمثل هذه المهمات غير مرغوب به ، كجنر ، كما أعتقد استخدمهم في السودان ، وقد استخدموا ضد رجال العصابات في الهند وفي الحدود الشمالية الغربية• ولكن مع ذلك بدر كان متمردا ضد الحكومة والحالات قلما تكون متشابهة • ان الطبيعة المنفردة لمعارضته من نواح اخرى كبيرة وهادئة ، لم تسحبنا لمثل هذا الطول ، ولكن في هذه الظروف فان مقاومة هذا الرجل الكبير قد تحدث جرحا صغيرا ، لقد كان كمن يضرب بعنف على باب البيت الصغير ويختفي بسرعة ، بكثير من الشك رصدنا طريقة اللعبة ـ كيف تكون ، في الحقيقة ، كنا نعوق انفسنا من احتلال الحقول كنهاية ، وطبيعي فهو سيربح من هذه المعرفة • ولكن لاعطائه واجبه ، انه سوف يضرب ضربة موجهة • وكذلك سنجبره على الهرب قليلا ، ولم نستطع ان نحصل عليه خارجا ، ولحد الآن فالافضلية له •

ولكن عامل الوقت كان بجانبنا • والآن مزاج عقوبة بدر • والقوانين الجديدة بدأت بالتغير في الجبهة • تأثير واحد على فعالية المهمات ومشاكل ألبو صالح من غير ريب ضرورية ، في الوقت الذي كانوا فيه يحاولون ان

يجعلوا من اسم بدر طريا على شفاه كل رجل عندما كان هو يدعو للعدل ليكسب أكاليل الغار كبطل ، أو على الاقل ليرفع عنه سوء الشـــهرة التي كانت كل شيء ، الا انها الازعاج بالنسبة له • والدلالات كان تريد ان تظهر بأن الوقت حان لخليفته الطبيعي حسن ، أكبـر أبنائه ، في سفينة الشيخ ، ولنر أي تجاهل سيظهره الرجل الكبير حوله • لم يكن هنالك من سبب ، أيضا لماذا بدأت المقترحات تحت ظل عدم الحاجة الى التكهنات الشخصية التي سوف لن تجد طريقها الى الاهوار •

انه كان يوما جميلا بالنسبة للمبعوث ، السيد رجل موقر من رجال الله ، وبقى موقرا أكثر لانه ابن رسوله ، جلب من بدر عرضا شـــفويا للشروط التي سوف تصادق عليها الحكومة • هذا بشرط ان يتنازل المتمرد وان ينادى بحسن خليفة له ، مع الســـــماح لكل اعضـــــاء بيت الرميض بالرجوع الى أراضيهم الاصلية عدا بدر نفسه الذي ســــيفارقهم مختارا ويبتعد الى المحمرة ليقيم ضيفا لحليفنا القديم شيخ خزعل • المستقبل من المحتمل ان يترك علاجه للوقت •

ربما نحن أيضا تمسكنا بغصن الزيتون ، هذا بتوق شديد • بعد أيام قليلة ارتد بدر يأمل الحصول على شروط أفضل ، شهران حاران موحشان من صيف محتوم يتبعهما الكسل ، وبدر كذلك استطاع أن يوقف كسوفه ليس لوقت طويل ، قرر أخيرا ان يختبر خاصية الصفو البريطاني•

انه تشرين الاول ، ودجبرن كان يقوم بجولة في هور الحمار ، هو وبلاتس(*) مساعده النشط ، في سوق الشيوخ ، كانا يجلسان في المجلس محاطين بمائة رجل من رجال القبائل ــ وفجأة قدم ثلاثة خيالـــة كانوا

(*) الكابتن أي• بلاتس •

يثيرون وهم يمشون بجيادهم بعدو سريع خلال السهل ، باتجاه خيمتهم . وعندما دنوا على صوت امرأة في الخارج (هلاهل) معلنة عن حدث أكثر أهمية من مجرد العار أو المرور لهؤلاء الخيالة ، لقد كانت حقا أغنية - البطل لرجل الاهوار الكبير .

الرجال الخيالة ترجلوا ، واحد منهم كان المتمرد نفسه . انه أتى ليعمل عملا ليس أقل من التسليم غير الاعتيادي . لقد كانت لحظات جديرة بأن تذكر . خرج رجال القبائل ، برؤوس محنية ، صامتين ، خارج الخيمة . بدر جاء متجها الى الامام الى المكان الذي جلس فيه الضابطان البريطانيان فقاما واستقبلا عدوهم اللطيف بكل نبل ، الرمال كانت تذرى الى الخارج ، والعناد القديم بدأ ينهار .

انحنى الى الاسفل ليحرك غطاء رأسه وبطريقة الريف أعاد ربطها ببطء الى رجل الكرسي التي كان يجلس عليها اولئك الذين أعلن لهم الطاعة .

« انا لن أكون غير أحد جنودكم من الآن فصاعدا » قال ذلك ثم قام على ركبتيه « لقد قمعتم التجبر من جذوره » ، وهذا كان في روح الرجل الكبير المصاب بجنون العظمة ، بدر . ولكنه قال ما فيه الكفاية .

لقد عاد السياسيان متهللان الى الناصرية . الاخبار الحاسمة ارسلت في برقية الى المندوب الاهلي في بغداد ، وجاءهم الجواب « تهانينا ... البهجة ستكون في السماء » .

* * *

هوامش المقدمة والمغامرة الاولى

(١) هكذا كان العراقي من وجهة نظر المستعمر والمحتمل ، وبهذه النعوت ينعتونه . فلم يترك المستعمر وصمة إلا وَصَمَ بها أبناء الرافدين ، وهو على ما يبدو يتصور ان العراقيين ليس لهم شعور وطني يدفعهم الى الثورة والمطالبة بحقوقهم . وانما همّهم العمل والنوم فقط .

(٢) يعني المثل الشعبي القائل « عينه ميزانه » .

(٣) يضم هذا الاتحاد أو التحالف عشيرة بني مالك ، والأجود ، وبنى سعيد .

(٤) إنه مجرد اتهام ، ولو صح ذلك فان بدراً كان يتمنى عودة الأتراك ، فاذا اراد ان يؤدى جواسيسهم وعملائهم فذلك جزء من اخلاصه لتحقيق أمنيته .

(٥) ورد مصطلح (العصيان) و (العصيان المسلح) و (التمرد) و (الهيجان) و (الثوران) أكثر من مرة بين ثنايا الكتاب بدلاً من لفظ (الثورة) وهذا رأي المستعمرين فيمن يطالب بحقوقه .

(٦) كان الميجر ديكسون يشغل منصب مساعد الحاكم السياسي لسوق الشيوخ من ١٩١٦/٩/١ ولغاية ١٩١٧/٩/٣٠ ، وفي ١٩١٧/٢/١ عين حاكماً سياسياً في الناصرية .

(٧) الغبيشية : قرية تابعة لسوق الشيوخ ، تقع على لسان البر وعلى حافة مياه هور الحمار . وهي محطة لتوقف قطار البصرة ـ الناصرية .

(٨) الخميسية : قرية تابعة لسوق الشيوخ ، تقع على حافة مياه هور الحمار ، كانت معسكراً لآل سعدون أيام امارتهم ، أسسها أحد مأموريهم المسمى (ابن خميس) . الطاهر : العشائر العراقية ١٤١.

(٩) هور الحمار : بحيرة مائية كبيرة ، يبلغ طوله من نهايته الشرقية الى نهايته الغربية حوالى ٧٠ ميلا ، ويبلغ عرضه حوالى ٣٠ ميلا من الشمال الى الجنوب ، ويبلغ عرض القسم الغربي حوالى ١٥ ميلا ، وتتجاوز مساحته الكلية ١٥٠٠ ميلا مربعا .
ويصب فيه نهر الفرات المزود بفائض مياه اهوار دجلة ، ثم يخرج منه حيث الالتقاء مع دجلة الرئيسي لتكوين شط العرب .
ويقع بين مدينتي سوق الشيوخ والبصرة وجنوب مجرى الفرات القديم الذى يجرى في هذه المنطقة من الغرب الى الشرق .
وتسكن فيه وعلى محيطه مجموعة من العشائر الكبيرة منها : العبودة ، وبني مالك وبني سعيد وغيرهم ، بواسطة وحدات سكينة

مصنوعة من البردي والقصب تدعى (الچبايش) ، واحدها (چبشة) وهو اليوم ناحية تابعة لقضاء الچبايش ، محافظة ذي قار ·

(١٠) الفهود : ناحية تابعة لقضاء الجبايش حالياً ، تقع في القسم الشمالي من هور الحمار تسكنها عشيرة الفهود الخاقانية ، وكان أبناؤها يخضعون لسلطة سالم الخيون حين كان مسيطراً على عشائر هور الحمار · ورئيسهم الحاج محمد بن حسين ·

(١١) هور أم الگطن : وهو بحيرة صغيرة تدعى « گطينة » تقع في بداية هور الحمار ، ضمن أراضي آل نصرالله من البو صالح - بني مالك ·

(١٢) ابو غليوين : لعله نهر غليوين (مصغر غليون) ، ويقع قرب سوق الشيوخ من جهة الجزيرة او الجهة الشرقية منه ·

(١٣) هور الطلائع : يقع ضمن أراضي بدر الرميض في البو صالح - بني مالك ، في بداية هور الحمار ·

(١٤) الكابتن هايسن : كان مساعداً للحاكم السياسي في الناصرية من ١٩١٧/٥/٤ لغاية ١٩١٧/٩/٨ ، وفي ١٩١٧/٩/٩ عين مساعداً للحاكم السياسي في الشطرة وسوق الشيوخ ·

(١٥) الصحيح انه تزوج ١٠٩ امرأة ، أربعة منهن بالعقد الدائم ، و ١٠٥ بالعقد المنقطع على الشكل الذي أورده توماس في هامش مذكراته ·

(١٦) بالنظر لورود اتهامات باطلة للأنبياء والمرسلين في هذا النموذج وبشكل ساخر وماجن ، رفعنا نص تلك الأغنية عند الترجمة ·

(١٧) قصير القوائم ، طويل الشعر ، متموجه ، كبير الاذنين ، مسترخيهما

(١٨) فر حسن من سجنه في الناصرية وعاد الى عشيرته · وقيل انه قدم مبلغاً قدره ١٠٫٠٠٠ عشرة آلاف روبية مقابل خروجه من التوقيف· واكتفى الانكليز أخيراً بحضوره الى مركز اللواء ·

« انظر التمهيد »

(١٩) عينت الادارة البريطانية (سليمان النصرالله) مديراً لناحية البو صالح ، كمنافس لبدر الرميض في ١٩١٨/٥/١٠ لغاية ١٩١٩/٥/٣٠ · ثم خلفه (كاظم الحمداني) كمعاون للحاكم السياسي في البو صالح في ١٩١٩/٦/١ ·

(٢٠) عمود من القصب ربطت عليه اسلاك اللاسلكي ، أو هوائي اللاسلكي

(٢١) المعدان : سكان الاهوار من رعاة الجاموس الرحل ، وهم يكونون قسما صغيرا من سكان الاهوار · ولعل سكان الاهوار من المعدان

يعتبرون نعتهم بهذا الاسم إهانة ما داموا يعتقدون ان المعدان أقل منهم درجة في سلم الحضارة ، او انهم أشد سكان الأهوار تأخرا ولست أدري ما هي الأمور التي استدل بها المستر توماس ليقول أن أصلهم غير عربي ؟ ٠

(٢٢) الفتحي : تسمية لنهر قديم دعوه – الانكليز – بهذا الاسم إشارة لفتحهم العراق ! ، يويقع عليه مضيف بدر الرميض ٠ وقد عكس بدر بعد ذلك تسميته الى (النصرى) اشارة الى النصر الذى احرزه الثوار ٠ القلعة تقع مقابل مضيف بدر ، شيدها دكسن وكانت مقراً لهم ، ثم هدمها بدر بعد ذلك ، وله قول مشهور عند احتلاله للقلعة :

هاي الدار داري منزل الخطار
وكل طالع شمس بيها نهبش طغار
هل ترضو يا رفاگه تنزل الكفار
يزيود أطي الحد بولاله

(٢٣) الليفي : وكان يطلق عليهم في زمن الأتراك (الشبانة) ، وهم المجندون من المرتزقة العرب الذين تطوعوا للخدمة فى دوائر الحكام السياسيين ومراكزهم بصفة حراس ومراسلين وسجانين وشرطة وجنود وغير ذلك ٠ وكانت قيادة هذه المجموعة بيد ضباط بريطانيين ولها مقر عام ببغداد ٠

(٢٤) قناة البدعة : تقع في الشمال الشرقي من هور الحمار ، يسكن على ضفتيها أفراد عشيرة البو صالح والذين يرأسهم بدر الرميض ويقدر عددهم بحوالي ٣٠٠٠ نسمة ٠

(٢٥) الدواية : تقع في أراضي بني سعيد – مشروع المغيشي حالياً – ضمن أراضي خيون العبيد ، وهي اليوم ناحية تابعة لقضاء الشطرة محافظة ذي قار ٠

(٢٦) وهو ابراهيم البعاج « كانت الادارة البريطانية ترى بأن وجود حاكم الى جانب موظف اداري في نفس الوحدة الادارية يخلق البلبلة ويؤدي حتماً الى النزاع على السلطة بينهما » ٠
(الطاهر : ن م ص ٤٤–٤٥ عن تقرير سرى بريطاني) ٠

(٢٧) الشيخ نايف المشاى : أحد رؤساء عشيرة بني سعيد ، وهو الرئيس الفعلي لفرع (الكوامل) وهم عشيرة بدوية ترعى الماشية ، تترحل بين البدعة ومنطقة البتيرة ، يقدر عددها بحوالى ٦٠٠ نسمة كذلك لفرع (الشمس) ويسكنون الى الشرق من البدعة والجنوب الشرقي من فرع الغشيم مباشرة ٠

(الطاهر / ن م ٢٢٤_٢٢٥ عن تقرير سري بريطاني) ٠

(٢٨) يصف البناء الطيني كأنه مشيد بمسحوق ضد الذباب والحشرات .

(٢٩) آل بزون : فرع من اتحاد عشائر بني سعيد ، في الطرف الغربي لأهوار العمارة ، يرأسهم نايف البو عوجة ، وفالح البو عوجة ، وفروعهم البري ، والخشاب ، والمقصود ، والمناتشة ، والسويد والعليوي ، والزعيط ٠

(٣٠) آل عيسى : فرع آخر من اتحاد عشائر بني سعيد ، يسكنون الى الغرب من منطقة البتيرة ، يقدر عددهم بحوالي ٦٠٠ نسمة ، يرأسهم سكر آل نعمة الساكن في الشطانية ٠

(٣١) قرية العريشم : تقع بالقرب من منزل بدر الرميض وضمن أراضيه وبالقرب منها كانت المراكب الحربية البريطانية ٠

(٣٢) الشريش : نهر ضمن أراضي بدر ، تقع على جانبيه قرى : الرحال . آل نبهان ، الحبيش ، آل عبد ، آل خليل ، آل شاهر ٠

(٣٣) رئيس آل عيسى في منطقة العمارة ، وقد كان بينه وبين بدر نزاع على الحدود التي تفصل بين أراضيهما المتجاورتين ولم تتمكن السلطة من فض هذا النزاع على حساب بدر ، رغم استخدامها شتى الأساليب السلمية والحربية ٠ لذلك كان سكر يتعاون مع السلطة المحتمة ضد بدر ٠

(٣٤) لعله السيد محمد الخصاي المنتسب الى السيد أحمد الرفاعي ، ويسكن جزيرة الرفاعي ، وهو رئيس احدى القبائل الكبيرة في المنطقة أو السيد حمود بن السيد حسن الحصونة الساكن قرب آل ابراهيم المجاورين لأراضي بدر ٠

(٣٥) أثبتنا معنى النص بالفصحى مترجماً عن الانكليزية ، وهو في الأصل شعر شعبي ، يمكن الرجوع الى نصوصه في الفلكلور والتراث الشعبي القديم ٠

(٣٦) نعت لأصحاب بدر نكاية بهم ، وهذا شأن المحتلين ٠

(٣٧) السوالم : فرع من عشيرة آل حميد الساكنة على الغراف ، وفي الصحراء الواقعة بين قلعة سكر وكوت الحي ، وهم بدو رحل يرعون الابل ، ورئيسهم آنذاك منيخر المرعد ٠

(٣٨) أوان : لعله وانه ، وهو تل أثري يقع في جزيرة هور الحمار قرب عشيرة عبادة ، وفيه اليوم مركز للشرطة ٠

(٣٩) مايير لعله المجر ، وهو تل أثرى في أراضي بدر قرب المجر اليوم •

(٤٠) لعل تسمية المواقع اختلفت اليوم عن اسمها السابق واصبحت تعرف بأسماء أخرى ، أو أن وزود الاسم على لسان توماس غيّر من إسمها الحقيقي فلم نهتد لمعرفتها •

ولعل نايسين ، هي هنايس : وهو تل أثري يقع في قرية حران الساجت في منطقة الدواية •

(٤١) آل عساف : وهم فرع من بني سعيد يسكنون في أراضي بني سعيد المجاورة لأراضي بدر •

(٤٢) آل كردي : عشيرة من البو صالح ، ورئيسهم سحاب الواوي ، يسكنون ضمن أراضي بني مالك •

المغامرة الثانية

كضابط مقاطعـة في العصيان المسلح
في منطقة بلاد ما بين النهرين
عام ١٩٢٠

المقـــدمة

من المحتمل ألا يألف القارىء سياسات الحرب العربية ، وهذا لا يعني انها ستقوده الى متاهات محيرة في عدة رجال عقدوا أنفسهم ، ولكـن من الواجب عليهم (من المحتمل) أن يعملوا ـ كخلفية لهذه القصة ـ لمحـة مختصرة حول ابرز الاحداث العربية وقد وضعت خارج نطاق مشاكـل بلاد ما بين النهرين عام ١٩٢٠ التي برزت فجأة ، ويحتمل ان يختار ـ من الجانب الآخر ـ المباشرة لدخوله الى القصة •

لمدى ستة وعشرين جيلا كانت المناطق العربية كسوريا وبلاد ما بين النهرين والحجاز تحت سيطرة الاتراك ، في العقد الذي تلا الحرب كانت هناك اشارات الى نهضة عربية ، وقد كانت حركة سياسية انفصالية اكثر مما هي حركة ثقافية ، وقد أخذت ايحاءها من الحركة التحررية الغربية ، في منطقة ما بين النهرين كان مصدرها بغداد والمدن الواقعة الى شـمالها بصورة رئيسية ، وكانت الحركة تعاني المخاض عند مؤسسيها • أما القبائل الى الجنوب فكانت شديدة الانحدار الى الظلامية ، وغير متأثرة بالحركة • كان هنالك ـ وهذه حقيقة ـ عوامل قربت قبل أيام الحرب قناصل بريطانيا الى افتراض مربك ، وهو ان عظمة ولطف الحكومة سوف يدفع الاتراك الى احلال البريطانيين محلهم في تحملهم عبء الادارة ، ولكنهم لم يكونوا النموذج بالنسبة لرجل القبيلة ، فقد يكون التفرد المكتمل ـ في الحقيقة ـ والشعور جزء أساس وشكل من مجتمع خاص مكتف ذاتيا ، وهو بوجدانه يكون ضد تنظيمات الحكومات أيا كانت تركية أو بريطانية أو عربيـة • لقد وافق على اقصاء السلطان عبدالحميد ـ الذي كان يعتبر سلعة بالية ـ بالرغم من حكمه بالاسلام ، ويعتبر ان حزب الاتحاد والترقي[1] قد تشكل من أفكار حرة معاكسة للافكار التقليدية وخصوصا الشباب المتطور الذي اطلع على أوربا وأصالة قادته الذين يجسدون الخير •

ان رجل القبيلة ببندقيته التي تصاحبه ويعيش حياة العزلة والكفاف في أماكن نائية هو الحاكم ، ويتم ذلك بمدى قناعته بقوة الحاكم الاساسي بالرغم من بعد المسافة ، تلكم هي حالة خاصة ويجب ان نتذكر حين نجتمع بالاحداث بأننا يجب ان نضع أنفسنا أو نحل محل القبيلة في بلاد ما بين النهرين .

في السنوات التي تلت الحرب العظمى لم تظهر مشاكل الادارة بعد . لقد كانت حركة القومية العربية ، وكما ظهـــرت أخيرا حافزا ممتعـــا للجماعات الواعية . لورد كجنر كان قائدا عاما في الهند وقد جاء ليتصل بذوي النفوذ في تراث الخلافة الاسلامية ومن خلال المسلمين الهنود ، انه الآن في مصر . من خلال حركة القومية العـــربية رأى الامكانية لاعادة الخلافة وسيسمح ذوو النفوذ في هذه المنطقة لبريطانيا العظمى ان تفد اليهم بعد ان يعلنوا الجهاد فيتفادى الانكليز خطر التواجد الالماني في الشـــرق الاوسط الذي قد يتم عن طريق العلاقات التركية الالمانية ، وقد ظهـــر الخطر ونمت ملامحه خلال الحروب في البلقان وبلغ مداه في الحـــرب العالميـــة .

لقد جاءت الحرب العالمية ومعها حدث التدخل التركي ، كما وقـــع الاختيار على المرشح الذي سيقود الحركة العربية وهو الشريف حسين ، شريف مكة وحامي الأماكن المقدسة ، وكان ذلـــك من المواضيع العاجلـــة لثورة العرب وستؤخذ له البيعة من المسلمين في الأماكن المقدسة ، ولكن الشيء الآخر الذي بقي هـــو ســـوريا والبلدان المتوسطة ، والتي يجب استمالة عناصرها الى جانبه ، ولكن يجب النظر الى مركز العدو في تلك المناطق ، لقد اندلعت ثورة العرب خلال سنوات الحرب ويجب أن تأخذ بنظر الاعتبار المساعدات الماليـــة التي جاءت من حكومـــة بريطانيـــا والتعهدات السياسية للحكومـــة البريطانيـــة لتحريرهم مـــن حـــكم الأتراك ولاسناد الحركـــة العربيـــة .

لقد كانت تلك التعهدات والصعوبات التي ظهرت بينهم والتي سببت فيما بعد سوء الفهم وكانت مصدراً لكثير من المشاكل ، لقد كانت السبب في الهياج الذي عمّ أخيراً منطقة الشرق الأوسط •

ان تسمية « الثورة العربية » أو « ثورة العرب » من المحتمل أن يكون فيها شيء من التضليل • لقد كانت « العربية » تشمل منطقة ضيقة نسبة الى الغرب ، من الناحية الجغرافية كانت الحجاز تشمل تلك المنطقة الممتدة الى الغرب والساحل ، والسيطرة كانت جغرافية وليست هناك روابط سياسية[٢] • هنالك مناطق كثيرة لم تؤخذ في الاعتبار مسؤوليتها العربية مثل : نجد ، شمر ، مسقط ، البحرين ، والكويت ، كل واحدة وحاكمها واعتمادها على الامكانات الموجودة فيها وسوف لن تكون بأي حال من الأحوال تحت سلطة الشريف حسين ، لأن الثورة لم تأت لهم • لقد كانت فعاليتها الرئيسية في منطقة محددة بالحجاز ومنطقة المتوسط التي كانت مسرحاً للحرب • هذه الأقطار وبلاد ما بين النهرين وحدها اعتبرت الفرصة السياسية ملائمة لها فقط •

ان السيطرة من خلال التمثيل الدبلوماسي على منطقة ساحل البحر الأحمر كانت منوطة بحكومة الهند ، وأن ساحل البحر الأحمر – وبواقعية أكثر – والمعاهدات مع الحجاز التي قامت بالثورة العربية كانت من مسؤولية دائرة أجنبية ، وعلى ذلك جاءت النتيجة بأن مسرحي الفعاليات الحربية أصبح من مسؤولية دائرتين أجنبيتين مختلفتين • أما مسرح البحر الأبيض المتوسط المؤلف الدائرة الرسمية العربية (الصورية) ومصر فقد كانت تحت مسؤولية ضابط أجنبي (بريطاني) ، وبلاد ما بين النهرين كانت تحت مسؤولية ضابط الهند (منطقة الهند التي يسيطر عليها الانكليز) ، وعندما انتهت الحرب كانت هناك وجهتا نظر حول السياسة التي يجب أن تتبع في البلاد العربية :

١ ـ حكومة عربية تختار من العناصر التي قامت بثورة العرب •

٢ ـ رأي المدرسة الهندية : وهو أن تدير منطقة بلاد ما بين النهرين نفسها بنفسها وتوريطها بمشاكل كل من تركيا ، بلاد فارس ، ونجد ، أما وجهة النظر حول حكومة العرب وهي أن الشريفين والحكومات القومية يجب أن تتوحد تحت ظل مملكة واحدة ، أما سوريا وبلاد ما بين النهرين فيجب أن يحكمها ملك من أسرة الشريف حسين والعناصر العربية •

المدرسة الهندية تقول بأنه يجب سيطرة العناصر العربية على منطقة بلاد ما بين النهرين وذلك لنظرتها المتخلفة وتعصبها الى رجال قبيلتها ، وحاجتها الى السلام مع تركيا ، وكذلك وعود الجيش البريطاني في نفس الوقت ببلاد فارس ، والخطر الروسي وقابليات ابن سعود الذي أصبح الآن قوة لا يستهان بها ، حاكم نجدي وعدو للشريف حسين •

الأول كان مثالياً ، والثاني كان تقليدياً • القضية لم تكن مبسطة أو موضحة حسب وجهة النظر الفرنسية التي كانت ضد الشريفين • أما الشريفيون فقد جاءوا بثورة العرب كقوميين ليُعرفوا ولم يكونوا مميزين من قبل الفرنسيين أو بالأحرى لم ينالوا تقدير فرنسا واعتبارها ، بل كانوا مسندين من قبل بريطانيا التي لقنتهم ودربتهم • لقد كانت عواطفهم (العرب) مع الحكومة العربية وضد الفرنسيين وضد المدرسة الهندية • وفي السنتين اللتين تلتا الحرب أخذت وطنيتهم شكل اتجاهين هندسيين ، أحدهما ضد الفرنسيين في سوريا والذي فشلوا به في تنفيذ أهدافهم ، والآخر ضد الانكليز في بلاد ما بين النهرين ، والذي نجحوا به بكل معاني الكلمات ، وباختصار أيضاً ان الوعود الحربية التي صعدت الأحداث وحالة الشؤون الى هذا الحد هي ما يلي :

١ ـ في بداية الثورة عام ١٩١٥-١٩١٦ قدمت الحكومة البريطانية عرضاً الى الشريف بما يلي :

الموضوع ... « مناطق ساحل البحر الأبيض المتوسط » .

بريطانيا العظمى مستعدة للاعتراف وتأييد استقلال العرب بكل أقاليمهم [بضمنها شرقي سوريا وأسفل بلاد ما بين النهرين] .. عندما ترى بريطانيا العظمى الموقف مناسباً ستنصح العرب بذلك وستساعدهم بتأسيس ما سيظهر بأنه الشكل المناسب للحكومة في هذه الأقطار .

ومن جهة أخرى أصبح من المفهوم أن العرب قد قرروا أن ينشدوا بريطانيا العظمى فقط النصيحة والقيادة .

مع تمييزنا وتقديرنا لبغداد والبصرة ، فالعرب من جانبهم سوف يعترفون بأن دوائرنا ومؤسساتنا ومصالح بريطانيا العظمى تحتم عناية خاصة من الادارة المسيطرة وسنعمل على تخليص هذه الأقطار من السيطرة الأجنبية ولرقي ورفاهية عامة الناس ولحماية مصالحنا الاقتصادية .

٢ ـ في آذار ١٩١٦ كانت معاهدة سايكس ـ پيكو[٣] قد وقعت سراً بين فرنسا وانكلترا . هذا مما وطد الحدود بين مناطقهم التي يسيطرون عليها في البلاد العربية بعيداً عن الأتراك . فسوريا أصبحت منطقة تحت النفوذ الفرنسي أما أسفل بلاد ما بين النهرين (ويقصد به العراق) فقد أصبحت تحت نفوذ بريطانيا العظمى .

٣ ـ في تشرين الثاني ١٩١٧ كان وعد بلفور[٤] قد أُعلن . والذي يقر بتأسيس فلسطين كمقاطعة منفصلة عن البلاد العربية وتحت الوصاية البريطانية . (يقصد بها وطن قومي لليهود) .

٤ ـ في ٧ تشرين الثاني ١٩١٨ بعد نهاية الحرب مع تركيا كانت المعاهدة الانكلو ـ فرنسية قد تمت بالشكل التالي : « أن الهدف النهائي

لفرنسا وبريطانيا العظمى هو التحرير النهائي والكامل للشعب الذي اضطهد من قبل الأتراك ، وتأسيس حكومات وادارات وطنية تقودهم الى التخلص من التخلف وتمكينهم من حق الانتخاب المحلي الشعبي .. وبعيداً عن الاستغلال بالاضافة الى التعهد لهم بالمساعدة ، وليس هناك خيار غير التأكيد على مساعدتهم في تأسيس الحكومات والادارات التي سيختارونها بأنفسهم » .

وخلال فترة الهدنة الأخيرة كانت منطقة سوريا التي تقرر أن تكون تحت النفوذ الفرنسي ، كانت تسيطر عليها بريطانيا وتحت أمرة الجنرال اللّنبي القائد العسكري المنتصر(٥) .

.. القوة الشريفية كانت مساعدة للجيش مع نواتها من الضباط الانكليز وقد ظهر بشكل معقول لادارة دفة الأمور بعد اذن الحكومة وبنفس المرتبة كان العهد العراقي(٦) ، نظام قومي لسكان بلاد ما بين النهرين وهؤلاء خلصوا أنفسهم من وضعهم المؤقت ليدخلوا في مشاكل التحرر لبلاد ما بين النهرين ، وبكلمة أخرى ، كما اطمئنوا على الادارة هنا حاولوا أن يعملوا ذلك في سوريا كخطوة تمهيدية أرادوا التخلص من السيطرة والقيود الأجنبية . سوريا من الآن فصاعداً هي المنبع الرئيسي للدعوة العربية ولنشر الافكار والمعلومات ، وهي نهر من الذهب ، وقد تحركت تحت علم الدوائر البريطانية في بلاد ما بين النهرين ، وانبثقت هنالك بعد ذلك .

وحين العودة الى الاتفاقية الانكلو ـ فرنسية التي ظهرت لتمنع الحركة القومية ، الفاعلية والأسباب المعنوية والحوافز . لقد كانت نتائج هذه المعاهدة غير موفقة وغير محظوظة . لقد بدت بكل الديموقراطية والأفكار المثالية العالية التي لبستها غير ذات جدوى وغير ذات فائدة لمجتمع قبلي بحاجة لكل شيء .

كيف تعطي « الاستقلال الناجز والنهائي » لشعب لا يعي معنى السياسة ؟ ان العامة في الأماكن التي تقع جنوب بغداد كانوا يدعون غالباً جماعة الشيعة . انهم يعيشون حالة البدائية والبساطة ، ولكنهم مجتمع قبلي مكتف ذاتياً ، وفي كثير من الأماكن لا تجد ذكراً أو معنى لكلمة « حكومة » على الاطلاق . أما اعتبارهم الحقيقي فهو للحرية من أي نوع من الحكومات كانت أكبر حجماً من الوحدة القبلية .

كيف تقيم « حكومات وادارة وطنية تقودهم الى التخلص من التخلف وتمكينهم من حق الاختيار ... الخ » في قطر غالبية رجاله جهلاء[٧] ؟

ان اقامة حكومة محلية بكل هيئاتها وشخصياتها من طبقة متقدمة واحدة ـ وهم أهل الفكر السنّي ، خصوصاً في بغداد والمدن التي تقع شمالها[٨] ، وطبقة من رجال القبائل بقيادة ضباط بريطانيين سوف لن يجعل هناك اعتراضاً . ويمكن توظيف مجموعة ممن يدعون « الأفندية » الذين غالباً ما يكونون بغير خبرة أو تجربة أو يكونون قد تعلموا في المدارس التركية ، وسيشغلون الوظائف في بلاد ما بين النهرين (وبعيدين عن القضايا الدائرة وغير متعلقين بالأتراك أو الروس أو الفرس أو نجد) ومقتنعين بحالة « امكانية الانتخاب المحلي الشعبي .. وما سيختارونه بأنفسهم .

بعد فترة وجيزة كانت الشيعة ورؤساء العشائر التي أدخلت ضمن بلاد ما بين النهرين الوحيدين بين الأقطار العربية الذين وضعوا الصعوبات لتشكيل تكوين مقبول ينسجم مع دعوات الاتفاقية الأنكلو ـ فرنسية .

ولحد ذلك الوقت كان الكثير من السكان في بلاد ما بين النهرين قد رضخوا أو تعاونوا مع الادارة البريطانية وبقدَريتهم الشرقية قبلوا

اقرار الجيش وكانوا مهيأين كما يقول العرب « قبّل اليد التي لا تستطيع ان تقطعها » لقد جاءت المفاجاة مع نقاط مؤتمر السلام التي جاء بها الرئيس ولسن وفي غضون شهر كان النتيجة هي الاتفاقية الانكلو - فرنسية ، وخلال ذلك خرج أهالي بغداد الذين نصبوا الأمير العربي ، فوراً وداروا في الشوارع - وهم يبكون على آمالهم التي ذهبت - في الشوارع والمقاهي[٩] • أما في القبائل فلم يحدث أي شيء لمدة من الزمن وبعد ذلك سيطرت فكرة غامضة على الناس بأن المستقبل بيد الأمير العربي التقي فلا ضرائب ولا ايجار أراضي ولا ظلم ، ولكن فقط حرية القبيلة ، تحرر من كل مالك •• هذه الفكرة أحرزت تقدماً ، كما أن العتبات المقدسة وحاملي الشموع المخلصين ابتهجوا لتخلصهم من الحكومة الكافرة •

ان جماعة ذات تنظيم سري ضد مصالح الحكومة قد دعت للنهوض والعمل[١٠] ، كذلك بدأ الاعداد لتأسيس الجيش[١١] الذي لم يكن موجوداً •

في البداية كان على المندوب الأهلي وبتوجيهات من الحكومة البريطانية أن يتخذ خطوات ضرورية ليتحقق من الرأي المحلي ، ولم يكن هناك رأي ذو شكل في هذا المكان أو العصر وعليه لا داعي للتحقق عنه •

اللقاءات العامة كانت تدعى « سيامة » من الذي يغتنم الفرصة ليشجع الناس ليقولوا هل يرغبون في الأمير ، واذا رغبوا فأي نوع من الادارة قد قرروا وهكذا[١٢] • ولكن آفاق الناس العقلية والفكرية قد تطابقت مع آفاقهم الطبيعية • أما القبائل فلم تدعوا الى شكل من الدستور أو التكوين من ايجاد نظام لأنهم يسيرون أنفسهم بأنفسهم مع سادتهم الحاليين • أما البريطانيون فكانوا كتلة معتبرة ، وطبعاً الرجل « الذي

حواسه بعينه ، يكون شعوره المترفع بدمه ، لحد الآن يحمل فكرة أن البريطانيين لا يمكن تغييرهم ولا يستطيع تغييرهم الا الله وهكذا سيكون أمر الله .. انه يحمل فكره الآن في رأسه ، وهي أنه سيهزأ أو يهين السلطة ، وسوف يتورط البريطانيون أنفسهم . لقد أصبح الآن مستعداً وكوسيلة للاستفزاز والاثارة . الدينيون والقوميون وجدوا عند التفاتتهم غذاءً وفيراً في المجندين البريطانيين المكرهين على الخدمة ، ومن المعارضين لحملة (أو مغامرة) بلاد ما بين النهرين وقد تطلب ذلك قطع الحبل عن المركب .

تلكم كانت بذرة المشاكل التي برزت وعن قريب سنحصد ثمرة الجهد وهي زوبعة مأساوية . كأنه مرض سمنة ، فالحوادث قفزت فجأة ، سوريا كانت في هياج(١٣) ، وكذلك مصر(١٤) . الحكم الذاتي أو الادارة الذاتية ، كانت هي المسألة التي تدور في حقل السياسة . المادة (٢٢) من ميثاق عصبة الأمم التي تنص على « أن رغبات الشعوب هي مسؤولية يجب أن تؤخذ بنظر الاعتبار في حالة اختيار الانتداب » .

ما الذي لم تقله بلاد ما بين النهرين ؟ كان هناك شعور جماعي بأن الكتلة البريطانية كانت معتبرة . ولكن الشريفيين في سوريا اعتبروا أن المادة (٢٢) بديهياً تبطل اتفاق سايكس - بيكو الذي يجعل من سوريا تحت الانتداب الفرنسي . ولهذا كانوا ضد الانتداب الفرنسي .

الرئيس ولسن اقترح في مؤتمر السلام أن يجري استفتاءً عاماً لسوريا . ولهذا الغرض كان أربعة من ممثلي الدول الكبرى مرشحين للذهاب ، والتقصي ، ولكنهم لم يوافقوا على ذلك عدا المرشح الأمريكي الذي ذهب وحيداً الى سوريا ، ومن الموضع المثير للاستياء أصبح نقطة بؤرية لعدم الراحة ، وعندها هاجت دمشق .

ان اعتقال السوري المؤيد لفرنسان من قبـل الجنود البريطانيين كان دائماً يجلب المشاكل الى الرأس ، ان مشاكل الفرنسيين في سوريا تعـود الى آلية الضباط الانكليز الذين يخدمون مع الشريفيين • على أية حال كانت هنالك لحظات سيئة بالنسبة للاتفاق الأنكلو – فرنسي ، فقد حدث توتر بينهما ، وقررت مصر أن تجلو القوات العسكرية كافة خارج أراضي سوريا • وهكذا سيطر الفرنسيون على القطر والادارة الشريفية •

في غضون ستة أشهر كان الأمير فيصل وقواته العربية في حرب مع قوات الانتداب ، وفي تموز ١٩٢٠ كان الجيش الفرنسي يلاحقهـم من ذلك القطر في قوة عسكرية مستعدة للهجوم •

قدّرت بريطانيا العظمى جهود العرب ومساعداتهم الحربية ، ولكن فلسطين وسوريا بقيتا حالياً صامتتين ، وبقيت بلاد ما بين النهرين مركـز الطموح لكل العرب القوميين •

الفصل الاول
الحوادث المقبلة

مرت الأشهر الأولى من عام ١٩٢٠ بشكل مسر جداً في بغداد • فعلى سبيل المثال كانت هناك أمسيات الأحد المسرة التي تقيمها المس غروترود بيل ، بعد رياضة ركوب الخيل في الصباح ، وكنا في شوق لقضاء مثل تلك الأوقات مع المرأة الرائعة نفسها • أوامسيات الأحد المسرة ـ كما يدعونها ـ كانت تقام في حديقة المس غروترود نفسها وكان يدعى اليها نخبة من أهل الفكر في بغداد اضافة الى أولئك الذين كان اخوانهم في المعسكر الشريفي ومع الأمير فيصل في سوريا • لقد أعطت أمسيات الأحد المسرة نتائج جيدة وكانت منبراً حراً • وقد أضاف الشبان العرب الكثير الى قناعاتهم حول أحداث الساعة السياسية واتفاق سايكس ـ بيكو والصهيونية ووعد بلفور والاتفاق الأنكلو ـ فرنسي والموصل وقضية تركيا اضافة الى أمانيهم وطموحاتهم •

للمرة الثانية أمنح امتياز الحياة مع المجموعة رقم واحد ؛ الرفاق السياسيون الذين يشكلون النخبة السياسية في البلد والذين يتطلب عددهم حضوراً رئيسياً متألقاً كالسير آرنولد ولسن ، المس بيل وآخرين • وهذه المجموعة لا تعرف لحظات الملل ، كان هنالك بيانو رائع من دار المندوب السامي الألماني القديم في بغداد ؛ وفجأة تذكرت تلك الليالي التي من المحتمل أن نسمع فيها معزوفة جي أم ولسن (مقدمة الى باگليسي الأول) وما تبقى في ذاكرتي من معزوفات شومان ومعزوفات شوبان (الميجر بولونيس) • الزوار الكبار والعظام الذين أتوا من خارج القطر جعلوا محل اقامتهم مع رفاق المائدة رقم واحد • وهؤلاء النبلاء جاءوا من رئاسة حكومة الهند ، يعملون في مسح الأراضي وفي رحلات طويلة آثارية للعوالم المعروفة والمشهورة وجنات بابل وقد وصلوا أخيراً سالمين •

بالاضافة الى ذلك كان هنالك تيار من الضباط الذين يتركون البلاد ويعودون اليها حسب تقسيماتهم الخاصة ومناطق عملهم مثل « لجمن »[١٥] و « صون »[١٦] رجال بمعرفة عسكرية بالأرض وبالناس ، جعلوا من حياتهم دراسة ، عدّوا أن أمسيات الأحد المسرّة شيء مريب واذا لم تكن فعالة فهي مؤسسة اجتماعية خطرة .

أن عودية كرسي الوظيفة ، التي أرسلت لاشغالها كمساعد ثان في سكرتارية « الدخل الحكومي » خلال عودتي من سفرة فراق الوطن كانت أقل من رغبتي ، مقارنة بحياة حرة أقضيها ممتطياً سرج جواد من وظيفة ضابط سياسي لمقاطعة ، ولذلك اشتقت ثانية .

انه مايس وقد اندلع العصيان المسلح[١٧] ضدنا ، كان هنالك هياج عام واطلاق نار بشكل مستمر ، وقد قدّر المفوض الأهلي أن عدد الجنود غير كافٍ لصد العاصفة . أصبح لون جي أج كيو أحمرَ كقطعة لحم خنزير مقلي حين تنظر اليه . ان التحصين وزيادة الجنود ان تطلّب الأمر أو بالضرورة أصبح أمراً لابد منه في الضرورات القصوى . كما أن تسريح الجيش لسياسة التقليل وتشغيل الجيش في نهاية هذا العام . انها ليست وجهاً حسناً وكذلك أصبحت الحديدة ساخنة جداً في بلاد فارس في الحين الذي كانت « قوات شمال بلاد فارس » مكونة لرصد وصد البلشفيك (الروس) كانت قد قعدت عن العمل خلال بحر قزوين ، تلكم القوة التي كنا نفكر دائماً بتحريكها في تلكَ الأيام ، ولكن العامل الاقتصادي قلّما كان يخدمنا لتأسيس جيش يرابط في بلاد فارس كمحطة على المرتفع بالاضافة الى معسكر الجيش في كرند ، الى ساريميل - على أية حال - أتى الشتاء ، وأن موجات الجيش وعوائلهم العاملة وجي أج كيو رأى أن يحضر بنفسه للتحرك الى بلاد فارس الى وقت الصيف . اعتقال الأهالي في بعض المناطق السياسية كان اجراء تتطلبه

الظروف بعض الأحيان ، وفي خضم ذلك جاءني هذا الأثر الأدبي الساخر الرائع :

خمسون ألفاً خمسون ألفاً
خمسون ألفاً شتتوا
على تلول بلاد فارس
جي أج كيو يتجول
يغري بذكا هامبرو
يحث بالآلام جوليان
يدفع بقطار لوبوك
جي أج كيو يتجول

★ ★ ★

« ادخلوا المخيم » قال ذلك
هل بقي من سلاح
كلا وكما يعلم الملتزمون
بعضهم مشى يتخبط
نحن لم نكن لنصدق
نحن فقط ننقل الى أمام
أشكال ، تكاليف . حسابات ثمانية
شهرياً في تضاعف تكعيبي
نحن لم نكن لنسأل ماذا
جي أج كيو يشتت

★ ★ ★

حروب الى الغرب منهم
حروب الى الجنوب منهم

معارك في كل الجبهات
وابل من الكلمات الملتهبة والتهديد
عدم اهتمام بالقبائل التي قتلت
بشبات جلسوا وصمدوا
يحفرون في سار يميل
أخيراً رجعوا .. ولكن بخمسين ألف منشتين

* * *

الفخر للشجعان والعادلون
بقيت الزوجات هنالك
يتنفسن الهواء الطلق
كأن لم يكن بينهن وأزواجهن فراق
للاختلاط بي وبك
هكذا فقط جي أج كيو
يجب أن يكون انساناً كذلك
لماذا لا يعمل معسكراً واحداً ؟
كل كرند مجروحة

* * *

بفضل الشجاع والجسور
دافع الضرائب ، شاب ، عجوز
وهو الذي لم يخبروه كذلك
كم سيدفع بالمئة
فكر بالمخيم الذي عملوه
فكر بالمطر النازل
بربطات الأرجل المصنوعة
فكر بما تبقى أن ندفعه

أوه لقد عملوا الجمع الوحشي
خمسون ألفاً منستين

* * *

سمعت التلفون يرن ..
« كابتن توماس يتكلم »
« يتكلم »
« سكرتير المفوض الأهلي « ٢٠٢ » يتكلم — سير آرنولد ولسن ،
يرغب في أن تأتي وتراه » .

سوف أذهب الى دائرة المفوض الأهلي ، غرفة كبيرة مفروشة جيداً ولكن أثاثها بسيطة ، مائدة للكتابة ، كراسي قليلة ، مقعد طويل مما نستعمله للنوم قليلا في دوائرنا ، أعمدة لوضع الفايلات ، كل ذلك حوله خلال أربع عشرة ساعة .

« خذ كرسياً واقرأ هذه يا توماس » .

لقد كانت من الضابط السياسي لمنطقة المنتفك وقرأت .

« لقد تسلمت تقريراً مستعجلا من مساعد الضابط السياسي[١٨] للشطرة يخبرنا بأن موقف العشائر يبدو غامضاً وانهم قد بدأوا بشراء البنادق ويرفضون اعطاءنا المعلومات عن عدد المجموعات العشائرية لغرض جمع الريع الحكومي ، اذا توحدت عشائر خفاجة[١٩] مع عشائر العبودة[٢٠] فان الموقف سيصبح صعباً جداً[٢١] ، ان الصعوبة في الوصول الى هذه المنطقة تتطلب شبكة من الطرق كما أن روح تمردها المشهور سيجعل من غير الممكن اخضاعها للسيطرة أو قهرها .

ان مساعد الضابط السياسي هناك قد ضعف موقفه . رفعت نظري :

قال المفوض الأهلي : « حسناً ، ماذا ستعمل للموقف » ، « أنت خدمت هناك مدة أطول من أي شخص آخر كما أعلم » .

فأجبته : « أود كثيراً لو ترسلني الى هناك يا سيدي » .

وفي اليوم التالي ذهبت الى جي أچ كيو لأرى رئيس الأركان ... وأخذت رسالة له من المفوض الأهلي ، وفيما يلي نصّها :

« لقد سبق أن طلبت سفينة حربية مدرعة لترسل الى الكوت ، وطلبت أن يكون فيها مكان ملائم لنقل الكابتن بي أس توماس الذي أرسله مساعد ضابط سياسي للشطرة . يجب أن تتحرك من الكوت الى الحي مع كتيبة مدفعية آلية بريطانية محمولة ، تحت إمرة مساعد الضابط السياسي للشطرة لاحقاً الى حين وصوله الى ذلك المكان ، ومن ثم الى شط الغراف ، ثم الى شط البدعة (الذي يكون بعيداً الى درجة أن نصله فنحن بأمان) .

الكابتن توماس يعرف المنطقة جيداً ، وقد يكون من الضروري ارسال طائرتين الى الشطرة حيث يوجد هناك مطار أرضي جيد . ويجب أن يرسلوا الى الناصرية وتُهيء هناك لترسل الى الشطرة اذا ما طلب مساعد الضابط السياسي ذلك » .

بعد أربع وعشرين ساعة أبرقت الى الضابط السياسي في الناصرية ، مركز القيادة في منطقة المنتفك في جنوب الفرات .

مئتان وأحد عشر ميلا تحت الخط تواصل بخط سكة الحديد ـ التي كانت حلم الألمان ما قبل الحرب ـ ومأثرة الحرب من البريطانيين الى بلاد ما بين النهرين(٢٢) .

من الناصرية ، ذهبت على الحصان الى الشطرة .

* * *

الفصل الثاني
الشطرة

الشطرة ثانية ! الدعوة للخدمة مرة ثانية ، لقد كان احتمالا لطيفاً ، انني على معرفة شخصية بالكثير من الناس هناك ، وبالتأكيد فان لي تأثيراً بينهم وأنا أحبهم كأي انكليزي يحب القبائل عندما يعيش معهم ويتعرف عليهم . لقد كانت سوق المدينة لكل القبائل المحيطة بها ، والشطرة تقع في مكان ناءٍ عن الطرق الرئيسية لبلاد ما بين النهرين وفي قلبها الواسع الفسيح ، والحقول الخصبة للجزيرة . تقع بجانب بقايا قنال نهر الحي .

بيتي يحتل نقطة المركز في مقدمة النهر . لقد كان بيتاً على الطراز العربي ، بنيت حوله فسحة كبيرة وشبابيك صغيرة غير ملائمة تطل على الخارج وذلك للستر عند المسلمين ولتحاشي عيون المتطفلين . والغرف ذات الأرضية الترابية كانت دوائري وهي مفتوحة الى الفسحة (الحوش) كانت فسحة لطيفة ممتعة ومبلطة بحجر القرميد المنقوشة ، عليه الكتابات منذ أربعة آلاف سنة مضت ، لجلالة الملك گوديا ملك لكش عاصمة السومريين القدماء التي لم يبق منها سوى خرائب قليلة قريبة من الساقية . خارج أول غرفة ، والتي كنت أعيش بها ، كانت هنالك شرفة تطل على معظم البيت ، وهنالك سلالم تقود الى السطح مباشرة . الى هناك أعود حيث أدخن الغليون بعد الظهر وأنظر الى جدران المدينة فيما وراء النهر الصغير حيث حقول الحنطة الصفراء الواسعة والتي تمتد كبحر هادىء الى حدود السماء المحيطة بالأفق ، ومن خلال السطح كانت تطل المنارة ذات اللون الفيروزي الأزرق المخضر ، والمليئة بألوان الكتابة والتي تعود الى مسجد الجمعة ، والتي في الأمسيات الحارة كان المؤمنون يختارون السطح الذي بجانب القبة لصلاتهم خلفها ، وأمامها كانت تمتد بيوت المدينة ، وخلال تلك البيوت كانت هنالك مدرسة الأطفال الابتدائية ،

والمستوصف ، اللتان شيدتا للشطرة بفضل الادارة البريطانية • كانت هذه المؤسسات التقدمية مقدرة . وعليه فقد بدأت بأعمال أخرى مقابلها عندما صنعت كرة للمدرسة ودعوتها الأرض •• وبدأ بعض الآباء نتيجة ذلك يشمون رائحة الكفر(٢٣) • وفي الجانب المقابل للجامع كانت هنالك اصطبلاتي • ان أيام السيارات في منطقة كالشطرة كانت تبدو شيئاً ساذجاً •• وتقدمت على أية حال في جولتي على ظهر الحصان وكان ذلك يبدو لي أن الطريق الصحيح لدراسة العرب ولغتهم وفسح المجال لهم لمعرفتك بالاضافة الى أن ذلك أصبح شيئاً جميلا ، فالمناطق المحيطة كانت خصبة ومثمرة ولكنها أقل من الحجم الطبيعي • ولكن كانت هناك طريقة جميلة للحرث عند العرب •

كان هنالك السوق الشرقية الذي انتعش في تلك الأيام الموسمية الفنية والتي شملت كل المدينة والتي فيها شارع أو شارعان يمتدان بموازاة النهر • انه يموج بالناس القادمين من الريف الذين كانوا يلبسون الملابس اللامعة ويتكلمون بصوت عال وبنبرات حنجرية ، وكأنهم يتكلمون بألسنتهم وحناجرهم • الكثير منهم كانوا شباباً ، من شباب القبائل المسلحين الى أسنانهم ، ويبدون بكسوتهم ونظامهم ككسوة ونظام الجيش •• وفي السوق تقدم أنواع الأطعمة ذات المذاق العربي ، الشطرة اليوم تصل حدود العالم الخارجي ، كانت هنالك دكاكين صغيرة تتعامل بالحلي الرخيصة من الهند واليابان ، مرايا ذات بريق وانعكاس داخلي وصور ملونة نصفية لنساء ذوات صدور ممتلئة في مداخل الدكاكين • كان هنالك دكان حلاق ، وهو في هذا المكان يقوم بمهمة المدلك والطبيب أيضاً ، وعلى الأقل فهو صاحب مهنة ويقوم بالكثير من الأعمال الطبية كالحجامة الشعبية وعلاج معظم الأمراض • معظم الدكاكين هناك كانت منيرة وتتعامل بالحاجيات التي تحتاجها المنطقة وتكون بالتبادل العيني • ففي الشتاء يأخذون الحنطة والشعير ، وفي الصيف

يأخذون الرز . كانت هنالك أماكن للفاكهة كالبطيخ والرمان والبرتقال والتمر واليقطين وغيرها ، ان أماكن البقالين أو دكاكينهم التي يتعذر اجتنابها كانت تحتوي على السكر والشاي والقهوة والجبن والتبغ والتوابل وأشباهها من الرمليات ، وبالرغم من ذلك فقد كان أصحاب تلك الدكاكين مسرورين بوفرة الحرير والحلي الصغيرة الرخيصة ، وها هي أشعة الشمس التي تشرق على البيوت الصغيرة الفقيرة ، فوق سطوح السوق ، ولم أحاول أن أذهب الى هناك حيث ذلك المكان الذي يجعل نساء القبائل مسحورات ، وهناك سترى منظرهن وهن يسترن حتى وجوههن ومنتظرات من يشتري منهن أكوام الحطب التي يرفعنها على رؤوسهن الصغيرة لكي يمنحن كسباً منه ، واذا كان المبلغ نقداً فسوف تشتري التبغ لزوجها وتقفل راجعة .

مقاطعة الشطرة كانت منطقة يبلغ حجمها متوسط منطقة انكليزية ، كانت المركز الجغرافي لمنطقة اتحاد عرب المنتفك الذين كانوا يسكنون في مناطق أواسط أسفل الفرات (الفرات الأوسط) شمال هذه المنطقة يقع منعرج نهر الحي أو (الغراف) وكانت قلعة سكر[٢٤] تقع متاخمة لمنطقة الكوت . انها لم تعرف سابقاً موطيء قدم للجنود الانكليز كالفرات ودجلة . انها كانت مشهورة بتمردها وعصيانها لأن فيها ظلا للأتراك كان منذ سنوات ، ان لم يكونوا في الحقيقة قد سيطروا عليها بتاتاً ، ولذلك بقيت منطقة المنتفك مسكناً للعرب محاطة بالأراضي التي يسيطر عليها الأجانب في الحين الذي بقيت بلاد ما بين النهرين لقرون مضت تحت السيطرة العثمانية .

هنا تسكن عائلة السعدون العربية النبيلة الأصل ، وتعيش منذ حوالي ثلاثة قرون ، وتحمل هذا اللقب المشرف في هذا المكان ، ومن المحتمل أن تبقى مستمرة راضية بالعيش مع القبائل التي نصبتها وأعطتها

البيعة . وتدفع لها الضرائب الاسمية ، ولكن الأتراك استغلوا ذلك ، وكذلك خروج القبائل المترحلة الشاذة عن القاعدة ، كل ذلك منح الفرصة للأتراك لكي تضع حداً لما يسمى بالشذوذ أو الخروج عن القاعدة = كل ذلك بسط الموقف بالنسبة للحكومة المحلية الهندية المحاطة بالسلطة البريطانية في الهند • في سنة ١٨٨١ طلبت القوة التركية (١٨٠٠٠) من القبائل الى الجنوب من الكوت • لقد « تدللوا » على القبائل التي أصبحت مكانتهم بينهم مكروهة • فطلبوا منهم العودة الى سادتهم عائلة السعدون ومفاوضتهم ، وقد هرب أكثر هؤلاء الى المحمرة حيث وجدوا مأوى لهم عند آباء الشيوخ الحاليين سيئي الحظ ، ولكن بعد ست سنين بدأ هؤلاء بالعودة الى الأماكن التي هجروها ، ولكنهم أُبعدوا عنها ، فأقاموا في أماكن قريبة أو متاخمة لملكياتهم المفقودة • الأتراك سحبوا جيشهم بنجاح بعد أن ثبتوا حاكماً على الشطرة ، وبعد عشر سنين من الادارة القوية واستتباب الأمن والتي نشأت نتيجة لدعوة التهدئة التي كان سادتهم يوصون بها ، ولكن فترة الأمن هذه تبدو أنها قد أوشكت على النهاية بعد أن ذوت تأثيرات الوقف ورجعت تشكيلاتهم السابقة وعادوا لانتهاك حرمات كانت سابقاً مأمونة الحركة - كما اعتقدوا - لم تكن ضمن السياسة الحكومية ولكنها كانت ميسرة من قبل الموظفين الكبار الذين كانت تدفع لهم الرشاوى أو يأخذونها قسراً • أساساً في النسب القبلي كان لهم حصة في هذه الأراضي ، ونتيجة لما حدث تم تعويض عائلة السعدون لنسيادتهم ومنح الأتراك لهم الألقاب وقطع الأراضي الواسعة التي تركها الفلاحون الهاربون من الخدمة ، وكعنوان مقارب لتجربة حرية التملك في القانون الانكليزي الآن « حقوق المالك » « التأجير » كانت مصطلحات أجنبية وغريبة على عقل القبائل • لقد أصبح نظام اصلاح الأراضي المستأجرة الذي سيأتي والذي سمعت به القبائل ، ويجب أن لا تعجب ، وللعشرين سنة القادمة كانت المنطقة تحت حالة سرمدية

من عدم الراحة والاضطراب • ان المناداة بتوزيع الأراضي توزيعاً عادلا وتسوية المبالغ السابقة كان مرتعاً خصباً للمشاكل في الأقطار الزراعية ، والتي أثارت الغضب بعدئذ في منطقة المنتفك • وويل للحاكم الذي يتنازع على الأراضي • وبالضبط مقابل بيتي عبر النهر (نقطة الشؤم) كانت هناك مقبرة صغيرة وكانت تحتوي بقايا ثلاثة أتراك كانوا يشغلون منصب قائممقام الحكومة وهم أسلافي هنا ، ولم يحوزوا تكريماً مرضياً ولذلك ماتوا في وظائفهم من غير الأسباب الطبيعية •

ثم جاءت الحرب العظمى ، قبائل الشطرة اندفعت تحت تأثير المواعظ المتعصبة من قادتهم الدينيين تحت راية الجهاد ضد جيشنا الغازي(٢٥) ، وبالتأكيد فانهم في قتالهم لنا كانوا يحملون الوصية الدينية وهي انهم اذا ماتوا فان أجسادهم ستسافر الى السماء حيث المباهج والمسرات الاخروية اذا كانت أو لم تكن تضليلا فان قتال العرب كان يزيد أكثر حينما تصبح القضية دينية ، كان هنالك متسع لنرى أن المنتفك كانت لها معدة صغيرة لتحمل معركة الشعيبة ولكن كان بها كسب كبير وفائدة • وبعد اتباعهم لنا وهجومنا المعاكس وانتحار قائد الأتراك ، شعرت قبائل الشطرة بانسحاب القوات التركية ، رفاقهم القدماء ولهذا عادوا من ذلك المكان الى قراهم مع بنادقهم الحديثة وذخيرة حربية وافرة •

ان التقدم الرائع الذي أحرزه الجنرال طاونزند الى المدائن جعلتهم يفدون الى الناصرية لاعلام الحكومة البريطانية بولائهم • ولكن حالما رجعت الباخرة وانسحبنا الى الكوت ، وبدأ حصارنا لها خلعت هذه القبائل علاقاتها معنا وأعادوا علاقاتهم مع الأتراك • لقد أصبحت الشطرة مركز القيادة بالنسبة لمأجوري الأتراك وكان ذلك بالرشاوى والأسلحة والذخيرة وحثوهم لتنهض قبائل الغراف ضد قواتنا في الغراف التي استقرت في الناصرية • سبعة آلاف عشائري تحت قيادة قائدهم المهيب الشيخ خيون

العيد والتحموا معنا تحت راية التعظيم في البطينجة يداً بيد حاربوا ولم يسترح العرب حتى وقعت الكارثة وقتل ١٤٨ شخصاً وفقد ٣٥ • البطينجة كانت معركة ليست ذات نهاية جيدة لنا وقد أرتنا همة ونشاط المقاتلين الشجعان من قبائل الشطرة • لقد هيأنا عملية هجومية ضدهم عند الالتحاق ولمدة ثلاث سنوات صانوا أنفسهم وكانوا غير مزعجين لقد كانت مؤسساتنا المغلقة والمحروسة عرضة للسرقة ووصول هذه المسروقات الى أعدائنا ، وخلال ضرب الناس حدثت بعض المعارك التي منحت المهربين فرصة الحركة والاستمرار في أعمالهم واستمرار الصراع • كانت معهم هنالك قسم من الأسلحة والذخيرة قد غنموها من أيدي حلفائهم الأتراك •

ولكن مع سقوط بغداد عام ١٩١٨ جاءوا مرة أخرى ورفضوا بصوت عال مشاركتهم في الحكومة المنتصرة ، كل القواد جاءوا بعد ذلك وقالوا كلمتهم ، الا الشيخ خيون العبيد فقد بقي عنيداً • لقد زار الشطرة بعد فترة قصيرة (في حزيران ١٩١٨) للمرة الأولى مجموعة من الضباط(٢٦) ، وبعد ستة أشهر كنت أنا قد سافرت من سوق الشيوخ(٢٧) الى الشطرة ضابطاً سياسياً •

ان قائد القبائل في هذه الأحداث كان الشيخ خيون شيخ العبودة ، وهو ذو شخصية قوية ومؤثرة وذو سلطة مطلقة ، كان رجلا ذا ثروة خيالية وجباراً في المعارك • لقد سيطر على كل النهر لمدة خمسة عشر عاماً ، وكان كالشوكة في جسم الأتراك ونحن أيضاً •

* * *

الفصل الثالث

ميراث الاتـــراك

بانتظار اتفاقية السلام مع الأتراك • في الحرب أو مـا بعد الحرب ، كانت بلاد ما بين النهرين بنظر القانون الدولي ما تزال بلاداً محتلة مـن قبل الأعداء ، أما الادارة البريطانية هناك فقد كان من رأيها أن لا بد من وجود عسكري مؤقت ، العرف الدولي نصّ على أن يطبق قانون الجرائم الأخير علـى الجيوش المحتلة ، ذلـك القانون الذي أخـذ مـن قانون العقوبات العثماني وكان نظاماً متقدماً أزاء قانون نابليون والذي تمرس به الضباط الانكليز وخوّلوا حق اصـدار الأحكام بحق الأتراك المتواجدين في جنوب بلاد ما بين النهرين • ان القانون العسكري فرض علينا جمع الريع الحكومي والضرائب الاعتيادية من المواطنين حسبما وصلت اليـه دوائر الضرائب العثمانية وحسبما نجده في السجلات وأضابير الضريبـة والدخـــل •

ان الادارة التركية لبلاد ما بين النهرين في السنوات الأخيرة لـم تصدق من قبل الكثير من المسؤولين الأوربيين ، وهي بحق كذلك • لقد كانت فاسدة وعاجزة ، فالآفات الزراعية دمرت الأراضي التي كانت تحت سيطرتها ، لقد كانت الادارة والموظفون يعملون لصالحهم الشخصي بعيداً عن مصلحة البلاد ، كما كانت أكبر الوظائف تباع بالمزاد العلني بانتظام ، والآمر الكبير أو ـ المزايد ـ يأتي وحقيبته بيده ، وكما يعرف كل انسان هناك بغير خجل ليقلد المناصب لمن يشاء من موظفيه ولمن يشاء ممن يدفع أكثر وفي وسط دائرته • ولكن لغرض أن يبقى والا يستدعى يجب أن ينظر الى شهية قيادته العليا ويرسل لها ما موجود في بلاد ما بين النهرين • قانون المكوس (التبوغ) ، الأوقاف (للأماكن المقدسة) ، الهبات الملكية•• بالاضافـة الى الحصص الموسـمية والسنوية لطبقـــة العثمانيين وعاداتهم

وضرائب أخرى الى فخامة الوالي •• والمثال على استقامة الموظفين الذين في القمة هو أن ينفذوا خلال درجات الوظائف الحكومية ، والمستخدمين من العرب واليهود والأتراك الذين تعد صداقتهم منفذاً للرشوة والفساد •

في مثل هذه الظروف لا يتوقع للادارة الدولية أن تنجح أو تزدهر • وللحقيقة فان ـ الأمن العام ـ القانون لا يتوقع أن تستمر خارج المدن ، وكاتفاق أولي لغرض الادارة الواسعة مع شخص محترم ولـــه قدرات واعتبارات ـ واسناده حين العودة الى المسائل والاقتراحات التجارية •

في مثل هذه الحالة كانت المنتفك منطقة تسودها الفوضى أو منطقة بلا حكومة ، ما عدا في مدينة أو مدينتين •• أهلوها ليسوا مـــن الذين يخضعون بسهولة ، وها هم الفلاحون يقفزون في وسط الطريق كأبنـــاء الصحراء ، لقد نشأوا من واحد من تلك الانفجارات البشرية التي بدأت في عصر البابليين وعلى شكل دوري أصبحوا من العرب الأساسيين •

ما هو سبب الجفاف ، القحط ، الاكراه ، أو ما هو سبب الحماس في التحول الى الدين الجديد ، لقـد كان أبنـاء القبائل يملكون الذهنيـة الأصلية ، العادات ، قوانين وأعراف صحرائهم القديمة ، وهنا في جنوب بلاد ما بين النهرين ، التي أعرفهـا كان العداء الدموي طبيعيـاً ومحترفاً ، جنس النساء كان يعدّ مخلوقاً حقيراً ، الحق بالنسبة لهم هو لمن يؤكـد حقوقه بقوته ، الثورة والعصيان كانت من الأمراض المستوطنة المزمنـة • لقد كانت قبائل المنتفك قوية جداً ومحاربين أشداء ، ومن المشكوك فيـه انهم يتركون الادارة العثمانيـة تثبت أقدامهـا • وقـد تركوا يستمتعون بحياتهم دون ضرائب أكثـر الأحيـان ، دون أن يعترضوا حياتهم • ان شيخ قبائل العراق النائيـة كان قانوناً بحد ذاتـه وخطراً يهـدد جيرانـه الفقـراء • وكان هنالك بعض الموظفين الذين يحاولون جبايـة حصـة

السلطان ولكن دون فائدة ، الا في حالة التأثير المباشر والفوري ، ولسلامة التجارة والتجار فان مالك الأرض أو الموظف لا وجود لهم ، والضعيف يجب عليه أن ينظر ـ فقط ـ الى التجارة ، الا اذا انضوى تحت لواء بعض قادة اللصوص العاملين في خدمة الشيخ أو يعمل بكد وبجهد ويدفع الهدايا والمقتنيات اللطيفة • ملجؤه كان حصناً على ضفاف الأنهار أو في الأهوار أو المستنقعات ، وهناك تكون شجاعته حيث يحتفظ بقارب (بلم ، مشحوف) لكي يركبه ويذهب للسلب والنهب •

لم يكن هنالك قطار لأغرض تجارية بحتة ، وللمحافظة على سلامة التجارة ، يجب على التاجر أن يدفع مالا للقبيلة التي يمر بقربها والا تعرضت حياته لخطر الموت • لقد تورط الأتراك في حروب البلقان ، لم تكن لديهم القوة لاخضاع رؤساء القبائل ولا السلطة لكي يربطوهم بالأوامر والقانون • كانت فعالية الأتراك كما مترجمة في الرقعة هي أن مفهوم الحق مع المنتصر ، وهذا بالطبع ما دفع المسؤولية عن الشيوخ واللصوص ، وكانت هنالك أخلاق عامة قائمة برغم كل ذلك • وهنا يكون البيع الاعتباطي لقطع الأراضي وسندات التمليك على حساب أراضي الفلاحين ، وكانت هذه الطريقة المسماة (أصحاب طابو) ملاكين بموجب سندات التمليك في وقت كانت فيه « مجرد حكومة » ، ولغرض تثبيت حقها القانوني والشرعي في البقاء كانت تغصب الحق من جانب لتعطيه الى جانب آخر أو من كليهما ، وكانت هنالك محاكم تركية وتحكم بالقانون السني مزدرية حقيقة هامة تلكم هي وجود مائة في المائة في جنوب بغداد عرباً ، وتسعين في المائة منهم شيعة • ان عرب المدينة في بغداد وشمالها يرون الأشياء بمنظار مختلف ، كان أحدهم سنياً ان لم يكن تركياً ، وبأي حق فكل شخص مع الأتراك سوف يتمتع بامتيازات المذهب السني ، حصل على التعليم التركي ، وعدّ خدمة العثمانيين مهنة(٢٨) •

ولتقويم الوضع الداخلي والموقف في أيام الادارة البريطانية يجب أن يكون واضحاً . هذه الميزة لعموم بلاد ما بين النهرين بين رجل المدينة ورجـل الريف أو القبيلة . كان هنالـك تقسيم جغرافي ، اجتمـاعي ومذهبي .

رجل المدينة من طبقة الموظفين كان مجنداً سائداً من بغداد أو المدن في شمالها . لقد عد رجل القبيلة الثائر أو الذي لا يدفـع الضرائب عدواً للحكومة ، وشارك التجار في نظرتهم ، وكذلك ملاكي الأراضي تبعـوا رجل المدينة في نظرتهم بأن القبائل غير مدركة وبربرية وذات ذهنية حادة في السلب والنهب .

ان القبائل في العراق ، جنوب بغداد ، وهم غالباً على وجه الحصر شـيعة في المذهب[٢٩] ، وقـد عدّوا الموظفين وملاكي الأراضي كأعـداء طبيعيين لحريتهم ، وأن التاجر الذي يمر عليهم كأنه حمل سـمين بعثه الله اليهم لكي يكتسوا بصوفه .

الشيعة والسنة لم يكونوا على خلافات مستندة الى الدراسة ، وانما كان تعصباً حاداً في هذه المنطقة ينبع من العداء . والعلاقـة بين المتشيعين تثار بواسطة العناصر المثقفة وأصحاب المهن ، ولأسباب اقتصادية وبواسطة ما ورثوه عن الأتراك الذين يتبعون المذهب السني ، كانت المسألة مشابهة للعلاقة بين رجال الكنيسة الانكليكانية والخارجين عنها في عهد ستيوارت .

الشيعة أكثر المعارضين صلابـة في الاسلام ، ومتعصبوهم في بلاد ما بين النهرين هم من رجال القبائل ويكون ذلك بطبيعة تمسكهم بالعقيدة وبالأمية والجهل الشائع بينهم[٣٠] ، وقد جاءوا ليأخذوا الخطوط العامة لسياستهم من الهيئات الدينيـة ، ويكون ذلك عندمـا يأتون الى العتبات المقدسة ، وترى تلك الأيادي القوية الخشنة البعيـدة عن العاطفـة كيف

توضع مسرعة وخفيضة ، ورجل الهيئة الدينيـة الكبير يسمى « المجتهد » وهو يشبه البابا أو كبير الكهنة ، عندما يتكلم • ان المجتهدين هؤلاء هم أيضاً خاضعون للاسلام ــ الاساقفة ــ المجتهدين ، العلماء ــ القساوسة (رجال ديـن) ــ انهم سـكنة الجنـة بالنسبة لرجل القبيلة الساكن في الأهوار وهو خاضع لحكمهم كبقية الرجال • ان قوة المجتهدين تكمـن في الاعتبارات اللاهوتية وتفسير قوانين الدين وتشريعاته وتلك التفسيرات الروحية تتغير من وقت لآخر • ان هذه التفسيرات (الاجتهادات) تقبـل من بقية المذاهب الكبيرة في الاسلام وهم السنة « التقليديون » وفي الجانب الآخـر المذاهب الأربعـة « التقليدية » وهي الشافعي ، الحنبلي ، المالكي والحنفي ، وهذه المذاهب الكبيرة موجودة منذ العصور الاسلامية القديمة وهـي ثابتـة الأحـكام وغير قابلة التغيير • ان أماكن الشيعة المقدسـة في النجف وكربـلاء تعد فاتيكـان العراق وهي تمثـل لرجال القبيلة مفاتيح الجنة والنار ، وهنا تعيش أقسام من الفرس يعكفون على دراسـة الكتب المقدسة التي غالباً ما تكون مفسرة ، كتب كُتبت في النص العربي المقدس (القرآن) لغة الجنـة الأم ، اللغـة التي من خلالهـا أوحى بهـا الله الى الانسان !

عندما يذهب رجـل القبيلة للزيارة كمـا يفعـل بشكل دوري الى كربلاء والنجف والكاظمية وسامراء ليتقي ويجدد اخلاصه في أضرحـة القديسين يضع نفسه تحت قيـادة أحـد أولئك الذين يخدمون الأضرحة ويصبح كريماً ، سخي العطاء تحت تأثير الوازع الديني ، ويصبح غـير ذلك المخلوق ذي الدور الحديدي ، خاضعاً ومطيعاً وخاشعاً •

وحين الرجوع الى المعتقد العام للسنة والشيعة فهناك « لا اله الا الله محمـد رسول الله » •• ولكن النقطـة اللاهوتيـة الرئيسية للخلاف بين الاثنين بعيدة عن تفسير القانون الالهي ، دائماً ترجع الى ما يلي :

هل قضية الخلافة تعود للنبي ، مع السنة الخلافة ما زالت حية ، مع الشيعة انها قضية ميتة أو على الأقل معلقة • السنة يقولون باختيار الخليفة والشاغل لهذه الوظيفة كان رجلا اعتيادياً من المسلمين قوياً ليومه ، هذه الوظيفة صارت لقرون عديدة ، لهذا السبب لسلاطين العثمانيين ، هذا الموقف يعد بدعة بالنسبة للشيعة • ان الخلافة تؤخذ عن طريق الوراثة • الخلافة محدودة لاثني عشر شخصاً يتسلمون هذه الوظيفة يدعون « الأئمة » • علي كان أولهم وأعظمهم ، وهو حجر الزاوية لهذا الصرح الضخم وعظامه مع أولئك الأئمة الأوائل ترقد في العتبات المقدسة من العراق ، الامام الثاني عشر والأخير هو المهدي المنتظر ، اختفى وهو صبي في كهف ، ولا يزال يعيش ، وقد اختفى عن الأعين ، وسيأتي ثانية ليقيم الحرب ضد الظلم والجور ، والثوران متكرر في أقطار الشيعة ، بسبب الظهور المدّعى فوق المشهد • السنة يرفضون كلمة « إمام » ولذلك يعدون في نظر الشيعة كفرة(٣١) •

الامامة تعد بمقام الحكومة الدينية ، وهي على وجه الحصر ذات قدسية أزاء القوى الدنيوية • وهذه المسألة تتعدى في بعض الأحيان نظرتها ، حيث أن القبائل في جنوب بغداد وهم من الشيعة كانوا مخلصين جداً لهم ، ويقومون بعصيانات مسلحة لأسباب وغايات هي غير اعتبارات الحاكم السني والحكومة البيروقراطية العربية •

الفصل الرابع

طرق البريطانيين

ان عمل سياسي المنطقة هو أن يحكم ، وكانت أهداف الحكومة هي تهدئة القبائل ووضع القانون واصدار الأوامر بدلا من الفوضى والتشوش والارتباك الكامل الذي ساد من قبل ، سياسي المقاطعة يجب أن يقيم العدل ، يجمع الدخل الحكومي (الريع الحكومي) يشتري التجهيزات للجيش ، يقيم مجلس البلدية ويتعاون مع بقية الأقسام كالتربية والري والزراعة والأعمال العامة اذا قامت هذه الأعمال وفي أي مكان . بعيداً عن الاعتبارات الأخلاقية ، فان الضرورة لوضع القانون والأوامر بين قبائل لا تعرف القانون وليس لديها قانون كان من مهمة الجيش كتأمين خطوط المواصلات (مواصلاتنا) والمحافظة على التجهيزات المحلية ، الملاحة ، وحالة العالم اللاحقة للهدنة ، والتي جعلت التكاليف لبضائع ما وراء البحار وجعلت منها طعاماً معتبراً للجنود في الحقول كلما أمكن توفيرها من المنابع المحلية ، والأراضي المنعزلة أو المزروعة بغير نظام تكون مثمرة وخصبة .

وكما لاحظت فالشطرة لم تر مثل فرقة الجنود البريطانيين ـ كما أعتقد ـ ومن خلال الهيبة وانعكاس صدى انتصاراتنا التي زحزحت الأتراك من الأرض بالاضافة الى اسمنا الجيد وسمعتنا الطيبة .

لقد كنت الانكليزي الوحيد في المقاطعة بين حوالي ١٣٠ر٠٠٠ ألف نسمة . أقرب نقطة لزملائي كانت في الناصرية على بعد ٢٤ ميلا الى الجنوب « سيدي الضابط » وقلعة سكر تبعد ٣٦ ميلا الى الشمال . لقد استنبطت هذه النتائج من خلال الجولات التي كنت أقوم بها مدة أكثر من شهر ، التكلم بالعربية وتعلم كيفية التفكير وكذلك يجب أن يكون

باللهجة المحلية ، بالطبع كان مسألة اجبارية ٠

وللقوة[٣٢] ، يجب أن نعتمد على العسكريين المحليين والذين منهم ممي « الشبانة » كما ندعوهم ، كان واحداً من جنود الله[٣٣] ٠ رجل القبيلة نحن جندناه محلياً وقد جاء ببندقيته وحصانه معه ، ألبسناه البزة وستر رأسه باللباس المحلي « العقال والكوفية » كان واجبه هو « استعد واسترح » وبعض الأعمال مثل : الحراسة ، مراسل ، سجان ٠ مهمة رجل الشرطة ، وجندي ، وكان يقوم بكل هذه الأعمال بشكل جيد ٠ كان شجاعاً وجريئاً بالاضافة الى ذلك كان صديقاً عظيماً ، ولهذا على المرء أن يتعلم تفادي استعماله ـ ما أمكن ـ في منطقته ٠ فهنالك في طبيعة الأشياء ، له عداوات قديمة لم تسقط بعد ، ومن غير المستحسن تعريضه لاغراءات الوظيفة واستخدام مركزه للتورط مع أعدائه الشخصيين ٠ ولكن عشرين ميلا من قريته تدعم قوته وتزيدها ٠ يقفزون من بين رجال القبائل على ضفاف الأنهار ، وسبّاق غالباً ـ ليست لديه فكرة عن السياسة ولكنه بارع وهائل في ولائه الشخصي ٠

« الشبانة » تنظيم جاء مع الوقت لتطوير البدائي الى رجل ميلشيا ثم الى مجند عربي بالقابلية العظيمة نفسها خلال مشاكل العصيان المسلح ، والى جانب القوة الصغيرة من المجندين المحليين كانت الادارة مخولة باسناد العمليات الحربية الجوية في حالة أي عصيان خطر ٠ ولكنني لم أجد أي ضرورة بين قبائل المنتفك لأطلب طائرات لأغراض العقاب والقصاص ٠ المعاقبة من وقت لآخر كانت ضرورية بالطبع ، وقد كنت مولعاً بأخذ القصاص بواسطة الشبانة ، بتدمير أو هدم بروج « بني سعيد » الاثني عشر ، وعمل كهذا يبدو لغير مستحقيه بعد وقوفهم بأمري عند مقدم المشاكل ٠

أن توقعاتي حول رجل القبيلة قادتني الى أنه سهل الانقياد ومسؤول

عندما يعرف • لماذا • وأين تستقر الأشياء ، واذا استمع بصبر وأناة غالباً ما يكون غير متحمل لطول وكثرة شكاويه ومطالبه • لقد كانت تمريناتي لغرض صرف أكثر من شهر ونصف الشهر في التجول بين القبائل لأعرفهم شخصياً ، وكنت اعتيادياً أصطحب معي أربعة من الشيوخ الذين أعول عليهم من التغييرات ، وغالباً ما أجلبهم من أقسام المقاطعة الأخرى • كان هؤلاء وسيطاً عاطفياً بفم وآذان • أن عرب الغراف المتطرفين وذوي الملابس الصوفية كانوا يستجيبون للكلام الشخصي •

الشطرة أعطيت درجة ادارية واسعة من الأتراك لعدة سنوات ، ولكن حتى عندما كانوا يقيمون علاقات جيدة مع القبائل فهم مثل القاضي السني الذي يحكم بقانون الشيعة ــ عمل بغير معرفة ــ أولا يعلمون أنه يعارض الشيعة • وبما أن معظم القبائل من الشيعة فلم يكن من العجب أن تقاطع محاكم الحكومة • وتوجد عند كل القبائل العربيـــة قوانين وأنظمة غير مكتوبة وجدت عملياً في التراث الشعبي ، وكان قاضي القبيلة هو الشيخ أو « السيد » المحترم • والنتيجة تكون مقنعة للجميع ويكون الجميع في توافق تام مع التصور المحلي للقضاء ، أو يقضون بالعقوبة من خلال عادات وتقاليد سحيقة في القدم • لقد عرفنا هذا النظام وعملنا نحن نظامنا الخاص في النزاعات القبلية والصراعات ، ولهذا فان الصديق الذي يأتي بحكايات لدائرة ما ، يقول ليس هناك حكم الا في « حضرة الحاكم » نفسه • مثل هذه العرائض تكون تافهة عادة وغير ثابتة ، هكذا ، للظلم ، طغيان قليل ، واستمتاع شخصي ، كانت غير غائبة عن نفسية مالك النهر والذي لا يحمل قوة مارد خرافي فقط ، ولكنه يستعملها أيضا في دورانه اذا أراد ان يسود • وفي كل الحالات تكون الاجراءات بأن أمسكهم في قاعة القبيلة (المضيف) وأدعوهم للاجتماع وأحكم بها ، وهنا أما أكون رئيس لمحكمة أو أحاول اخفاء نفسي حسب متطلبات القضية وأخيرا اصادق على القرار •

تلكم كانت الطريقة المستحسنة في اشاعة العدل في القبائل والتي نالت الاستحسان والقناعة ، ولهذا فان القضايا العارضة تأتي دائماً وباعتبارات بشرية أو في ظروف عدلية غامضة أو اكرهنا على التضارب فيها كهذه الحادثة التي وقعت في سوق الشيوخ ، كان هناك شاب عمره حوالي سبعة عشر عاما ، جلبوه أمامنا متهما بجريمة قتل أمه ، لم ينكر الجريمة وقد فسرها على انها عين الحكمة ، لقد جاءت بطفل ، وزوجها ـ والد الشاب القاتل ـ كان قد مات منذ فترة طويلة ، ان عار الطفل غير الشرعي الذي سيجلبه عليه لا يحتمل ، ما لم يكفر عنه أو يغسله • انه يحب والدته ، وقد فكر بالصفح عنها ، ولهذا شاور بعض النساء العجائز العاقلات من القبيلة لمحاولة اجهاض أمه فاذا نجحت العملية فسوف يعفو عن حياة أمه • ولكن من المسائل التي ما زالت باقية شيء واحد فقط يؤكد أصالة وجودة اسمه ويبقيه غير ملوث ويمكنه من الجلوس مع الاشراف ـ مرفوع الرأس ـ لشرب فنجان القهوة في المضيف ، من هذه الخطوة لم ينكمش • والخنجر الملطخ بالدم طعن به صدر والدته وهي نائمة • لقد حكمت محكمة القبيلة التي نظرت في قضية القتل بالموضوع في ساعة أو ما يقارب • لقد وجدوا ان المجرم قام بعمل مشروع وحكموا بتبرئته • ان الصعوبة تكمن في امتناع ضمير القبيلة بعدالة حكم أو عقاب الحكومة التي حددت له العقوبة مباشرة • بعد ستة أشهر حصل على حريته ثانية • لقد وجد بأنه مزارع ممتاز واستغلت مهارته لحساب بيت سياسي في سوق الشيوخ في المكان الذي سكنت فيه وفي الحديقة التي ما تزال مزهرة كذكرى له •

قانون الاجرام طبق على غير القبيلتين الذين يعيشون في المدينة ، لقد انتقلت الى غرفة المحكمة التركية في النشطرة التي تشبه السراي الضخم ، وان قانون العقوبات العثماني لنظام الحكم الاخير قد أبطل • فقد استعملناه مؤقتا لقضايا بسيطة وعادية والتي تطورت في بلوجستان في ظروف مشابهة

لظروفنا • وخلال اقامتي المؤقتة في الشطرة كانت محكمتي من نوع قاض درجة ثانية برفع صلاحية الحكم بالسجن الى ستة اشهر ، ولكن مع رفع الاحكام بصلاحية الحكم بالسجن الى سنتين كحد أعلى أصبحت من نوع قاض درجة أولى ، ونحن نسترشد بقضايانا العربية التي تشكل القناعات ، أما في أيام الاتراك فكانت الاحكام والمناقشات كلها باللغة التركية •

ان الاصلاحات التي أعطت اعتباراً أقل من القناعة كانت مؤسسة جمع الدخل الحكومي • جمع الضرائب كان ضروريا لعدة اسباب ، كانت المسألة قانونية وستقدم عملا ملموسا يلاحظ من خلاله خضوع القبائل الذي سيساعد بدوره في اطعام جنودنا ، وسيقلل من عبء جلب التجهيزات من وراء البحار ، واخيرا ستحول مشاريع تحسين الوضع الاجتماعي • ان نظامنا المالي بالطبع له شكل النظام التركي نظريا ، والذي تعود عليه الناس • وبتأثيرنا كان منتظما في حالة الحوادث ، أكثر فعالية في الطريقة بقدر المستطاع لانه كالمسن الحاد المتغضن الوجه ، الاتراك حاولوا ان يكون نظاما خليطا في الحين الذي كانت الضريبة المستحصلة تزيد وتتوسع الحصة في كل منطقة حسب الغايات ، يخضعون أو يقاومون • وباختصار لقد كانت قضية انتهاء فرصة وتجارة في أهدافها وغاياتها ، ولذلك فهي تزيد في مناطق وتقل في اخرى ، وفي بعض المناطق يرجعون مخذولين دون أية ضرائب بالمرة • والشطرة في السنين الاخيرة تصنف مع الفئة الاخيرة ، ولذلك بدت طريقتنا في سياسة جمع الضرائب كثورة فعلا •

ولكن مع عملية مشاريع البناء كانت أسهل لنا لتحديد نزاهة أهدافنا أكثر مما كان الاتراك يعملون • والعوائد كما في أيام ما قبل الحرب توضع في خزانات السلاطين الاتراك الحديدية ، ولا تترك موارد مالية أو اعتمادات لغرض تحسين الاوضاع المحلية ، لان البلد كان مستنزفا • عملنا كان يختلف تماما ، فنحن نأخذ بيد ونعطي باليد الاخرى ، فمشاريع العلم

وخطوط الانتاج محسوبة لخير البلد ، دوائر بريد وبرق عمومية ، خدمات هاتف ، طرق ، والمدرسة والمستوصف كان ثمرة جهدنا في الشطرة لهذا التاريخ وأعمال عامة مهمة كمشاريع الري التي كانت تحت اليد •

الطبيعة تبدو غير كافية في تنظيم الشطرة ، دون ان يتدخل الانسان ، كان محكوما تلينها بالدمار نتيجة ارتفاع الطمى في نهرها • كانت المدينة تقع تحت مستوى تفرعات نهر الغراف ، انها تضطجع ــ للاسف ــ في الملتقى او التشعب الخاطيء لحرف (Y) ونظرا لازدواجيته فنهر البدعة أخذ حجم الماء فيه بالتناقص سنة بعد أخرى ، من حيث معطياته لنشط الشطرة • وان مشروع سد البدعة يجب ان يمتص كما هو معروف للسكان المحليين أكثر موارد الشطرة المالية ، ونحن نحاول ان نبذل جهودنا مع الضغط على بعض السكان وكانت الفكرة بالحقيقة من وحينا ، واذا كان العربي « حواسه في عينيه » ــ (عينه ميزانه) ــ كما يقال فان النتيجة النهائية أو التقدير للمشروع سوف لن يجبرهم فقط للاعتقاد بقوة تصميمنا وعزيمتنا • لحد الان فان عقل رجل القبيلة المتوسط المتفرد في تلك البقعة المزمنة عاجز عن تجاوز متعته وحاضره • وبالنسبة له كان شيئاً مزعجا ان ندعوه للعمل بالرغم من أننا ندفع له اجرة • انه ليس بالعمل الذي يضجره ولكنه يستلزم غيابه عن القرية ، البعد ولو لثلاثة أيام في كل مرة ، ولكنه لا يصبر حتى يذهب من أجل سواد عيون زوجته •

العمل الاجباري ضروري لمثل هذه المشاريع التطويرية بالاضافة الى انه تشذيب وابعاد للميزات الرديئة لمخلفات الادارة التركية مثل الكسل ، الانكماش ، التجمد ، الحماقة والاسوء من ذلك الظلم الذي تقود له هذه المميزات ، بالاضافة الى ما ستولده من توتر عند السلطة المحلية • والسلطة من أي نوع كانت ستقف غير مرتاحة من رجال القبائل في بلاد ما بين النهرين • انه لا يكفي ان يصبح غنيا بشكل غير طبيعي نتيجة مصاحبته لنا

ونتيجة لتلك الحالة سيصبح حاد الانفعال ومستبدا حين يكلف بدفع الدخل الحكومي وحصة الدولة وبالرغم من ان النسبة المئوية لحصة الحكومة هي قانونية لامواله الجديدة والثروة التي لم يحلم بها أثرياء الحروب ويهدد بالضرب وبأشياء خرافية •

هذا التوتر للسلطة كان مغيظا بطريقة اخرى • لقد جلب السأم لهذه المنطقة التي تعودت على الفوضى والاضطراب المتواصل ، وهذا الســلام والاستقرار لا يلائم العقل الحربي • ألم يكن أسلافنا يتبعون عكس هذه السياسة ويحرضون شيخا ضد شيخ ويشجعونهم على قتال بعضهم ؟ أين كان احترامنا للتقاليد ؟ لحد الان لم تحن الفرصة لتطبيق القوانين الخارجية الحتمية التغير للوضع الاقطاعي العدائي البالي • لقد طوقت تلك الاماكن القصية لكل اولئك الشيوخ الاقوياء الـذين استمتعوا منــذ وقت قريب بتحررهم من الاغلال ، لقد ذهبت أيام الجريمة وأيام السلب والنهب وأيام القلق والتزعزع • ماذا سيفعل رئيس العصابة بيمينه القوية وشجاعتــه وبسالته ، لم يكن من المتوقع أن يرحب بتقليل قيمته في عيون مجتمعــه • لهذا لم يكن ، كما متوقع من ممثلي عشيرته ، لقد كان في بعض الاحيان مكروها ، وفي أحيان أخرى يسبب الاذى والضرر لمنطقته •

لقد كانت هكذا خلال خدمتي في الفترة الاولى بالشطرة ، والرجل الوحيد الذي وجدت سيفي يتقاطع مع سيفه هو الشيخ خيون العبيد ، كان سلوكه صامتا ومقطب الجبين ، وقلما يرى في المناسبات ، تبدو عليه سمات الكبر والغطرسة ، ان اتهام الاتراك وعائلة السعدون له كما يبدو صحيحا، ولكنه غير موثوق به ••

الفصل الخامس
لعلعات رصاص الثورة

أعدت قراءة البرقيات التي كانت بيدي :

— « الى طيران بغداد »

الطائرات ستحط في السماوة مدة يومين بعد ان يبرق الضابط السياسي للديوانية بوجوب ايقافه القصف على منطقة الصفران(٣٤) • من المحتمل ان يكون ضروريا ارسالها الى الناصرية اذا طلب من قبل مساعد الضابط السياسي للشطرة •

من شبكة مواصلات البصرة

— « الى الضابط السياسي »

جي • اج • كيو ••• نعلم بأن الباخرة المدرعة « كرين فلاي » في طريقها الى الكوت • لمعلوماتك ومعلومات توماس « كرين فلاي » وصلت الساعة ١١٤٠ وطاقمها يحمل خمسة بنادق أو • آر • أس وتسعة بي • أو • آر • أس ارسلنا اليوم بنادق أوتوماتيكية •

لقد أدركت خطة اعتقال الشيخ خيون وارساله الى الناصرية أو الى الكوت لغرض نفيه الى خارج القطر • ولكن الحكمة من مسك الطـير بوضع الملح على ظهره أو ذيله •

وعندما طلع الفجر لم يكن هناك نقاش في قضية الاعتقال ، كان هنالك الكثير من المحتجزين لذلك الغرض •

مرت الايـام ، وذهبت الفرص ، لقـد استقبلت ودعوت الاصدقاء القدامى ، وقد كنت أصعد كل يوم مفتشا عن صيدي المفضل وأتجول في كل المناطق المجاورة لارى الحصاد والناس • كان من السهل جدا ان تعيد وتجدد علاقات المعرفة معهم ، وترحيباتهم وتهنئتهـم تفيض بالمجـاملات

المعتادة • هنا في الشطرة كان الجميع جيدون ، وهذا ما يبدو على الأقل • ولكن الموقف في الاقسام المجاورة الى الغرب كان مختلفا جدا ، في الحقيقة كان الخطر يتدفق الى الشطرة يوميا • الآن أيضا جاءت أخبار الهياج في بغداد • ولكن التأثير كان قليلا • ان الصلة بين الشطرة وبغداد جديرة بالاهمال ، والصلة بين الشطرة والديوانية هي التي يجب ان يحسب لها الحساب •

لقد عزمت على أن أقوم بجولة لاتأكد من المشاعر في المنطقة وللبحث عن أصدقائي القدامى الذين كانوا يشكلون قوة في المنطقة • ان ارتفاع المياه مكن زورقي البخاري من الوصول الى باب الدار الامامية ، وبالمناسبة فان هذا الفصل مكنني من السفر بالزورق البخاري فقط في الاراضي التي تقع في الشرق من قسمي الى نهر البدعة الذي يشكل في بعض الاوقات من السنة شبكة من القنوات الضيقة التي تكون تحت سيطرة أي شخص لاختراقها بسهولة • في هذا الوقت تدفق المياه مكونة سلسلة من الاهوار التي تغمر الاراضي المحيطة لفترة من الزمن • وأخيرا عندما يضمحل الفيضان ستكون الاراضي الطينية حقولا زراعية ، ولكنني كنت اخترقها وفيما وراء هذه الاهوار والتي بحدوثها تؤشر خط دجلة كأنه اكتساح العرب في القرن السابع لانتزاع الاراضي من الفرس الى أريج سهول بني سعيد[٣٥] • هذا كان من أبعد الاماكن في منطقتي ، والشعور المحلي هنا سيمنحني بعض الرؤيا لاكتشاف طريق الريح التي كانت تهب • لقد صممت على التفتيش عن علاقة قديمة ، انه الشيخ نايف •

لقد كان يوم ١٢ تموز عندما حللت في الدواية وغيرت الزورق بحصان ، رحلت في حر القاهر الى خيام الشيخ ، لقد ارتكب جريمة في عهد سلفي ـ من التبعات التي ورثتها ويجب أن أضع لها حلا والتي تعد في هذا الوقت ـ كأنها قضية سويت وانتهت ـ كانت حالة عشائرية طبيعية ،

عابن أخ له قتل ابن أخ آخر له ليستولي على أراضي الآخر ، لقد رتبت دية الدم الاعتيادي بـ ٥٠٠ روبية ، لقد كانت حالة مقبولة عند القبائل وقد دعوت نايف ليصطحبني عند عودتي الى الشطرة لنناقش قضايا المنطقة ، لقد خاف من هذه الفكرة ولكن عند تأكيدي له بأنني لم تكن لدي نية للقبض عليه أو سجنه ، وافق ، ورحلنا ، ولكن عندما كنا نسير بتمهل في الاراضي الواسعة وخلال الحقول الى الدواية رصدت واحدا وعشرين رجلا مسلحا في موكب غير رسمي من رجال قبيلة نايف في حدود ميل تقريبا يسيرون بأسلوب يشك فيه في اتجاه مواز لاتجاهنا . كانوا غير سعيدين عندما رؤي غير اتجاهي بسرعة حول اتجاههم ومشيت خلال مؤخرتهم الى بعض الخيام القريبة التي قررت المبيت فيها الليلة . لم يكن هنالك من شك بأن الشيخ سينفصل عني وليس هناك من شك في انقاذه . وفي الحقيقة لم تكن تدمرا ، أو دمدمة ، لاي شيء يؤخر ، ولكن اليوم ليس باليوم الذي تستغل فيه الفرصة هنالك أسباب للاثارة لابد من تجنبها .

الشيخ نايف جاء متأخرا في تلك الليلة ليراني في مضيفي المنـار بشمعة . لقد كان نادما وغير مرتاح لاعمال رجال قبيلته اللا مسؤولة ، كما تكلم عن الرجل القتيل . لقد استعملت الحكمة أكثر من الشجاعة وأخبرته بأنني لن آخذه الى الشطرة في صباح اليوم التالي اذا كان الموقف المحـلي يقلقه ولكنني لن أسمح بأن أرى تحدي أسلحة القانون أمام عيني . وأمرت بمصادرة الاحدى والعشرون بندقية . أحدى عشـرة بندقيـة جائتني في الحال ، وبعد اسبوع جاءني الشيخ الى الشطرة جالبا البنادق العشر الباقية معه . لقد نجحت الخدعة . ثمانون ميلا الى الغـرب مني كان العصيـان المسلح قد بدأته القبائل في السماوة عندما كان « السياسي » لا يجرؤ على الخروج من حيزه المحدود ، وخط سكة الحديد القريبة منـه اجتثت ، ومدير المحطة قتل . أخبار مثل هذه الاحداث لم تصل رجال القبائـل

الذين نجحت مصادرة بنادقهم الجميلة ، ولكن المشاكل كانت في الجو على أيه حال وسوف تقوم ، في حالة غياب الجنود الذين يسندونني هل أريهم الضعف أم أدعهم يفكرون بأن المعركة تضع ذيلها بين رجليها ؟

ان أخبار العصيان المسلح في المناطق المجاورة ، والمشاكل في بغداد وصلت متأخرة الى الشطرة ، ولكنها الآن تروج في السوق . وبالرغم من ذلك فقد جاء شيوخ القبائل لرؤيتي كما كانوا أصدقاء سابقا ، وأسلوب العمل كان متناسقا بما فيه الكفاية ، وقد سألوني :

« لماذا لا تعتقل مثيري الفتن ؟ انهم قليلون واذا تركتهم سوف يتكاثرون . لا تخف فأنت الذي هزمت الاتراك » .

ومهما تكن أسباب الاحداث فهنالك شيئان اثنان كانا واضحين في الموقف المحلي .

١ ـ ان روح الوطنية لم تدم طويلا .

٢ ـ لم يكن هنالك تحالف أو تقارب بين هؤلاء الذين هنا والقبائل المجاورة في الفرات الاوسط لغرض اسقاط الحكومة(٣٦) .

الموقف يتطلب المراسلة ، وقد كان هذا ما كتبته في تلك الايام المشؤومة من رمضان ١٩٢٠ :

« لقد أكملت ستة أسابيع من اقامتي في المقاطعة ، وقد قمت برحلات واسعة بين القبائل . أشعر الآن بأنني أستطيع اعطاء تقييم بارع عن الموقف المحلي . في البدء كان نقلي وكان المزعج في ذلك هو الكلام الكثير ، ورجل القبيلة مزارع ، ولكنه سياسي بدائي ، هنالك فعاليات وطنية ، ولا أحد يستطيع ان يستخف بحريتهم ، وكل من يحاول احياء أراضيهم وانقاذها يستحق تقديرهم واحترامهم . التفكير السياسي كان عند زمرة قليلة من رجال الفكر في المدينة ليس أكثر من ٥٪ عموما ، الوطنية غير معروفة لدى

القبائل ، وادراك التراكيب لخطوط الحرية لن يؤثر على الموقف المحلي ، وهو صفر واحد في الاقل ليس للاحسن ، بسبب ثبات عدم ارتياحهم من جمع الضرائب ، ليس من شك هناك بان الشيوخ الكبار سوف يرحبون بالرجوع الى « حالات الدفع القضائي » ، حالات تحررهم من السيطرة ، لا ضرائب لا ايجارات أراضي • الشيوخ العصاة تعلموا أن يرددوا النغمة نفسها ، لذا عرفوا بأن مصالحهم هي حين يكونون معنا ولم يحاولوا اخفاء الحقيقة بعيدا عن مسمع اخوانهم الكبار • ان أكبر كتلة من الناس في المدينة – في الحقيقة – هي من طبقة أصحاب المحلات • يكمن ارتياحهم واستمتاعهم بهدوء وأمن الحياة ، وملكياتهم حتى الآن غير معروفة ، يكونون قسما كبيرا قبل الانكليز ، ولكن حين تنظر الى حقيقتهم نظرة سياسية فهم خائفون من ابداء ميلهم الحقيقي •

لقد تفجر الاستياء بين القبائل من جمع الضرائب ، قلق وانزعاج في المدينة ، الخوف من الاعتماد على القصبة المكسورة ، اصدقاؤنا هددوا بانسحاب البريطانيين ، والآن ماذا يعني ذلك ؟ ان موقفهم كان مسببا تماما أولا من تملق أنفسهم مع مضطهدهم القديم المحتمل • أما بالنسبة لرجل القبيلة فأسبابه تقريبا غير خافية • في الحقيقة انها تنبيء بنظام الدم ، والحق للاقوى ، ولكن تحت حماية « خيون » فهو يعرف ان الايجار والدخل الحكومي والضرائب تكون ملغاة أو غير معترف بها •

لقد سيطر « خيون » على الموقف ، انه مكار الى درجة لا يمكن ان يقع في المصيدة • ان الاختيار الوحيد هو الاقتناع بالوضع الحالي ولكن هنالك أمر لا مفر منه وهو ان واحدا منا سيستمر ، من دون شك لابد من الكياسة معه • لقد ألزمته بحقيقة هي ان السعي طويلا سيخدم مصالحه كثيرا ويجعله خادما جيدا للحكومة • وهناك أمر لا يمكن أن ينسى هو أن الشخص المؤهل للتخطيط وهندسة الانتفاضة في العراق هو خيون

العبد • يحتمل ان نبقى بلا مشاكل اسبوعا ويكون ذلك من دون تجاهله أو اسناده • لقد قاد قسما من عمليات الأقلاق الجديدة بعد وصولي مباشرة، وقد ملت الى الاعتقاد بأنه يرى في نفسه الآن رجلا معروفا لدى الحكومة أو عليه علامة استفهام ، لذا نراه مشغول البال بعمل جيد ، وفي مناسبات كثيرة جاء ليراني وأعلن بأنه سيخدم الحكومة بأخلاص •

ان أخبار الاحداث تتوارد يوميا ومهاجرون بأعداد صغيرة معظمهم من النساء والأطفال يجدون طريقهم الى المنطقة « ان حواس العربي في عينيه » وعلى المدى البعيد سنرى أن طبع أسفل الغراف قد عزم ، بقوة يمينا سوف نكبت الغليان عبر الحدود والموقف هنا هادىء ولكنه غير طبيعي •

ان التحكم الدقيق في الموقف باخلاص يجب أن يؤخذ بنظر الاعتبار، وخطأ واحد في ضوء الاحداث الجارية في أنحاء البلاد كافة والتي يحتمل تطورها هنا يمكن ان يكلف المراسل الحربي أو المخبر حياته •

الأيام تنقضي بتثاقل ، ليس هنالك فساد في وظيفتي على مدى رؤيتي ، ولا داعي للخوف • الشيخ خيون وأنا أصبحنا أصدقاء بسرعة ، ونحن ندين بذلك للعصبية ، لقد كان يروم الذهاب الى الحج وقد خاب مسعاه ، وأنا أريد أشياء أخرى مساوية ولكن عبثا ، و « كل أعمالنا المشتركة كانت للمخبر » اذا كانت علاقاتنا الوظيفية في الايام الخوالي قد صدأت فربما يكون السبب هو أن كلاً منا يريد ان ينتهز الفرصة لاخذ مركز الصدارة • ليس هنالك من شك بأننا في داخل أنفسنا نحمل بعض الحقد لبعضنا •

والحقيقة انني أطعمت صقوره في أوقات كثيرة ، أعطيته بندقية صيد (للتسلية) ، لقد متعته بكرم الضيافة ، كل ذلك في فترات من التحذيرات

الوظيفية . أنا في الحقيقة دائما كنت أخفي اعجابا لخيون لشيء واحد وهو صراحته ولكن أغلبنا ـ من المحتمل ـ ان يكونوا بسبب انه نموذج واثق من نوعه .

خلال هذه الفترة الثانية من اقامتي في الشطرة أظهر مؤشرات غير طبيعية على عزمه أن يكون جيدا . وككل الشيوخ الآخرين في المنطقة بدأ وكأنه لم يكن يريد ان يعاكس في علاقته مع الحكومة ، ونتيجة للاحداث العرضية أخذ مكان السلطة المركزية . وخلال دعوتي المعتادة له الى مائدة الطعام سألني ليلة ان كان بالامكان أن يأتي لنجلس معا بعد العشاء ، فهنالك أمر مهم جدا يريد ان يحدثني به .

وخلال مجيئه ، كان رجلا ذا شخصية مهيبة ، في منتصف العمر ، طوله ستة أقدام تقريبا ، أسمر البشرة ، غامض التعابير ، عيون خيون كانت تشبه عيون المنغوليين ، طوله ولحيته المسرحة أعطاه كل ذلك منظر التتر .. قال بعد انتهاء المجاملات :

« لقد نويت للذهاب للحج الى مكة ، هل يمكن ان تمنحني جواز مرور ذهابا وايابا ؟ » .

فكرت في الموضوع ، انه يستخدم في خطته طريق الناصرية أو البصرة ، وفي كلا الطريقين سيكون القبض عليه سهلا ، ولن اعطائي الجواز له يعادل « سند انقاذ من الحكومة » ، والقبض عليه بعد ذلك معناه عملية احتيال عليه ، لا يمكن التفكير بخداعه حتى بأحقر المستويات . ولكن أفترض اننا لم نقبض عليه ؟ تأثير غيابه في الحج سيكون تأثير طرده أو نفيه نفسه ، وهنا تكمن الصعوبة . ان سلوك « خيون » عند وصولي كان مثاليا . الموقف العام في أسفل بلاد ما بين النهرين في الجانب الاخر استمر بالتغير ، الشطرة كانت ـ في الحقيقة ـ تبرهن على انها سهلة الانقياد ،

ولهذا يجب الخوف من بغداد ، ولهذا أبرق الضابط السياسي للناصرية انها ستكون المكان الاول لقيام العصيان المسلح (الثورة) . انها الآن تأخذ موقفا آخر في العلاقة بعموم الموقف . ونتيجة لذلك كانت خطة الامس قد تركت لليوم . لقد وجدت خيونا مستقرا في منطقة أسفل الفرات ، على أية حال ولو لهذه اللحظة ، وأنا سأجرب ان أنظر للموقف خلال غيابه وأنظر لمزاج الغراف ، وهل يتغير للاسوأ . لقد وصلت الى نتيجة معينة : اذا كان خيون هو الرجل الوحيد الذي يثير القبائل فهو أيضا الرجـــل الوحيد الذي يمنع ثورتهم .

لقد نظر الي خلال المائدة أثناء مرور هذه الافكار في رأسي وقـال : « نويت أن أبدأ الاثنين » .

وهنا اتخذت قرارا جريئا وكريما ، فقلت له :

« شيخ خيون » « أريـــد أن أخبرك بعض الاشـــياء ، أنت تعرف بالباخرة المدرعة في البدعة ، لقد استدعيت تلك الباخرة المدرعة لكي أقبض عليك وآخذك بعيدا » .

لقد أصبح وجهه حادا ، وبدت عليه نظرات مخيفة ! وقال : « لـماذا تخبرني بذلك ؟ » .

قلت له : « ان السبب ، اذا سلكت طريق الحج فسوف يقبض عليك وتنفى خارج البلد كسجين سياسي ، انه الشيء الذي أمرت به ، ووافقت عليه الحكومة » .

ـــ « ولكن لماذا تخبرني هكذا ؟ »

ـــ « لانني أريد خيرك ، وأنا أريد أن تعود صداقتنا ، اننا نعيش في أوقات عصيبة ، يجب أن يبقى الغراف مخلصا للحكومة » .

لقد رأى خيون أن بامكاني امساكه ، وهو نفسه كان ينوي المسير الى المصيدة ، وقد خلصته منها •

لقد ظهر الامتنان في صوتـه عندما تكلم وصافحني ، وكان متعهـداً بكلماته وهو يقول :

« صاحب ، لقد كانت أغراضنا متعارضة ، من هذه الليلـة نحـن أصدقاء ، لا تخف على الغراف » •

كان رجلا كتوما في كل الاوقات وقد شعرت بثقـة في صداقتنا التي جددت •

في اليوم التالي اصطحبت الباخرة « كرين فلاي » متوجها الى أعالي النهر بعيدا ، الى قلعة سكر لكي أخبر زميلي بما جرى ، لقد سلكت الطريق الى الكوت بعد ذلك ، مشتاقاً للرجوع الى مياه دجلة العميقة ، لأن الفيضان بدأ بالتناقص ، نهر الحي كان منخفضاً ، وفي حاجزه سيكون لها قدم أو أكثر للرؤية الواضحة • وعلى أية حال فلا يمكن أن نتأخر أياماً أكثر •

الفصل السادس

السيطرة على المعقل « الحصن »

هل نستطيع تحطيم انتفاضة القبائل العامة ؟ انها تعتمد على امكانياتنا في امتصاص المشاكل المبكرة في البرعم ، وهذا يعود الى كفاية قواتنا في حقل المعركة •

ان الفأل الأول كان بعيداً عن الموافقة • في آخر الشتاء ، « دير الزور » مقاطعة في أعالي الفرات في الخط المتاخم لبلاد ما بين النهرين وسوريا ، لقد كان به مشهد الروح الوطنية التي جاءتنا الى مواقعنا • ان ارتداد القوات البريطانية المسيطرة هناك واقتناعها بالغفلة عن حالة الشؤون الداخلية لسلطة سوريا الأخيرة أنكرت مسؤوليتها وقد أدى ذلك الى تأثيرات مضرة •

المشاكل انتشرت هنا الى الرميثة ـ التحدي الأول في أسفل الفرات ـ لقد كان ذلك اختباراً قاسياً ، ولنتكلم ـ ويا للأسف ـ أن السلطة المحلية لم تستطع أن تستند هنا والحكومة جلت عن المنطقة • وهذا في ضوء ضعفنا عسكرياً كان ضياع الجهود في مسؤوليات الحرب التي ذهبت أدراج الرياح ، وفي المستقبل فان العصيان والتمرد أصبح حتمياً وتتضاعف سرعته في الانتقال « اذا كان الاسلوب قد طبق ـ على أسلوب تمرد وسط ـ الصيف في السهول الاستوائية لبلاد ما بين النهرين ، ممكن أن يمر » •

ليس هناك ما هو واضح بما فيه الكفاية ، انه يبدو تمرداً عربياً ونحن تعوزنا القوة أو القدرة على حماية أنفسنا •

ولكن يجب أن يبقى العلم مرفرفاً في الشطرة : كان ذلك سبب وجودي أو مبرره •

انه الاسبوع الأول من المشاكل . لقد كنت في لقاء ودي مع شيوخي ، وشعرت بثقة تامة في الموقف المحلي المخلص . أنا أعرفهم كلهم عن قرب ، عرفتهم حقاً في حدود سنتين ، وأنا واثق من اخلاصهم ، ولهذا فمن الحماقة للمسيحي أن يغمض عينيه عن الحقائق النفسية الأكيدة ، أعني ، انهم ذوو مزاج ملتهب وهم يتشربون بعمق بفكرة الالتزام لاخلاصهم الشيعي . « الجهاد » ـ التأثير وليس الضرورة ، الذي يدعو الى محاربة الكفار ـ كان واحداً من هذه الخصال . وهم لا يعارضون فكرة الفتوى التي نودي بها ، أو يتحدون تعليمات قادتهم الدينيين في العتبات المقدسة . ان حوفي الرئيسي ، ضابطاً بريطانياً منفرداً ، وممثلا للحكومة في مقاطعتي يكمن في اجتياح أمواج الحماسة الدينية المفاجيء . خيون كان يأتيني في أواخر حزيران رافضاً اعتقال علماء النجف . وابن رئيس المجتهدين[٣٧] وهذه الاعتقالات ـ كما يقول ـ وأنا أعرف انه يتكلم بتفويض ، كانت تعد من قبل القبائل أشياء مؤسفة ، وغير مقنعة . وكذلك أصبحت علاقتنا الآن أكثر قرباً من السابق ، وأنا ما زلت أتذكر بأن خيوناً كان رجلا متديناً ، بحواس القبلي ، وبكل ما في الكلمة من معنى وكان ذلك مخفياً تحت حديثه معي ، يعملون ذلك باخلاص جيد ، ولهذا فيجب أن يكونوا كذلك دائماً في احتمال مجيء أمر من رئيس المجتهدين ، عالم النجف .

واجبي كان يقضي بأن أبقى أطول مدة ممكنة في وظيفتي وأعمل على التأثير الذي أتمكنه بكل هدوء لمنع قبائلي من المشاركة في التمرد .

الغراف كان مركز العاصفة لمنطقة المنتفك ، واذا انتفض فانه الانذار لانتفاضة عامة لقبائل المنتفك . وهذا ما أبعد سكة الحديد من البصرة التي كانت سليمة وبعيدة كالناصرية ، وأعطى الفرصة الجيدة لتقدم الجيش ليحتل مناطق الثورة في الحالات الضرورية لوصول

الإمدادات من الهند . موقع الناصرية كان حقيراً وهزيلا وغير ملائم في هذا الوقت ولمدة شهرين آخرين . انه يتسع لثلاثة فصائل من المشاة الهنود ومئتين من المجندين المحليين والشرطة في الحين الذي تكون فيه عشائر المنتفك مؤلفة من قوة تقدر بعشرين ألف بندقية .

والغراف بالاضافة الى ذلك يشكل حلقة الاتصال بين الفرات ودجلة ، وفي حالة حدوث ردة فمن المحتمل أن تنتشر المشاكل الى قبائل دجلة ، في الوقت الذي بقي النهر الوسيلة الوحيدة للاتصال ونقل المؤن بين بغداد والبصرة . الشطرة اغتصبت ، وبهذا فان وظيفة التكتيك المهم تنهي وأعلق كداعية سلام لأبقي القبائل في موقف مضبوط كان أمراً ملحاً .

إن العصيان المسلح – في الحقيقة – انفجر في المناطق المجاورة ، « السماوة » ستة أميال الى الغرب ، كانت محاصرة ، سكة الحديد كانت مدمرة ، والرميثة كانت نازحة ، البريطانيون والعرب كانوا في حرب ، لاجئون وهاربون ، أكثرهم من النساء والأطفال جاءوا كركام مختلط الى هنا ، وأخبار البريطانيين المصابين كانت مائة وخمسين قتيلا ، والجرحى انتشروا كالنار(٣٨) .

« الاسبوع الثاني » من المشاكل ، جاء بتقارير عن نجاحات جيدة للعرب ، وقمة الدفاع للبريطانيين كانت مائة ميل أو ما يقارب شمال مسرح العمليات التي في الجوار .

رتل متحرك يتكون من سرية مشاة ، سريتي خيالة وبطرية ميدان ورتل مانشستر – كما كان يدعى – هوجم غدراً في الليل قرب الحلة بعملية اكتساح من قبل بعض رجال القبائل وقد قاسى كثيراً . لقد سقط منه عشرون قتيلا ، وستون جريحاً ، وثلاثمائة وثمانية عشر مفقوداً ، ونصفهم أقتيدوا أسرى(٣٩) . والعرب شكلوا اللجان وكانوا أعضاء فعليين

في تلكم اللجان في الفرات الأوسط ، ومن الحلة والسماوة[؟] كان لهيب التمرد ، والآن انتشر كثار في مرج • ان اجلاءنا من الديوانية كان يواجه بشراسة • والرتل جارٍ لأجل الطريق الى الشمال[؟] • وهذا ما ترك حدودي الغربية تماماً في الهواء ، ولكن قبائل الشطرة بقيت نائبة ومخلصة • فقط مساعدي العربي الذي يأتي بعدي بالآمرية ، عدّ المكان غير ملائم ورحل • لقد ظهر انـــه يريد أن يغامر ويستفيد من تجارة البنادق الكثيرة والذخيرة الحربية الوفيرة ، أن ذخيرة الحرب العظمى لم تكن ملائمـة لمناسبة كهذه ولكنهـا كانت من البضائع الرائجة في ذلــك الوقت •

« الاسبوع الثالث »

وبينما كانت المعركة في بساتين النخيل وفي مياه بابل ، اندلع التذمر الجانبي من المنطقة المجاورة لقلعـة سكر الى الشمال • كان زميلي[٤٢] هناك ، وكان أحدنا يتكلم مع الآخر صباح كـل يوم بالتلفون ، ولــكن يظهر أن شيئاً قد حدث للخط الآن • لقد كان من المستحيل النفاذ خلال المنطقة اليه • لقد كتب تقريباً قبــل فترة عن احتمال قيـام الانتفاضـة في منطقته وقرر أن خطط القبائل ستكون ضخمة خلال أيام قليلة وقد طلب طائرة عسكرية • ولكن أسلاك التلغراف قد قطعت الآن ، وكان يتوجب عليّ أن أكتب للمعلومات عن الطائرات ، بأنهم يجب ألا يتوقعوا هبوطاً معتاداً كحرف T للهبوط خارج قلعة سكر ، فقط طائرة واحـدة يمكن أن تجتنب « آر ، أي ٨ » القديسـة ، نموذج حربي مـع أجنحـة عادية للأعلى ، وتوسع أو تنبسط ، وفي هذه الأيام التي لم تعد بطبيعتها بصداقة مـع الانسان • لقـد حطت في الشطرة أولا وطارت بي في أعالي النهر في اليوم التالي ، ولكننا لم نرَ شيئاً غريبـاً ، ووجدنا قلعـة سكر كمــا هـي « O.K » على ما يرام ، وهكذا عدنا الى الشطرة •

بالنسبة لي كانت الأيام تمر بتوتر ، أخبار محزنة ، أخبار مرعبة ، أخبار ملونة ، تصفية وترشيح كل يوم ، معظمها محرفة من قبل حامليها ، بعض منها من تلفيق واختراع الأهالي . المدينة كانت ملهفة ، من وقت لآخر تصبح الشطرة مرعوبة ، ولكنني كنت أتحمل وفي حصن قوي عالماً أن رؤساء القبائل بقيادة خيون كانوا يسندونني ويشكلون جداراً صلباً ، متعهدين ومخلصين . وفي غضون أيام ستمر طائرة من فوقنا في رحلة استطلاعية ، واعتيادياً ستكون على ارتفاع أمين يقدر بحوالي ٢٠٠٠ قدم ، وبهذا سترى ككرة ثلجية على ارتفاع عمودي لا يمكن نيران العرب الأرضية أن تصلها . في حدود اسبوع سمعت محرك طائرة في علو قليل . تدور حول بيتي في اشارة بأنها تريد أن تلقي برسالة لي . واندفع شرطي ليجلب الحقيبة بأعلامها المشرقة الألوان والتي نزلت مجنحة من السماء .

انها رسالة ترحيب من المفوض الأهلي ، رسالة دورية تعميماً لأولئك الذين في المتفك في المناطق الخارجية والذين احتفظوا بالعلم خفاقاً .

« برقياتي اليومية اليك حول الموقف ، (هذه واحدة تقول) :

« انني أتمنى تماماً أن أحتفظ بك موظفاً ملائماً .. الأحداث الأخيرة هي ... السياسة التي أرى من الضروري أن تتبناها ، أن تعتبر الشطرة وقلعة سكر لمساعد الضابط السياسي وأن تبقى في هذا المنصب طالما استطعت أن تجعل من الشيوخ أو من عدد كاف منهم الى جانب الحكومة وبأمر جيد ، واذا وجدت الموقف لا يحتمل الدفاع فسأعمل ما باستطاعتي وسأرسل طائرة لأخذك بعيداً . وكعمل احتياطي لا تترك شيئاً عدا ما تحتاجه واتلف الفائض من المعلومات المتداولة ، احتفظ بتسجيل لأرقام كل ملاحظة تحرق .

انها فقط مسألة وقت ، وبعد أن يعود المد ثانية لصالحنا ـ وأتمنى ذلك ـ فان الدقائق العشر التي تتمسك بها ـ والتي اعتبرها نابليون قرار النصر في الحملة ـ سوف تمكننا من الاحتفاظ بوظائفنا ومراكزنا في المناطق طالما نحن لم نتأثر بالتمرد » .

ان الفقرة الأخيرة كانت نموذجاً مشجعاً ، ولم يكن هناك ضابط في القطر غير مسؤول أمام رئيس حقيقي عظيم يستلهم احترامه واخلاصه واعجابه .

لم أكن متأثراً بالحالة المالية الأخيرة لأنني أمتلك بضع مئات من الروبيات المعدنية والتي اعتبرتها للسفر ونفقات طوارىء . لم تكن هناك مناسبة لي « لشراء » الشيوخ . خيون نفسه كان غنياً مشهوراً ولكنه لم يكسب قطعة نقدية واحدة لا خلال الأحداث ولا بعدها . ان اخلاص الشيوخ الآخرين كان عفوياً وتلقائياً ، لم يجازوا ولم يوعدوا بالجزاء .

« الاسبوع الرابع »

لقد اتصلت بالناصرية في ٢٨ تموز .

« اشارة الى برقيتكم السرية بالأمس وتعزيز محادثتي التلفونية اللاحقة ، أنا أرى أن الجلاء عن الغراف الآن هو عمل قبل أوانه ، يجب أن نبقى هناك بأي ثمن ، أنا في موقف قوي ، واذا حطت الطائرة لغرض ترتيب الأمان العسكري فان الشطرة لا تحتاج الى أية انتفاضة » .

الطائرات ـ على أية حال ـ كانت تحتاجها مناطق أسوأ بكثير ، ولكن العيش في مشاهد الهياج التي عمت كل المناطق ، فمن الطبيعي أن الواحد منا يرى منطقته كانما هي المركز (للقبة) السياسية ، وحولها بقية المناطق التي كانت (تسبح) في مناطق غموض سديمية .

وفي أثناء ذلـــك كانت الناصرية مناطق المعلومات الأخرى ، كانت تتصل بالمفوض الأهلي .

• الخطر يحيق بالشطرة ، خيون مخلص ظاهرياً ، ولكن الاشاعات تقول انه كان يقوم بمقابلات سرية ، ويستعمل تقدير قبائل الغراف لــه لاثارة الموقف . وأعمال العنف قد اندلعت منذ الشهر الماضي . مريدونا الجيدون وكذلك أصبحوا أعداءنا ، كم نحن ضعفــاء عسكرياً . البنــادق والذخيرة بدأت تباع وتسرق بحرية ، حمل السلاح الآن أصبح ملاحظاً في المنطقة ، ومغتصبو الأراضي بدأوا بجمـع الرجال لقلاعهم الحربيـة ، والأعداء القدماء بدأ أحدهم يرصد الآخر وينتظر . أخبار الجلاء عــن الديوانية وصلت الشطرة حيث لم تجد لها أي تأثير ، أنا متفائل من اننـا سنغطي فترة قلقنا حتى وصول الفرقة .

ان الرجوع الى الشطرة أمر يمكن أن أتعهـد بتأمينه في الحقيقـة كانت هنالك زمرة من الساخطين ودم الشباب الذي على راحاتهم لصنـع تأريخ مخلص ، وتأثير الاشاعات حول المقابلات الســرية . ولكنني واثق من علاقاتي الشخصية مع الشيوخ القادة لازاحة اليوم المشؤوم .

لقد جاءت الأخبار المزعجة حقاً من الجوار ، من قلعـة سكر . أن نظيري في الوظيفة هنــاك هوجم من كمين أثنــاء رجوعه بعـد أن اظلمت الدنيا من زيارة صداقة لقبائل كانت خارج المدينة . عصابة من ستة أعراب حاملين بندقية (ذات لولة) فتحوا النار عليه من مسافة قصيرة ومن بواعث السعادة أنه لم يصب أحد ولكن أُصيب حصانان .

لقد طلبنا مظاهرات عسكرية بالطائرات وزيارة لاثنين من الطائرات العسكرية المقاتلة من بغداد كانت قد نظمت . كانت هــذه للتزود بالوقود في الكوت وتطير فوق قلعـة ســكر وتجعل من الشطرة محطتهــا الأولى

للوقوف . وحينما جاءوا دفعهم حب الاستطلاع للنزول فوق قلعة سكر على علو ١٠٠٠ قدم ليروا اذا كان هناك أية علامة لوجود حرب . لـم يكن هناك أي شيء ولكن عصابة من الشبان في المطار جلبوا انتباه احدى الطائرات ولذلك هبطت ليسألوا عن « السياسي » بينما بقيت الأخرى في الجو ودارت حولها .

ولسوء الحظ فان الطائرة التي هبطت عطلت ماكنتها على علو مائـة قدم ، ولهذا لم تستطع أن تعـود الى الهبوط على الأرض مرة أخرى . واضطرت الى الهبوط في مكان وعر وتحطمت .

قائـد الطائرة الثانية « دي . آر . سي . گريبج » الذي نال شـهرة واسعة بعد حصوله على كأس شنيدر أتى إلي في الشطرة جالباً لي أخبار الطائرة المحطمة المحزنة . وقد أكملت للأسف « الكتابـة » بأنـه كان محظوظاً ولم يتألم .

هنا كانت يد الله أيضا ، قلعة سكر كانت تعاني من مواعظ « المومن » واحد من أصغر « المعممين »[٤٣] الذي وصل تواً مع انجيله المؤذي ندعوته للتمرد . ذلك ما جعل يد القدر تصافحه ، لقـد أحدث موته ضجة بين الاهالي غير المحظوظين .

« الاسبوع الخامس »

في وقت واحد دائماً مع هذه الأحداث البائسة في قلعة سكر كانت قبائل السماوة تنفجر . عبر النهر في طوافات أستحثوا من قبـل بعض المثيرين الذين كانوا يقولون بوجود ذخائر خفية ويدفعون الذهب لقاء قلـع أي عارضة خشبية لسكة الحديد ، لقد هاجموا سكة الحديد في أسفل المدينة . والآن بدأ تمزق الناصرية نفسها ، عصابات قليلة من العرب كانوا يهاجمون المدينة كل ليلة ، في مناسبة واحدة حاولوا أن يدخلوا الى هنا محتملين

الاغارة على السوق ، و لاشاعة جو من الخوف وعدم الامان ، وعصابة أخرى خططت للتأثير والدخول في بساتين التمر ، من الضفة الأخرى ، ولكن هذه كانت مغامرات متفرقة ليست لغرض مهم وجـدي ، وهنالك مشكلة لـم يمتحن بهـا الموقع الأهلي الصغير كثيراً ، لقد سمعت بهـذه الأحداث بالتلفون في الساعة السادسة بعد الظهر ، كان من الروتيني أن تغير أخبار الناصرية ـ الشطرة ، وبدأت أفكر بأن الشطرة أحدى الاماكن التي تمتع بالسلام والأمان •• ومـع التدهور التدريجي في الموقف كانت الناصرية تطلب من بغداد طائرات ومزيد من الطائرات •

جاء في احدى البرقيات : « اذا فشلنا في ارسال الطائرات الى قلعـة سكر أنا أشعر بأننا يجب أن نجلو منها ، واذا اسقطت قلعة سكر فالشطرة يجب ان تستسلم ، لا نستطيع ارسال حتى طائرة واحدة يوميا الى قلعـة سكر » •

ورد الجواب : « لدينا فقط خمسة متيسرة سوية في بغـداد وهي تستعمل في مكان آخر » •

وصلت طائرة واحدة ، جاءت الى قلعة سكر لتجلي مساعد الضابط السياسي • رسالة المفوض الاهلي وصلت اليه باليد ونصها : « لقد وصلت وناقشت مع جي أو سي ـ في ـ سي رسالة X والبرقية y قصر المطار جعل من غير الممكن ارسال طائرات على نظامي في عدد كبير الى الغراف • أي طائرات على هذا الطراز الذي نملكه ، من الممكن أن نستعملها بشكل مؤثر في مكان آخر • بالاضافة الى ذلك انه من الصعب ان نخلصك حتى بالجو ، لان الموقف في قلعة سكر أصبح أسوأ • وخـلال وصول الأفواج الوشيك للناصرية فمن الممكن أن يستقر الوضع في الكوت والناصرية » •

ولهذا وجهت بواسطة جي أو سي ـ في ـ سي بأن تتوجه في هذه الطائرة الى الناصرية وتنتظر أوامر أخرى هناك •

مساعد الضابط السياسي(٤٤) كان متمنزراً من فكرة الذهاب ، ولكن الاوامر كانت حاسمة ، وكذلك أنا وجدت نفسي وحيدا في الشطرة ، كثير أو قليل في الجو وللمناطق المحيطة بالرميثة والديوانية وقلعة سكر كلها أجليت والسماوة والحلة على الفرات ، وبينهما وبين الكوت على دجلة كتائب القبائل الخصوم ٠

« الاسبوع السادس »

شيوخي ما زالوا يأتون لرؤيتي ، ولكن بعضا منهم فقد تفاؤله ، لقد كانت لديهم مشاعر كما يلاحظ المرء ـ بأنهم كانوا يراهنون على الحصان الخاسر(٤٥) ، أو بأنهم أساءوا الاختيار عندما نترك القطر ؟ هم سألوا ، اذا لم يكن كذلك لم لم يصل الجنود لحد الآن ؟ لقد كان هنالك سبب لسؤالهم ٠٠ المشاكل لا تأتي فرادى ، ان عملية الجلاء في قلعة سكر تتطابق مع عملية الاستيلاء على السفينة المدرعة « كرين فلاي » في الفرات بين الناصرية والسماوة ٠ بالاضافة الى كل ذلك ، والخطر يحيط بهذا المكان بشكل جدي ، واذا ما حاولنا اسناد جيشنا الضعيف وللأسف ، كابتنها الشاب وطاقم السفينة لم يشاهدوا بعد الآن ، لقد كانت نهايتهم غامضة ، ولكن غياب أي أثر لهم كان يعني بأنهم سيظهرون ثانية ؟ ومنذ الليلتين الاخيرتين وعلى بعد ثمانية أميال الى جنوب الشطرة ، كان سلك البرقيات قد قطع وعدة أعمدة كانت قد أسقطت ٠ وهذا ما قطع الاتصال بيني وبين الناصريه الا بواسطة الساعي ٠ كانت مسافة السفرة أربع وعشرين ميلا كل طريق ، يتطلب يومين على الاقل لانجاز المهمة ، والانسان يشعر بالعجز اضافة الى انقطاعه عن العالم الخارجي ، لقد أخذ شيوخي على عاتقهم تهيئة السعاة ، ولذا فقد كنت أعمل صورة طبق الأصل لكل رسالة مهمة ؟ وفي هذا اتخذت صديقي القديم حجي ألماس مساعدا وهو رجل قوي مخلص وقد رفعته الى وظيفة أعلى في البلدية ٠

أذكر جيداً لقائي الأول بالحجي الجذاب ولم أحلم بأن تصل علاقتنا الى ما وصلت اليه حاليا • لقد كان بمناسبة تعييني الاول في الشطرة • خادمي ابلغني في الفطور ان أحد الوجهاء جاء يدعوني • فأشرت اليه أن يدعه يدخل الى دائرتي وينتظر مجيئي ، ولكن « فراشي » التفت ثائرا مترفزا ومفترضا ان لا شيء غير اعتيادي اذا استقبلت رجلا فاضلا في دائرتي الخاصة • وهكذا رأيت الحجي في الطابق العلوي • كان رجلا من المدينة ، كبيرا ، وبدينا ، شاحبا ورقيقا ، شخصية ضخمة « بعباءة » جوزية ، و « عقال » صوفي ثقيل ، وبمجرد أن دخل وقف وأغلق الباب • طبيعته وخطوط الطبيعة بدت منحرفة ، وبعد حين أحسست ان جسما غريبا يختفي تحت انتفاخ عباءته ، نهضت لارحب به في الحين الذي بدأ يتكلم بكلمات الترحيب ، وقال بأنه شعر بأن المناسبة تستدعي أن يترجم عواطف الناس في الشطرة • لقد كانت عواطف حارة • كان الناس سعداء ويباركون وصولي وهو نفسه كذلك خادمي المتواضع ، قد جلب بكل احترام وتقدير شيئا أخرجه من بين ثنيات عباءته وكان ضخما ومزخرفا ، لقد كانت ساعة من نوع الهدايا التي تحتل مكانا وسطا فوق رف الموقد • قلت له .

« من أي نوع أنت ؟ »

ودعوته للجلوس على المقعد • وقلت :

« ولكن يجب ان تقدر بأن الحكومة لم تسمح لي بأن أقبل مثل هذه الهدية الثمينة » •

لقد أربكني فعلا أن تقال فيّ هذه الكلمات المثيرة في التقدير والاحترام • بعد أربع وعشرين ساعة من وصولي ، لم تكن عيوني قد وقعت على حجي الماس سابقا ، ولهذا فكرت بأنه من الممكن أن تكون اجراءات معتادة في السابق في أيام الاتراك • كان الباعث الاول هو أنهم

ظنوا انني سهل لانقياد لهذا النوع من الاشياء ، وخفت أن أريه ذلـك بقولي . « كضابط بريطاني ، حجي ، يجب أن أخبرك بأننا نشتري أي ساعة نحتاجها ، ولا استطيع قبول هديتك » .

فأجاب : « ما تقبلها صاحب ! » قال ذلك بشك واستمر « انه شيء مخجل كثيرا بالنسبة لي ، لا استطيع ارجاعها ، واذا لم تدعني أتركها هنا فيجب أن أرميها خارج الشرفة الى ساحة البيت وأحطمها الى قطع » .

قلت معترضاً : « يا حجي ، أنا رجل سلام وأريد أن نكون أصدقاء ، ولهذا يجب أن تأخذ هديتك وتذهب » .

فقال : « غير ممكن ، اذا لم تستطع ان تقبلها فيجب أن أحطمها » .

رددت عليه ووقفت : « حجي الماس ، يجب الا تعمـل فوضى في ساحة داري ، اذا رميتها فسوف تجبرني أن أرميك مكرها وراءها » .

عند ذلك غير حجي الماس من تفكيره وقال بأنه يدلل على تقـديره المتحمس ويجعله فوق كل الاشياء من أجل السلام والامان . ولذلك أرجع الساعة الرخامية الى الظل تحت عباءته واسـتدار الى الخلف الى البـاب الخارجي ، ابتسم ابتسامة باهتة ، وذهب .

أخيراً وبعد اسبوع قدرت معنى تلكم الايماءة . أحد واجباتي كان هو أن أعلن وأؤكد على ضرائب البلدية . لقـد قطعت عمومـاً للتجـار الاهليين الذين كانوا فيما بينهم يتنافسون في مجادلات المزاد العلني . انـه من واجبي « أن أصارع » الحقول الواسعة ، من بين المزايدين العنيدين كان حجي ألماس . كان من عادته دائما أن يمسك ببستان حكومي واحد ، ويحاول جعل آخر من حصته ، وهذا تحت مطرقتي ولهذا فقـد ربحـه والسبب حصوله عليه هو أنه أكبر مزايد ، ولم تأتني ساعات رخامية خلال خدمتي في الشطرة .

وفي السنتين الاخيرتين في وقت المشاكل ، كان حجي ألماس وفيا للدولة ، لقد جلب لي الاخبار من السوق ، من الجموع ، ومما يقال أو يفكر به بينهم ، أخبار النشاطات للرجال الميالين للمشاكل الذين يتصلون بمراكز القيادة للثوار ، الرجال الذين كانوا ناضجين للتمرد بمجرد سنوح الفرصة ومن الاجتماعات العامة التي بقيت صداقية . ولكن الموقف في الشطرة لا يبعث على الارتياح كثير من المعلومات يجب ان تصفى تلكم التي يقصد بها التسلية . وهذا ما دفعني الى الوراء الى الاحتمالات المنطقية ، ان سقوط قلعة سكر أنفض من حصتنا ، كانت هنالك فرصة واحدة لرد الاعتبار وهي اذا استطعت تحريك الغراف مع أصدقائي النموذجيين واحتلال المكان ، ولهذا سألت كابتن هول الذي كان آمر مجموعات المجندين في المنتفك عندما أرسل الي . مع هول افترقت في الشطرة على ان ابقي العلم مرفرفا ، لقد فكرت بأن أعمل التحرك للامام مع مائة من الاصدقاء على أمل ان الدفاع الجيد هو الهجوم ، وبهذا المعنى أوقف تضاءل فرصنا . وفي أثناء ذلك كان شيوخ قلعة سكر ومائة أو مائتان من الاصدقاء والتابعين اندفعوا الى الشطرة ، وكما يبدو أن ذلك ايمائة منهم لأعطائي العهد بالنجاح لخطتي . في الواقع ـ على أية حال ـ وكما اكتشفت في الايام التالية ان وصولهم ليس بهدف الصداقة ، لقد جاءوا بتأثير دعوة من أحد الاهالي المسمى « سيد » لغرض مختلف تماما ، أعني لترتيب توحيد العمل مع قبائل الشطرة في زحف جريء وجسور على الناصرية . ان مثل هذا الاتحاد لا يصمد أمامه موقعنا العسكري الصغير ، انه اتحاد القبائل لساعة الصفر . خيون لعن هذه المؤامرة باطراء ضعيف ، لقد تعهد باسناده فقط عندما تسقط الناصرية ، ولهذا لم تتخذ قبائل الشطرة موقفا واضحا ، ولهذا فشلت المؤامرة .

« الاسبوع السابع » :

لقد وصل هول وكان شيئا مريحا جدا أن يكون هناك انكليزي آخر

في هذا المكان • العيش منفردا خلال الاسابيع الماضية يشكل اجتهادا • بقطر مئتي ميـل الى شماله الغربي امتـد لهيب العصيان ، ان التوقعات الصعبـة لتطورات مفاجئة في أي لحظة في الشطرة نفسها ، وان تعيش اسبوعا تقريبا من دون تلفون لتتصل بالناصرية والعالم الخارجي والاعتمـاد فقط على « السعاة » الذين من المحتمل في أي وقت أن يبرهن أحـدهم على عدم جدارته بالثقة أو الاعتماد عليه •

ان عملنا الاول هو فتح صناديق القنابل التي أرسلها هول نفسـه مغلقة كصناديق البيرة من الخارج ابتعادا عن المشاكل ، لقد كانت للاسباب السابقة والمتفرقة وللامان تركنا القنابل جاهزة وبعد ذلك احتفظنا بهـا في أسرّة مخيمنا في السطح الذي كان مكانا رومانتيكيا لاسرة المتزوجين •

بعد ذلك بيوم أو يومين ذهب هول الى الناصرية بالزورق مع تقاريري حول تغيرات الموقف في الغراف ، وليجلب لنا بعض الذخائر ، وقد وقـع في كمين وهو في طريق العودة ، اذ انقلبت السيارة فجأة عند نهاية الطريق قرب الجسر في نهاية مميتة ، وهنا أبعدت عنه تلك البنـادق من مكانـه • ثلاثون رجلا فقط أكملوا التمرد ، قفزوا فجأة وغطوه وغطوا السـائق ببنادقهم (ذات اللولة) ، وللعناية الآلهية ، شيخ خفاجة كان في المقعـد الخلفي للسيارة ، تدخل فأنقذ الموقف السخيف وارتجت السيارة فرجـع قسم هول الى الخلف واستطاع الشيخ أن يمسك برئيس المهاجمين ويأتي به اليّ في الشطرة •

أحد تجار الشطرة الصغار ، كان من المتمردين المشهورين . كان في قعر هذه القضية • وفي الليلة التالية أرسل رسالة الى عناصر التمرد في خفاجة حول فقدان القانون والنظام وأخباراً عن انتفاضة الشطرة بقيادةخيون وهول وانا الآن سجينان بأيدي العرب ، بالاضافة الى ذلك حطم الشباب أعمدة

البرقيات لمسافة خمسة أميال وقد ضموا الجسور على طول قناة الشطرة الى غاية النار • في غضون الايام اللاحقة كانت الاسلاك والطرق التي ترتبط بالشطرة قد قطعت ، وسبيلنا الى الهرب ـ اذا وصل الحال الى ذلك ـ قد انحصر بأن نهرب متخفين في الليل أو بواسطة طائرة • ولكن الامور لم تصل الى ذلك الحد ، ان التمردات المتقطعة من هذا النوع لم تكن مرعبة للحد الذي وصلت اليه ، وظهر الآن في هذا الموقف • ابن رئيس المجتهدين[٤٦] كتب بأنه على بعد عشرين ميلا شمالا وهو يتقدم الى الشطرة ، داعيا الى الجهاد ، لقد لقيت تلك البشارة وللاسف نجاحا كثيرا على طول الفرات وهي تملك امكانات الانتشار بشكل مزعج ، عندما وصل « مومن »[٤٧] مغمور من قلعة سكر الى الشطرة قبل أربعة ليال في قضية مشابهة ولكنه بقي صامتا ، لقد خفت من أن يتأثر الشيخ خيون بهذه المؤثرات ، ولكن الزيارة الغامضة كانت تحت غطاء من نوع آخر ، كرعاية مسجد مثلا ، وهو كان أمام مسجد كان من الممكن أن يعمل فوضى أسوأ من الارتباك ، « أسقف » أعلى جديد نصب حديثا في النجف[٤٨] ، انه يمثل الكثير جدا وان يكن عاملا محليا حاسما ، وبغداد وان كتبت عن الموقف « موقفه ، فسوف يقولون انه يميل الى جانب المتطرفين • والشيوخ الذين نصبتهم ليكونوا قوتي وسندي ، أظهروا علامات التردد • لابد أن تكون هناك خيانة أو غدر ، كما أشعر ، اذا أكتسح هؤلاء بالاعتبارات « مراعاة لمشاعر الآخرين » وقاية أنفسهم الى المعسكر الآخر ، ومن حسن حظنا كان وصول انحسارهم ، ولم تكن هناك اشارة الى خروج بندقية من مخازننا ، والحقيقة ان وصول الانحسار بات وشيكا ، بالرغم من اولئك الشيوخ الذين كانوا يقفون بأماكنهم بنفوذ كاف لمجرد أن أبقى معلقا هنا ، من الحسن أن تبقى العاصفة تصرف نفسها حول الشطرة من أن تحرر وترمي بنفسها ضد الناصرية بحاميتها البائسة وسكة حديدها غير المحمية •

في الفرات الاوسط الحكومة منسحبة تماما ، والقبائل العربية هناك كانت مهتاجة بالنجاحات أخبارها كلها قلما تكف أو تضعف عن تشجيع العناصر المحلية عن الشغب . وسقوط موقع البريطانيين في « الخضر »(٤٩) القريبة جدا من الناصرية في هذا الوقت كان الالماعة الاخيرة ، من المؤكد ان وقت الشطرة قد صار قريبا .

الاستياء ظهر في قواتي ، سوارز وبوليك كتبوا الي بأن أراهن على بنادقهم بـ (٣٠) ثلاثين باون للقطعة اشارة الى نجاح العرب في تلك الاوقات مقابل سقوط الحكومة ـ كان ذلك في أحدى الليالي عندما أصبح الأغراء قويا ، والأخطاء بدت بالظهور ، عشرة رجال فرّوا بالحقائب والامتعة . هول وأنا نزلنا الى السراي في الصباح المبكر ، كان هناك استعراض ، وجردنا العشرين الآخرين من الاسلحة وجلبنا البنادق معنا الى بيتي ، ثم وضعت القوة تحت امرة خيون وجعلته مسؤولا عن القانون والاوامر في المدينة ـ خطوة مؤسفة ـ ولكن المرء مطالب بها في موقف محفوف بالمخاطر ، مئتا شاب كانوا يتجمعون أمام بيتي يوميا ويتظاهرون ، القبائل كانت تحمل السلاح ثانية ، « المومنين » كانوا يتحركون هنا وهناك وبينهم دعاة الجهاد ، واطلاق رصاص البنادق كان يسمع خلال الليل داخل وخارج جدران المدينة أصبح أمرا اعتياديا .

لقد حاولت الوقوف للامساك بالسلطة ، خيون ما زال مشاوري وصديقي ، أكد لي ذلك ، طالما كنت في الشطرة فكل شخص سيحترم علمي وشخصي ، ولكن كان من الواضح لدي أن حضوري كان يسبب ارباكاً واحراجاً لكل أصدقائي القدماء . العاصفة بدأت تنمو وتكبر ، وبدأت تهدد بالخطر ، وعندما تنفجر فليس من الممكن أن تستطيع محالفاتي من الوقوف ضدها ، على أية حال فان فكرة بقائي منتظرا التطورات

ـ ويمكن القول ـ في موقف لا أستطيع السيطرة عليه كان لا يحتمـــل
بالنسبة لي •

الامور تسير بعجلة للقمة • وبعد يومين في ٢٥ آب جاءت دعـــوة الجهاد ـ العالم ـ الكبير دعا اليها (كالقديس) ، شخص يلبس البيـاض وبعمامة من نفس اللون وبحجم أسقفي[٥٠] • لقـــد دعـا المتمردين الى اسقاط الغراف وعنـد وصوله خرجت المدينة كلها لتقابله ، مظاهرة كبيرة بالاعلام أخذت مكانها خارج بيتي ، اطلاق النار من السطوح تحية لمقدمه الى المدينة ، ومجموعة من الشيوخ جاءوا ليملي عليهم الاوامر الحازمـة بجلب لقبائل •

المكان كان بجلاء حار جدا ولا يحتمل بقاءنا مدة أطول لقد قررت النزوح عن هذا المكان اذا كان ذلك ممكنا • رسالة أس • أو • أس كانت قد أرسلت سرا الى الناصرية لسؤال بغداد عن الخطط ولكنها كانت تعني شيئا واحدا هو كيفية انقاذنا من المصاعب الحالية •

أولا : أن أرض الهبوط تبعد حوالي نصف ميل خارجاً في الجانب الآخر من النهر خلف جدران المدينة ؟ ومشينا الى هناك من بين الجموع التي من المحتمل أن يكون متعصبوها يمكثون بانتظارنا •

ثانيا : اذا نزلنا الى الماكنة (الزورق) بشكل فردي ، فان تغيير الجو سوف لن يكون جيدا بالنسبة لصحة هول ولا لي أنا •

أرسلت الى خيون وأخبرتـه بخططي السرية ، وشكرته لاخلاصه الحقيقي للحكومة وأكدت له ان الناس سيكوتون في وقت ما ممتنين له لبعد نظره وتخليصه الشطرة من غضب الانتقام ، انتقـام الجيش الذي سيمتد عبر العراق ، حفظ القانون والاوامر ، ومعاقبة الشريرين ؟ وعهدت بالدائرة التي سأتركها اليه •

لقد كان صباح يوم ٢٧ ، كان أزيز الطائرات المحلقة فوق المنطقة .
كن صوتا مرحبا به من اثنين من الانكليز ، ان العمل الفوري الآن هــو
اخراج الرصاص من كل البنادق في البيت والمتفجرات من القنابل . ولـم
تمض لحظات على طمرها حتى وصل خيون مصطحبا معه كل شــيوخ
الشطرة المخلصين . ما زالت الطائرتان تحلقان فوق بيتي على علو كبـير
ويرصدون التمرد الذي سيمنعهم من النزول ، اذا كانت هناك أية اشارة
لوجود الاعداء ، ولكن كان لابد من الذهاب الى الناصرية . لم يكن هنالك
وقت لنضيعه في اظهار أنفسنا .

هول وأنا خرجنا يتبعنا الشيوخ وحشد كبير . وهكذا مررنا في موكب
مهيب على طول النهر وعبره ، نحن الان في طريقنا الى ساحة هبـــوط
الطائرات فيما وراء المدينة ، لم يكن هناك تجمع أو تظاهر من أي نوع ،
ولم تكن هنالك أيــة اشارة لعــدم الاحترام ، ولكن كان الصمت المهيب
يخيم على الجميع .. لقد كان الخروج .

واحدة من الطائرات حطت والطيار بقي في الركن المخصص له في
الطائرة بحذر ، ونبرات دقات ، دعاماتها كانت تسمع بوضوح . قلت له :
« ليس هنالك خطر ، يجب أن تنزل وتتعرف على الشيوخ » وكان ذلك
تشجيعا للطائرة الثانية التي كانت تدور حولنا ، استنادا الى الخطة في حالة
حدوث أي شغب ، لتنزل وتأخذ مكانها .

لقد قررت بأننــا يجب ألا نتعجل في الوداع ، ولهــذا بقينــا جميعاً
نتحدث لمدة خمس دقائق بغير تكلف ، وبجذل . وكنت أتساءل فيما اذا لم
أكن قد عملت عملا سيئاً في تركي الوظيفة ، لقد رأيت أن بامكاني أن أقر
السلام ، ولكني قرأت الرسالة التي جلبها لي الطيار من رئيسي في بغــداد
مرة ثانية ، ونصها :

• طائرتان هنا لاجلائكما أنتما الاثنين الى الناصرية ، يجب أن تترك الشطرة مباشرة ، بالطائرة ، لا تغير في الحالات اللاحقة لرسالتك الاساسية بواسطة الضابط السياسي ، لغرض اجلائك سوف يكون من علي وهو خير من بقائك ، وهذا يجب أن يعتبر من قبلك واضحا • وأمر نهائي لترك الشطرة » •

لقد تكلمت قليلا مع العرب المحتشدين وقلت لهم : « بأنني سوف أعود اليهم » كحاكمهم ، بمجرد أن تسمح الاوامر والقانون ، والتي لن تأخر بالعود ، وأثناء ذلك سأترك زمام الامور والدائرة بيد الشيخ خيون •

لقد حفظت كلماتي معهم كما حفظوا كلماتهم معي •

كان صوت المحركات والمكائن وهبة ريح قوية على وجوهنا كأن الطائرة تسابق بجنون للامام وتتسلق الهواء •

ولم يدم ذلك طويلا حتى نزلنا في المطار بالناصرية ، وبمجرد ان نزلت بين البدلات العسكرية المألوفة للجنود البريطانيين ، خرج من رأسي هم وقلق كبير ، بعد ساعة وجدتني أقف أمام خارطة وأشرح الموقف لقائد الفرقة الذي انتظرناه طويلا ، وأخيرا وصل • لقد أصبحت ضابط استخبارات أولا للواء ٧٤ ، ثم كثيرا وكثيرا من الجنود جاؤوا للفرقة السادسة •

لقد كان مدنا في تحسن ، القبائل المخطئة استسلمت . غضب وعصيان بلاد ما بين النهرين أنهى نفسه ، وقبائل المنتفك أعلنت توبتها لتعيش بسعادة ولتتخلص من تلك السمعة الشريرة للثورة • لم ينتفضوا ضدنا • من المحتمل بعدهم عن التأثيرات التعصبية للمدن الدينية ، كان هو المسؤول عن ذلك • وبالتأكيد هم ربحوا على الأقل من نهر الذهب الذي جرى متقطعاً من الخزينة البريطانية الى أيدي الساخطين عن طريق سوريا •

ستة اشهر ثم رجعت الى الشطرة ضابطاً سياسياً للغراف ، اضافة الى منطقة قلعة سكر التي أضيفت الى واجباتي . وهناك بقيت أسعد ستة أشهر في حياتي ثم تركت فراغي . وقسمت متعتي بين متعة الضابط الانكليزي الوحيد بين مجموعة من الكلاب الطويلة والانغماس في حماس هواية البحث عن الآثار . لقد هجرت القبائل السيف ثانية الى المحاريث ، وشيوخي رأوا بأنني من غير الممكن أن أكون بغير فؤوس سرية للحفر في خرائب المدن للامة القديمة .

وأتى اليوم الذي يجب أن أغادر فيه محبوبتي الشطرة ، لقد نقلت . وفي عشية رحيلي دعيت الى حفلة بحديقة ، لقد وجدت المكان غاصا بالشيوخ ووجهاء البلد . لقد كانت حفلة وداع .

قالوا عندما كنت متهيئاً للرحيل :

« هنالك شيء نريد أن نهديه لك ، انه سيف ، انه السيف الذي قادنا الى معركة البطنجة[٥١] .

لقد كان ذلك السيف شيئاً نفيساً بالنسبة لي ، يعيد وفاء واخلاصاً قديما لا ينسى .

هوامش المغامرة الثانية

(١) تكونت « جمعية الاتحاد والترقي » في الروملي بسلانيك سنة ١٩٠٨، لتحارب الفساد الذي استشرى في الامبراطورية العثمانية آنذاك ، وقد أسهم في تكوينها الأتراك والعرب وسائر أبناء الأقوام الاخرى على حد سواء ، ثم انتقل مركز الجمعية الى استانبول ، وفتحت لها فروعاً في معظم البلاد العثمانية المعروفة ، فمنها في العراق ببغداد الحلة والنجف والبصرة والموصل ، فلما زاغت هذه الجمعية عن أهدافها في « الحرية والعدالة والمساوات » تألف « حزب الحرية والائتلاف » في ٨ تشرين الثاني ١٩١١ ليخفف من غلواء الاتحاد والترقي ·
انظر / الحسني : تاريخ الاحزاب السياسية العراقية ص٧ ·

(٢) هذه وغيرها مما سيرد ، محاولات عمدت السلطات البريطانية من خلالها لاخفاء أخبار نجاح ثورة الشريف حسين في العراق أو التقليل من شأنها ، وكان هدفها من ذلك اخماد روح الاستقلال بين السكان العرب المحليين ·

" Lawrence T.E, Seven Pillars of Wisdom, Nuy 1938 P. 60"

ولكن أغلب المشتغلين بالحركة الوطنية العراقية كان يعدون شرفاء مكة أبطالا قوميين يصلحون لقيادة البلاد العربية نحو الاستقلال · وقد وصلت ثقة معظم العراقيين ، وخاصة في بغداد والفرات الأوسط ، بهؤلاء الشرفاء درجة أصبح معها ترشيح أحد أبناء الشريف حسين لعرش العراق مقبولاً ·
« د· عبدالله فياض : الثورة العراقية الكبرى ٢٤٨ » ·

(٣) لما اتفق الملك حسين بن علي مع الحكومة البريطانية للوقوف أمام السلطة العثمانية ومساندة الحلفاء ، خافت فرنسا من أن تضيع عليها مطامعها في الشرق العربي ، فعقدت اتفاقية سرية بينها وبين بريطانيا في ١٥ ـ ١٧ مايس ١٩١٦ ، وقع عليها السير مارك سايكس باسم الحكومة البريطانية ، ومسيو جورج بيكو باسم الحكومة الفرنسية ، ونصت هذه الاتفاقية على تجزئة البلاد العربية التي كان الملك حسين يجاهد في سبيل وحدتها ، وتقسيمها الى المناطق الخمس التالية :

١ ـ المنطقة الحمراء : تكون تحت ادارة الحكومة البريطانية المباشرة وتشمل ولايتي البصرة وبغداد من العراق ، وثغري حيفا وعكا من سوريا الجنوبية ·

٢ ـ المنطقة الزرقاء : تكون تحت ادارة الحكومة الفرنسية المباشرة وتشمـل على كليكية وجـزءاً من الاناضول وقطعة مـن سـوريا الغربية ٠

٣ ـ منطقة (A) : تكون جزءاً من دولة عربية تشكل تحت الحماية الفرنسية وتشمل ولايات دمشق والشام وحلب والموصـل ، فيكون لفرنسا حق الأفضلية في المشروعات والقروض المحليـة وتقديم المستشارين والموظفين الأجانب لها ٠

٤ ـ منطقة (B) : تكون جزءاً من دولة عربية تشكل تحت الحماية الانكليزية وتشـمل الأراضي الواقعة بـين فلسطين والعراق والمسماة « شـرق الأردن » فيكون لبريطانيا حـق الأفضلية في المشروعات والقروض المحلية وتقـديم المستشارين والموظفـين الاجانب لهـا ٠

٥ ـ المنطقة السمراء : تكون تحت ادارة دولية : وتشـمل القسـم الجنوبي من سوريا أي فلسطين ، ان تستشـار روسيا في نوع هذه الادارة ويتفق عليها مع باقي الحلفاء والملك حسين ٠

(٤) أرادت بريطانيا ان تكافيء اليهود الذيـن خدموها خدمات جليلة في الحرب العظمى ، وأهم تلك الخـدمات الدور الذي لعبوه في ادخـال الولايات المتحدة الامريكية في الحرب الى جانب الحلفاء ، فكتب اللورد بلفور وزير خارجية بريطانيا في اليوم الثاني من تشرين الثاني سنة ١٩١٧ الكتاب التالي الى اللورد روتشيلد زعيم القضية الصهيونية :

عزيزي اللورد روتشيلد :

يسرني أعظم السرور ان اوجه اليكم باسم الحكومة البريطانية التصريح الآتي بالعطف على الأماني الصهيونية اليهودية وهو تصريح عرض على الحكومة البريطانية وأقرته ، وهو :

ان حكومـة جلالته تنظر بعـين العطف الى انشاء وطـن قومي للشعب اليهودي في فلسطين ، وسوف تبـذل ما في وسـعها لتحقيق هذه الغاية ، ومن المفهوم انه لن يُعمَلَ بشيء قد يضر بالحقـوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية الموجودة في فلسـطين ولا بالحقوق السياسية التي يتمتع بها اليهود في أي بلد آخر ٠

بلفور

وزير الخارجية البريطانية

(٥) الجنرال اللنبي : قائد الجيوش الحليفة خلال الحرب العالمية الاولى في جبهة فلسطين وسورية ٠

(٦) حزب العهد العراقي : تأسس خلال الحرب العالمية الاولى وأهدافه :

أ ـ استقلال العراق استقلالاً تاماً ضمن الوحدة العربية وداخل حدوده الطبيعية ٠

ب ـ طلب المساعدة الفنية والاقتصادية من بريطانية العظمى على أن تكون هذه المساعدة بالثمن وان لا تمس استقلال العراق التام٠

ج ـ انهاض الشعب العراقي ليباري أرقى الامم الغربية ٠

د ـ السعي لخير الأمة العربية عامة ٠

« امين سعيد : الثورة العربية الكبرى ٢ : ٢١ » ٠

(٧) ان هذه التعابير وغيرها شاعت على ألسنة المستعمرين وذاعت في كتبهم ، وهم يقصدون بها التشفي والتقليل من شأن رجال الثورة الأبطال الأشاوس ٠ ولكن هيهات !!

(٨) لا يفتأ الانكليز يضربون على هذا الوتر في كل فرصة ، يضاف الى ذلك ان الذين قاموا بمناوئة الانكليز في الحركة الوطنية كانوا من الفريقين ، بعد أن تعاهدوا على التكاتف والسير يداً واحدة ضد العدو المحتل ، مما أقلق الانكليز وأقضى مضجعهم ، كما يفهم مما ذكره توماس في مواضع عديدة من هذه المذكرات ، ولو ألقى القارىء نظرة بسيطة على أسماء العاملين في الحركة الوطنية ببغداد ، ولاحظ اندلاع الثورة في الفرات الأوسط بقيادة العتبات المقدسة لأيقن بطلان هـــذا القـول ٠٠

(٩) يقول الشيخ محمد رضا الشبيبي عن الدولة الجديدة التي قامت في العراق بعد الثورة انها « مستقلة ذات سيادة في الظاهر ، ولكنها لم تكن كذلك في الواقع ، فالاستقلال كان استقلالاً ملوثاً أو ناقصاً نقصاً فاضحاً ، بل كان الحكم ثنائياً بين الانكليز وبين فريق من صنايعهم واعوانهم في غالب الأحيان ، وكان الغنم للسلطة البريطانية ، وصنايعها والغرم على الشعب العراقي ، واتضح لهذا الشعب الكريم ان هناك خطة استعمارية مرسومة اعتبرت الثورة العراقية الكبرى بموجبها جريمة منكرة وحركة مضادة لمظاهر التقدم والحضارة ، وصرح بذلك مع بالغ الأسف ـ أكثر من واحد من المحسوبين على السياسة من أبناء العراق ، وهكذا عوقبت المنطقة الثائرة كلها بالحرمان » ٠

(« فقيدنا الكبير » ج الأيام ع ١٢٤ في ١٩٦٢/٩/١٠) ٠

واورد د· عبدالله في كتابه الثورة العراقية الكبرى ص٣٦٢ ـ ٣٦٥ مجموعة من الآراء التي تتفق في ان الثورة لم تحقق هدفها الكبير كما رسم الثوار ·

(١٠) بعد تتويج الملك فيصل على العراق سنة ١٩٢١ أنشأ جعفر أبو التمن مع عدد من صحبه حزب حرس الاستقلال السري ، وتزعم ابو التمن هذا الحزب وبدأ يجمع صفوف أبناء الشعب لمقارعة الانكليز وطردهم وتخليص الوطن من أرجاسهم · « ج المستقبل البغدادية س ٣ ع ٦٠٥ في ٢١/١١/١٩٦٢ » ·

(١١) كانت أول وزارة تشكلت في الحكم الوطني بعد ثورة العشرين هي الوزارة النقيبية الاولى في ٢٥ تشرين الاول ١٩٢٠ ، وكان الفريق الأول جعفر العسكري وزيراً للدفاع الوطني فيها · وبدأ أحرار العراق ورجاله يعودون الى القطر من كل صوب وحدب ، وعاد قسم كبير من الضباط الذين اشتركوا في الثورة العربية ، وقد قررت الوزارة تأسيس جيش عراقي ليكون دليلاً من دلائل الاستقلال ، وتم تشكيل الجيش العراقي في ٦ كانون الثاني ١٩٢١ ·

(١٢) يشير الى البلاغ الانكلو فرنسي والذي تنص احدى فقراته :
« ··· واننا نرغب بصورة خاصة أن تقدموا إلينا بياناً موثوقاً عن وجهة نظر السكان المحليين في مختلف المناطق حول الأمور المعينة فيما يلي :

١ ـ هل يرغبون في دولة عربية واحدة ، تحت الوصاية البريطانية تمتد من الحدود الشمالية لولاية الموصل حتى الخليج (العربي)؟
٢ ـ هل يرغبون ، في هذه الحالة ، في رئيس عربي بالاسم ، يرأس هذه الدولة الجديدة ؟ ·
٣ ـ من هو الرئيس الذي يريدونه في هذه الحالة ؟

" A.T. Wilson, A. Clash of Loyalties P. 110 — 111. ,,

(١٣) بعد اندحار الأتراك أمام جيوش الحلفاء قبيل نهاية الحرب العالمية الاولى ، تأسست الادارة الفيصلية في سورية · وقد أسهم جماعة من العراقيين في ادارة حكومة فيصل هذه ، ويظهر ان العراقيين الموظفين في حكومة سورية استفادوا من مراكزهم المهمة في تلك الحكومة ، فأخذوا يعملون على إدارة الحركات الوطنية الرامية لانقاذ أجزاء من وطنهم من ايدي السلطات البريطانية التي كانت تسيطر على العراق حينذاك ·

« انظر د· عبدالله فياض · ن م ٢٥٠ » ·

(١٤) للثورة المصرية أثر كبير في تشجيع العراقيين على الثورة ضد البريطانيين ، قوى عزائمهم فأخذوا يستخفون بالانكليز وبمقدرتهم الحربية ، وبهذا انتعشت الروح الوطنية انتعاشاً هائلاً ٠٠
« محمد طاهر العمري : مقدرات العراق السياسية ٣ : ٩٩ » ٠

(١٥) الكولونيل جيرالد ايڤيلين لچمن ، قتله الشيخ ضاري المحمود في خان النقطة في أحداث ثورة العشرين ، في ١٢ آب ١٩٢٠ عن عمر يناهز الأربعين عاماً ٠ وكان وقتئذ يشغل منصب الحاكم السياسي للواء الدليم ٠
« للمزيد من التفاصيل انظر : الشيخ ضاري قاتل الكولونيل لچمن للعلوجي والحجية ط بغداد ١٩٦٨ » ٠

(١٦) الميجر صون : الحاكم السياسي للواء السليمانية عام ١٩١٩ ٠

(١٧) في ليلة ٦ رمضان ١٣٣٨هـ / ٢١ أيار ١٩٢٠ كانت حفلة المولد المعتادة مقامة في جامع الحيدر خانة فتكلم فيها كل من جميل رمزي وعبدالرحمن البناء وعبدالرحمن خضر ومصطفى الطرابلسي ومحمد مهدي البصير ، ثم انبرى أحد موظفي دائرة الاوقاف « عيسى عبدالقادر » وألقى قصيدة حماسية الهبت مشاعر السامعين فقبضت السلطة عليه في الحال ، وابعدته الى البصرة في صباح اليوم التالي ٠ فعد الوطنيون هذا الابعاد تحدياً لشعور الجمهور ، فقرروا إقامة مظاهرات صاخبة احتجاجاً على هذا التحدي بعد ان أغلق الناس حوانيتهم واتجهوا نحو مقرات التجمع « بحيث أصبح من العسير على الانكليز الخروج الى أسواق بغداد في وضح النهار » وتقرر ندب خمسة عشر من المواطنين لمفاوضة الحكومة المحتلة في قضية البلاد الرئيسية ٠
« الحسني : ن ٠ م ص٨٩ » ٠

(١٨) هو الكابتن ميد ، وقد تعين فيها بتاريخ ١٩٢٠/٤/٤ ٠

(١٩) يقطن قسم منهم بين الشطرة والناصرية ، وقسم آخر على ضفاف نهر الفرات الجنوبية على بعد ثلاثة أرباع الساعة عن سوق الشيوخ ويقدر عدد افراد هذا القسم بحوالي مائتي نسمة ٠
« انظر : العشائر العراقية : ١٣٥ » ٠

(٢٠) عشيرة مهمة تؤلف جزءاً من اتحاد عشائر المنتفق ، لكنها تميل الى الدعوة والمطالبة بالاستقلال الكامل ، وهم عشيرة متوطنة يشتغل معظم أفرادها بالزراعة ٠ ويعرف رجالها بالقدرة على القتال وشدة البأس ٠

وهي تسكن الجهة الغربية من الشطرة على ذنائب الغراف ، ويقدر عدد أفرادها بـ ٣٫٥٠٠ نسمة . ويرأسها خيون العبيد ومسكنه في « الصديفة » التي تقع الى الشرق من الشطرة وفي « الحادي » على ربع ساعة من الشطرة . وفي الصديفة ما يقارب من ١٥٠ فلاحاً يتبعونه في الراية .

« الطاهر : العشائر العراقية ١٦٤-١٦٦ عن تقرير سري بريطاني

(٢١) صلات العبودة بخفاجة سيئة بسبب ما بينها من عداء تقليدي قديم. وبما أن خفاجة والعبودة عشيرتان متقاربتان في السكنى ويشكلان تجمعاً عشائرياً كبيراً لهذا كان الانكليز يخشون من توحدهما – وهذا بعض من نوايا السياسة البريطانية – التي تهدف الى تحقيق « فرق تسد » .

(٢٢) كان من جملة الدوافع التي دفعت بريطانيا الى الدخول في الحرب العظمى هو سبب وجوب المحافظة على سلامة الهند تاج المملكة البريطانية اللماع ، فكان احتلال العراق لغرض بقاء السيطرة عليه ، والاستفادة من نفطه وامتلاك قسم من أراضيه ومد سكة حديد بصرة – بغداد ، بغداد – خانقين لتأمين طريق الهند .

(٢٣) إشارة الى اعتقاد بعض الشيوخ من كبار السن – وهذه ظاهرة منتشرة يومذاك – بأن من يقول أصل المطر من البخار ، وان الأرض كروية وغيرها فهو كافر .

(٢٤) ناحية تابعة لقضاء الرفاعي ، محافظة ذي قار .
وقد سميت باسم الحاج سكر رئيس عشيرة آل حميد أيام السلطات العثمانية ، سميت منذ عام ١٨٦٠م تقريباً .
« العشائر العراقية ١٩٣ عن تقرير بريطاني سري » .

(٢٥) ما أسرع انحسار الحقيقة عن وجهها ، ونصول الصبغ وسقوط البراقع ، أليس هم الذين قالوا « جئنا محررين لا فاتحين » ؟!

(٢٦) وهم الكولونيل هاول ، والكابتن جسيمان ، وغوردون ولكر ، والكابتن هول ،وديكسون ، وعلي المنصور ، وصكبان العلي ، وويس ، والكابتن ماكنتوش ، وصالح الداغر – الابراهيم ومحرر بن سعيد – بني سعيد ، وعبدالعالي الطربوش – خفاجة ، مع ٧٥ رجلاً من السوارية – في صبيحة يوم ٢٤ نيسان ١٩١٨ (يذكر توماس انها في حزيران ١٩١٨) فوصلوا الشطرة في مساء اليوم نفسه ، واستأنفوا السفر في يوم ٢٦ بالسفن في نهر الشطرة

حتى ملتقى البدعة ومنها الى الغراف · أمضى الفريق الليلة في ضيافة سيد حسن ، الواقعة داره على بعد ١٠ أميال من الكرادي ، والتقى بفريق قادم من الكوت على الباخرة يضم الكابتن ولسن الحاكم السياسي في الكوت ، وكيرك مساعد الحاكم السياسي في الحي . التحق بهم الضابط هيسون من سوق الشيوخ على ظهر سفينة حتى البدعة ... الخ .

« الطاهر : ن م ص ١٨٥ عن تقرير بريطاني سري » .

ولاشك ان جميع من كان يواجههم هؤلاء في هذه الجولات كانوا من الموالين للانكليز ، المنافقين المنتفعين بوجودهم .

(٢٧) سوق الشيوخ : كانت آنذاك بليدة يقطنها من السكان اثنى عشر ألف نسمة ، تقع على ضفة الفرات اليمنى على بعد ٢٧ ميلاً الى الجنوب الشرقي من الناصرية وموقعها بين الناصرية والحمار . واليوم هي قضاء يتبع محافظة ذي قار .

(٢٨) نموذج آخر من أساليب المستعمرين في فتح أبواب الصراع الطائفي بين أبناء الشعب الواحد ، فهو يقسم الشعب العراقي الى طوائف وطبقات ويوزعها جغرافياً على خارطة العراق كيفما يرغب ويهوى ، فيشجعها ويتمكن من تنفيذ مآربه ومخططاته .

« انظر الهامش رقم ٨ » .

(٢٩) ليس أهل المدن في العراق من السنة حصراً ، كما ان سكان الريف ليسوا من الشيعة حصراً ، ولقد دأب المستعمرون على إثارة النعرات الطائفية البغيضة واستغلالها لاضعاف وحدة الصف ، فقد قال تعالى « وان هذه امتكم امة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » إنها بدوات نلمحها بين الحين والحين في كتابات الاستعماريين ولن تضرنا لأنها أضعف من ذات خمار . وان (توماس) كما يبدو قصير النظر ، اذ ان أهل البلد الواحد . والدين الواحد اخوة متضامنون متكافلون في السراء والضراء وذو هدف واحد ، وقد كشفت عن ذلك الثورة العراقية الكبرى عام ١٩٢٠ .

(٣٠) ان الاستعماريين يحاولون تشويه الدوافع التي أدت إلى قيام الثورة العراقية وأنها شعور وطني ذاتي دفعهم للمطالبة بحقوقهم ، وانما هي بتحريض من رجال الدين وغيرهم !

والحقيقة ان الشعور كان موجوداً وطُرح فلاقى الدعم والتوجيه .

(٣١) ان اهل السنة والجماعة كاخوانهم الشيعة يكبرون الامام علياً وأولاده وأحفاده من الزهراء وغيرها إكباراً لا مراء فيه ، ودليل حبهم

لأهل البيت قولهم في كلامهم وشعائرهم « اللهم صل على سـيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد ... » .

(٣٢) الشبانة : وهم المجندون من العرب الذين تطوعوا للخدمة في دوائر السـلطات التركية للقيـام بأعمال الحراسة والخـدمة والتجسس والاشراف على السجن وواجبات الشرطة والجنود ، تحت اشـراف الاداري العثماني وقـد اطلـق عليهم فيما بعد بـ « الليفي » أيـام الاحتلال البريطاني .

(٣٣) هـكذا كانوا يسـخرون من رؤساء القبائل الذين وضعوهم تحت تصرفهم ، فهم يصفون أحدهم بانه « واحـداً مـن جنـود الله » ! وجاء بكامل بزته وسـلاحه ، وواجبه « اسـتعد واسترح » ! . وبالعكس حينما كانوا يصفون بدر الرميض ، لأن الرجـل الصامد المجاهـد يفرض احترامه حتى على عـدوه .

(٣٤) الصفران : فرع من اتحاد عشائر بني حچيم ، وهم يقطنون مـع هذا الاتحاد الضخم الذي تمتد حدوده من الدراجي على الضفتين من النهر الى ما يقرب من خمسة عشر ميلاً من مدينة السماوة ، فمن الجهة الشمالية يتوسطون المنطقة الواقعة بين الرمثة والديوانيـة برأسهم معجون الحمادي .

« الطاهر : ن م ٢٢٨ من تقرير بريطاني سري » .

(٣٥) بني سعيد : إتحاد عشائري ، وبالرغم من انه صغير الحجم فهـو يتميز بالتضامن والتكاتف أكثر من الاتحادات الاخرى في المنتفق . والمنطقة التي يشغلها واسعة كبيرة تمتـد م نالغـراف الى ذنائب قنوات دجلة في منطقة العمارة . ولم يشترك من بني سعيد أحد في حرب الشـعيبة سـنة ١٩١٥ . وفي الثورة العراقية ١٩٢٠ هبّو للقتال ضد الانكليز الا ّ أن خيون العبيد استطاع صدّهم والقضاء عليهم . ورؤسائهم : نايف المشاي وعليوي المهرج وسكر النعمـة « الطاهر : ن . م . ٢٢٤ عن تقرير بريطاني سري » .

(٣٦) ان ثقل الثورة يكاد ينحصر في منطقة الفـرات الاوسـط حيث ان الثورة في منطقتي الناصرية والكوت لم تتعد المناوشـات الطفيفة ، فقد استطاعت اصابع الاستعمار التي امتدت بالرشاوى ومعسول الأماني ان تخدع الكثير من رؤساء العشـائر والمتنفذيـن المنتفعـين فتقاعسوا عن اداء واجبهم الوطني وعزلوهم عن الاسهام الفعـال في الثـورة .

(٣٧) الصحيح انهم علماء كربلاء ، حيث ان الميجر بولي الحاكم السياسي للحلة استدعى لمقابلته في صباح يوم ٥ شوال ١٣٣٨هـ/٢٢ حزيران ١٩٢٠م كل من : الشيخ محمد رضا نجل الشيخ محمد تقي ، والشيخ هادي كمونة ، ومحمد شاه الهندي وعبدالكريم العواد ، عمر الحاج علوان ، وعثمان الحاج علوان ، وعبدالمهدي القنبر ، وأحمد القنبر ، ومحمدالطباطبائي ، والشيخ كاظم ابو اذان ، وابراهيم ابو والده ، والسيد احمد البير ٠

وقد تردد المستدعون اولاً وقرروا مقاومته مهما تطلب الأمر ، ولكن الشيخ محمد تقي الحائري اوعز الى ولده الشيخ محمد رضا ان يكون في مقدمة من يجب تسليم أنفسهم الى السلطة ، وأوعز الى الباقين بوجوب تلبية أمر الحكومة فسلموا أنفسهم فوراً ونقلتهم السيارات المصفحة الى الحلة وارسلوا منها بالقطار الى البصرة وبالبحر الى جزيرة هنجام في الخليج العربي ٠

وبعدها قامت مظاهرات في كربلاء وامتدت الى المناطق الاخرى٠ « الحسني ن٠م ١٤٦ » ٠

(٣٨) يذكر الجنرال هالدن ان الخسائر بلغت في هذه الحادثة ٤٨ قتيلاً بينهم ضابط بريطاني واحد و (١٦٧) جريحاً بينهم ضابط واحد ، أما خسائر الثوار فكانت طفيفة جداً بالقياس الى هذه الأرقام ٠ هالدن / ثورة العراق ١٩٢٠ / ترجمة فؤاد جميل ص١٠٨ ٠

(٣٩) انها واقعة الرارنجية التي حدثت في ٢٣ تموز ١٩٢٠ ، وقد أيد هذه الخسائر الجنرال هالدن القائد العام للقوات البريطانية ٠ « انظر : ثورة العراق ، ترجمة فؤاد جميل ١٣٨ » الا ان السير أي٠ تي٠ ولسن وكيل الحاكم الملكي العام يذكر ان عدد القتلى (١٨٠) وعدد الجرحى (٦٠) وحوالي (١٦٠) اخذوا أسرى ، مع خسائر جسيمة في وسائط النقل ــ العربات والحيوانات ــ ٠ « انظر : الثورة العراقية ترجمة جعفر خياط ١٠٤ » ويؤيده د٠ سند رسن في ص٥١ من كتابه
" The Thousand and one Nights,,

(٤٠) يقصد حزب الثورة العراقية الذي تشكل في النجف وفيه أعضاء من كافة أنحاء القطر خصوصاً من الفرات الاوسط مثل الحلة والدغارة وعفك والهاشمية والجزيرة وغيرها ٠ فكان في الناصرية الشيخ عبدالحسين مطر ، وفي سوق الشيوخ الشيخ محمد حسن حيدر ، وهكذا باقي المناطق ٠

(٤١) أدى سوق الجيش من الحلة الى الديوانية (التي هي شمال منطقة

المنتفك) الى حدوث ثورة في منطقة الحلة ، حيث عمد فريق من بني حسن الى تحرير بلدة الكفل في ٢٠ تموز فاتخذ قرار بتسويق الجيش الى الكفل ، وهناك حدثت معركة الرارنجية المعروفة ، فانشغال الجيش في تلك المعركة جعل الحدود الغربية لتوماس مهددة من دون قوة عسكرية ٠

(٤٢) الكابتن كراوفورد Capt.W.F Crawford مساعد الحاكم السياسي في قلعة سكر ، وقد عين لها في ٢٨ شباط ١٩٢٠ ٠

(٤٣) يقصد الشيخ عبدالحسين مطر ـ عالم الناصرية ـ فقد جاء الى السوق وهو يحمل رسالة من شيخ الشريعة موجهة الى رؤساء العشائر يحثهم فيها على الجهاد ، فنزل في ضيافة الشيخ محمد حسن حيدر ، وصار الرجلان يتعاونان في حث الناس على اعلان الثورة ٠
« ذكرى علمين من آل مطر ٢٨ » ٠

(٤٤) تم اخلاؤه الى الناصرية في ١٢ آب ١٩٢٠ ٠

(٤٥) يشير الى ان نجاح الثورة سيكون خسارة كبرى على من سار في ركابهم ـ أي الانكليز ـ ٠ فأعوانهم من الشيوخ مترددين بين الاستمرار في خدمة البريطانيين او الانخراط مع الثوار ، حسب ما تتطلبه مصالحهم الشخصية ٠

(٤٦) يقصد المرزا محمد بن المرزا محمد حسن ٠

(٤٧) لعله الشيخ محمد نجل الشيخ حبيب الله ، الذي وصل المنطقة قادماً من النجف ، وكان حاملاً راية خضراء لاستنهاض القبائل ، فجمع حوله لفيفاً من المسلمين ومكث مع الثوار زهاء أربعة أشهر يهاجمون الناصرية ٠
« الحسني ن م ٢٥٢ » ٠

(٤٨) يقصد الشيخ فتح الله شيخ الشريعة الذي خلف قائد الثورة الراحل الشيخ محمد تقي الحائري المتوفى في ١٣ آب ١٩٢٠م /٣ ذي الحجة ١٣٣٨هـ ٠

(٤٩) في منتصف آب ١٩٢٠ ٠

(٥٠) يذكر د٠ الوردي : ان التوتر وصل الى قمته في الشطرة في ٢٥ آب حين وصل اليها العالم الديني الشيخ محمود الخليلي مرسلا من الشيخ فتح الله شيخ الشريعة في النجف ، فقد خرج أهل البلدة كلهم

لاستقباله ، كما خرجت مظاهرة كبيرة تحمل الرايات أمام بيت الكابتن توماس تحديا له ، ولما دخل الخليلي البلدة عج الفضاء بطلقـــات البنادق احتفاء بقدومه . وقد أدرك توماس عندئذ ان من الخطر عليه ان يبقى في الشطرة مدة أطول ، فأرسل رسولاً الى الناصرية يطلب منها ارســال طائرات لنقله هو والكابتن هــول . فعاد الرسول من النــاصرية يقول ان طائـرتين ســتصلان اليه في صبـاح ٢٧ آب . « انظر التمهيد » .

ويذكر الوردي حديثاً لأحـد الذين شـهدوا الحادثة من أهل الشطرة : ان الشيخ محمود ارسل الى خيون رجلاً إسمه عبدالخالق الطحان ليخبره بأنه يجب ان يلقي القبض على الكابتن توماس قبـل طيرانه ، واذا لم يفعل ذلك فان زوجته « كشيمرة » ستكون طالقاً . وقد وصل الرجل الى المطار قبيل ركوب توماس الطائرة ، وصـاح ينادي خيون على مشهد من الناس : يا خيون ، يقول شيخ محمود كشيمرة طالق اذا تركت الحاكم ينهزم » فلما سمع خيون ذلك صرخ بالرجل منتهراً : « ولـّي ، العن أبوك وأبو شيخ محمود ! » . « لمحات اجتماعية ج٥ ق٢ : ٨٣ ـ ٨٤ » .

(٥١) البطنجة : موقع يبعد عن مركز الناصرية بثلاث ساعات ، وقعت فيه معركة حامية بين الأتراك والانكليز في ٣ ربيع الثاني ١٣٣٤هـ عنـد طلوع الشمس ، وقد أسفرت عن انتصار الأتراك ومعهم العرب على الانكليز ، وكانت خسائر الانكليز فيها تزيد على الالف قتيل .

ملحق

تاريخ الشطرة

بقلم الشيخ باقر الشبيبي

كتبه سنة ١٩١٨

كلّف الحاكم السياسي في الشطرة ، برترام توماس ، الشيخ أحمد الاطيمش الذي كان يقوم بتدريسه اللغة العربية بوضع تاريخ مختصر لمدينة الشطرة والعلاقات العشائرية فيها فقام الشيخ الاطيمش بدوره ، لغرض التثبت من صحة الروايات وتدوينها بالاتصال بالمرحوم الاستاذ باقر الشبيبي المعروف بأدبه ، ومعرفته لتاريخ المنطقة ، والذي حرر بقلمه خلاصة موجزة لتأسيس مدينة الشطرة والعشائر التي تقطن فيها وأهم الأحداث التي وقعت فيها والمنازعات العشائرية التي دارت على أراضيها ، كما تحدث عن الخصومات التقليدية بين الامارتين العشائريتين : ربيعة والمنتفق من أجل السيطرة على المنطقة الغرافية ، والسياسة العثمانية التي كانت تشجع احدى الامارتين ضد الاخرى والمآسي التي حلّت بعشائر المنطقة نتيجة لتلك الخصومات •

وقد نشر هذا البحث التاريخي الاجتماعي الذي كان مخطوطاً يحتفظ به المرحوم الفاضل الحاج حسين الشعرباف •

نشره لأول مرة الدكتور عبدالجليل الطاهر ـ رحمه الله ـ ملحقاً لكتابه (العشائر العراقية) بالصفحات ٣٥٢ـ٣٨٣ •

وقد رأينا اتماماً للفائدة ولأهمية البحث ولكون أن البحث أُعدّ بطلب من صاحب المذكرات نعيد نشره في هذا المجال •

بسم الله الرحمن الرحيم

« تاريخ الشطرة »

« بقلم الشيخ باقر الشبيبي ١٣٣٧هـ ١٩١٨م »

الشطرة تخطيطها وتمصيرها :

وهي قرية صغيرة كانت مبنية من القصب والطوب واقعة على بُعد نصف ساعة جنوب غربي هذه المدينة الجديدة على ضفتي نهر يسمى الخليلية أسسها الشيخ حسن السنجري من رجال العلم المشاهير وذلك سنة ١٢٠٢هـ • ودامت آهلة عامرة نحو قرن وأكثر ، سكانها يومئذ من قبائل العبودة ولم يكن فيها من جالية العراق اذ ذاك الا أحاداً أقاموا فيها بقصد الاتجار مع قبائل الغراف وكانت هي القرية الوحيدة التي يؤمها تجار بغداد وسائر مدن العراق •

منازل العبودة فيها :

قلت أن أكثر سكان هذه القرية من قبيلة العبودة أما دواعي سكناهم فيها فيرجع أكثرها الى التنافس الذي حدث بين هذه القبيلة وبين جارتها قبيلة خفاجة وكانوا قبيل تأسيسها ينزلون الشاهينية •

لماذا سميت الشطرة :

كانت الشطرة بطيحة من بطايح الغراف غاض عنها الماء وجف فنشأت كجزيرة تحيط بها المياه وتشطرت الى أن انعزلت عن أمواه البطائح والعامة تقول شترت فسميت كذلك لانعزالها والشطرة لغة من أسماء الأرض وقد يقال أن تسميتها بهذا الاسم من باب تسمية الجزء باسم الكل •

حدودها :

أما حدود هذه القرية أو الشطرة القديمة فيحدها نهر الغراف من الشرق ونهر أبي مهيفة من الغرب والهاشمية من الشمال ونهر أسليم من الجنوب •

كيف تمصرت :

ألمعنا قبلا أن مؤسسها الذي وضع الحجر الاول في أساسها هو الشيخ حسن السنجري المشهور ويجدر بنا أن نلمح الى حالة الغراف بقول عام قبل تمصيرها فنقول كان الغراف من أقصاه الى أقصاه يعد منطقة من مناطق نفوذ أمراء ربيعة فخضع وخنع ردحاً من الزمن لأولئك الزعماء الغرافيين ولما دارت رحى المعارك بين ربيعة وآل سعدون وانتهت بفوز هؤلاء خرج الغراف من دائرة نفوذ أمراء ربيعة وانتقلت سيادة الغراف الى آل سعدون فتمّ لهم التبسط في الحكم وكونوا امارتهم في ربوعه وفي ذلك اليوم ، أي يوم كان الغراف من لواحق ربيعة ، وفد الشيخ حسن السنجري على أميرها مشكور فأحسن وفادته وأكرم مثواه وأقطعه أطيان الشطرة هبة له فخف الشيخ حسن الى اقطاعيته ونزلها وعمرها وأمّها كثير من الناس فصارت قرية لها شأن في ذلك العهد •

كيف انفصل الغراف من ربيعة ؟ ـ الحرب بين آل سعدون وبينهم :

ذكرنا أن الغراف تحت حكم ربيعة ولم يكن لآل سعدون فيه نصيب من النفوذ فحولوا أنظارهم الى التسلط على الغراف وتوسيع نفوذهم وأملاكهم فقامت قيامة المنافسات بين الامارتين امارة ربيعة وامارة آل سعدون وأدت تجارب الايام الى نشوب حرب كبرى بينهما ختمت بفوز الامارة المستجدة •

الزحف للحرب :

جهز آل سعدون جيشاً من قبائل المجرة وجردت ربيعة حملة لصد

بـار آل سعدون وكان علـى جيش آل سـعدون صالح شقيق زعيم آل سعدون حمود ، وعلى جيش ربيعـة الأمير مشكور نفسـه فنـزل هـذا الشـطرة ووقعت الحرب بين الجيشين فقُتـل الامـير مشـكور وتفرقت جيوشـه فهزمـه آل سـعدون يتأثرونهم حتى وصلوا بفلولهم الى الكوت وتمت بذلك امارة آل سعدون على ربوع الغراف •

آل سعدون والشطرة :

فصل الغراف عن امـارة ربيعـة وتغلب عليـه آل سعدون فراجعت الشطرة الامارة الجديدة فأُقيم عليها حاكماً ينتدب كل ثلاثـة شهور من أهل البلدة كان يأخذ الضريبة قد وضعها عليهم ودام ذلك حتى أيام ناصر باشا فغيـَّر نوع الاستيفاء والجباية وأحدث « ديوان الرسومات » وجعـل عليه الخواجا نعوم (مسيحي حلبي) •

كيف تؤخذ الرسومات ؟ :

في أوائل أيام ناصـر كان زعمـاء القبائل يدفعون خراجهم مـــن الحبوبات التي تنتجها أطيانهم ثم كلفهم بأن يؤدوها دراهم واستمر ذلـك مدة حكمهم وكانوا يتكلفونه لقلة تداول السكة المضروبة عندهم •

ثروة الخواجا نعوم واسبابها :

قلنا أن نعوم كان صاحباً لديوان الخراج وكان هـو الذي يتقاضى الرسوم المضروبة على الزعمـاء والرؤسـاء واتفق أن أهل « القصة »[1] وآل أبي سعد أدوا خراجهم أرزاً فابتاعه نعوم لنفسه وأدى ثمنه الى ناصر باشا واختار لادخاره موضعاً « أنباراً » وذلك على ضفة فرع من الغراف بنيت فيه الشطرة الحديثة وجعل على حراسته جاسم جد عائلة آل جاسم المشهورة ، وقد اتفق أن الغرافَ قد أمحل في تلك السنة ١٢٨٧هـ وأقحط

---

(١) القصة مقاطعة من اراضي آل ابي سعد •

وأصابت أهل المنطقة مجاعة لم تتفق لهم في تاريخ حياتهم ودامت ثلاثة اعوام وكانت تلك المجاعة من نصيب الخواجا نعوم فباع ما لديه يومئذ الارز بأثمان باهظة عادت عليه بربح فاحش كان بدء ثروته ويساره •

الشطرة الحديثة :

خططت الشطرة في موضع الانبار الذي اتخذه الخواجا نعوم وكان السبب لتخطيطها فقد أمر وكلائه هناك بأن يحدثوا لـه سوقاً فانشأوه وهاجر شيئاً فشيئاً اليها أهل الشطرة القديمة ورغبوا في تمصيرها وسكناها لأن قريتهم الأولى لم تكن صالحة اذ ذاك للسكنى وذلك لأندراس النهر الذي خططت عليه وقد سكنت الشطرة الجديدة سنة ١٢٩٠هـ وهاجر اليها جماعة من أنحاء شتى كان في طليعتهم الملاك المشهور علي الشعرباف فانه أحدث فيها أسواقاً وبنايات كثيرة وأنشأ فيها حماماً ودوراً وخانات ومسجد وعـاد قدوة لغيره من المعمرين فكثرت أسواقها وزادت بيوتها الحجارة فيها وما زالت آخذة بالتوسع والعمران •

حوادثها ووقائعا :

ما زالت الشطرة منذ تمصيرها الى يوم احتلالها من قبل الانكليز مباءة للفتن والثورات وبؤراً للحوادث والانقلابات فكانت لا تسكن فيها الحركات الثورية وقد أوقف سير عمرانها منذ بدأت الغوائل بين القبائل المحيطة بها أول حوادثها التاريخية الواقعة التي افترقت فيها قبيلة العودة فرقتين وتحزبت حزبين •

كيف وقع التحزب والانفصال

في سنة ١٢٩١هـ قُتل جويسم (تصغير جاسم) آل علي خان من آل أبي شمخي وكانت قتلته من لسناجر وهي فاتحة حروب الشطرة وأول دم صبغ الارض وألبس الشطرة حلة حمراء ارجوانية اللون •

هذه الحادثة التي فصلت بين بيوت السناجر وبيوت آل أبي شمخي وولدت العداء التاريخي بينهما فارتحل هؤلاء ونزلوا في شمال الشطرة وبقوا كذلك يتحينون الفرص لأخذ ثأرهم من قتلتهم ووحدوا كلمتهم وزادوا بانضمام العميرات اليهم فتضامن الجميع واتحدوا ضد أعدائهم وانتهزوا الفرصة لأخذ الثأر وذلك سنة ١٢٩٢هـ وكان زعيم السناجر اذ ذاك راضي العكن •

مقتل راضي العكن :

دنت ساعة أخذ الثأر فتسلحت من آل أبي شمخي وخرج زعيم السناجر على عادته وجاء الى السوق وجلس في دكان أعده لاستراحته كلما دخل السوق فأسرع اليه نفر من القوم فقتلوه في موضعه على جلسته وعيّن زعيماً بعده على السناجر جبر العباس •

زعامة جبر العباس :

بعد قتل راضي العكن خلفه على السناجر رئيساً جبير وجهز الزعيم الجديد عصابة من قومه وتقدمهم هاجماً على قتلة راضي المذكور فاستمر القتال بينهم فقتل جماعة من القتلة وانهزم الباقون والتجأوا الى آل أبي نجيم وهم من أفخاذ العبودة وحالفوا آل عمار وآل جهل ودخلوا الشطرة متحمسين فقتلوا السيد موسى وهو أبو العائلة المعروفة باسمه لانتسابه الى السناجر كما قتلوا نفراً آخرين من السناجر المقيمين في البلدة وقد تظاهروا عدة مظاهرات في الاسواق والطرقات ثم عادوا أدراجهم •

مقتل جبير وتولية ولده عبيد :

حدثت تلك الحادثة ولم يمض عليها يوم الا وقد أعد السناجر عدتهم الى لقاء مقابلتهم فتلاقى الجمعان وكان عدد السناجر يربو على أعدائهم ولكن أولئك كانوا أكثر درية واستعداداً للحرب فلم يلاقوا أعداءهم بكل

قواهم ، بل تركوا لهم كميناً في ملاجئهم وانسحبوا من ميـدان القتـال لا عجزاً ، بل خدعة حتى اذا وصل السناجر الى بيوت هؤلاء خرج كمينهم وكانوا أربعين فارساً فلم يقو الكمين على صدهم أول الامر فاستماتوا دون بيوتهم وأذاقوا أعداءهم مر القتـــال وفي الاخـير لوى السناجر منهزمين وقُتل زعيمهم جبير مع أربعة وأربعين من قومه وكانت مقاتيلهم خمسـة وعشرين قتيلا •

زعامة عبيد بن جبير :

توقف سير القتال بين الخصمين وانتهت المعركة ذلك اليوم المحزن ورئيس السناجر عليهم عبيـد ولكنهم لم يكفوا تماماً عن مواصلة شـن الغارات علـى أعدائهم ، بل أنهم واصلوا غزواتهم حتـى اضطروهم الى الجلاء عن أوطانهم •

الحوادث الخارجية :

لم تقتصر الحروب فيما بين العبودة فقط ، بل تجاوزتهم وامتد لهيبها الى جيرانهم ففي تلك الايام وقعت واقعـة بين آل أبي سـعد وبني زيـد وكان سبب اثارتها أمرين الاول توزيع المياه على الاطيـان والثاني تسوية الحدود بين الفريقين فلم يكن بد من وقوع الحرب التي أدت الى انكسار العبودة انكساراً الجأهم الى دخول أعدائهم في أراضيهم وقتل خلق كثير أمـا آل عواد فلمـا رأوا التـواء بني عمومتهم وكانوا محايدين اضطروا الى محالفتهم وتجديـد الحرب فحالفوا آل جهـل وانضموا الى السناجر وانتقموا من بني زيد وآل أبي سعد حتى الجأوهم الى الفرار عن مواقعهم ودخلوا منازلهم وبيوتهم ولـم يتركوها حتى ابتنـوا في أطيان بني زيـد قلعة وبعـد ذلـك انتهت الحرب وسكنت الغوائل والقلاقل وهدأت الفتن بين الخصوم زماناً طويلا •

« عودة ناصر باشا وتأثيرها في المنتفق والغراف »

عاد ناصر باشا من الاستانة في أوائل أيام مدحت باشا وحول وجهه الى استملاك قسم كبير من أطيان الغراف وتسجيلها باسم قومه وأقاربه فتم له ذلك وأظهر ميوله الى رؤساء الغراف وحبذ لهم أن يبتاعوا بأسمائهم قسماً من الاطيان لقاء أثمان زهيدة فخافوا أن يكون وراء ذلك بلاء عظيم تجره قيود أسمائهم واثباتها في تسجيلات الحكومة العثمانية وكان الذي حرمهم عن ابتياعها خوفهم من عاقبة الجندية فندموا بعد ذلك « ندامة الكسعي » يوم شاهدوا ثمارها الجنية التي ما زال يجنيها الى اليوم آل سعدون وبقية الملاكين كآل نعوم وآل دانيال وغيرهم من أهل الاطيان والاملاك • وبالجملة فقد أحدثت عودة ناصر باشا من الاستانة انقلابات في الغراف وتبدلات في سائر ربوع المنتفك •

« ذهاب ناصر باشا الى الاستانة وتقلص نفوذ آل سعدون »

رأى العثمانيون أن يبسطوا نفوذهم على المنتفك والغراف وأدركوا صعوبة ذلك ما دامت امارة آل سعدون قائمة في تلك البلاد فأوعزت حكومة بغداد الى ناصر باشا أن يذهب الى استانبول فغادرها سنة ١٢٩٤هـ وفاتت عليه تمويهات الاتراك ، فجهزت الحكومة يومئذ حملة عسكرية بقيادة أحمد بك[1] المشهور « بأبي دنبوس » فوصل الى الناصرية وخرج بحملة على الغراف فجاء الشطرة وجعل مقر عسكره في موضع يقال له « مزيرية » فأوجس خيفة من قبائل القطر فانسحب الى الكوت بدريّة ومهارة وقد تأثرته القبائل فحصرته في حي واسط وكان أمير آل سعدون اذ ذاك منصور باشا وصمموا على الايقاع به ولكنه خدعهم وتمكن من النجاة فوصل الكوت فبغداد ، وكبر ذلك على الحكومة فجردت حملة

---

(١) وصل سوق الشيوخ واتخذها مركزاً ومن ثم حاصرته القبائل حتى كانت له صداقة مع علي الشعرباف وصار يمون جيشه •

الكبرى لاحتلال تلك الديار والقضاء على سيطرة آل سعدون وكان قائد الحملة عزت باشا المعروف بالرئيس

كيف تم ذلك للعثمانيين :

وصلت حملة الاحتلال الجديدة الى الكوت وانتدبت الحكومة عشائر ربيعة وبني لام فانتهزت ربيعة فرصة أخذ الثأر من آل سعدون فانتدبوا لها محبين فتقدم الجيش الى الغراف وقبل ربيعة معه وذلك في سنة ١٢٩٧هـ وتجمهرت قبائل المنتفك وآل سعدون لايقاف الجيش الزاحف وصده عن التقدم ودارت رحى الحرب الطاحنة بين الفريقين شمال حي واسط في موضع يسمى محيرجة[1] فانكسرت قبائل المنتفك وتأثرهم جيش العثمانيين وربيعة وثار أهل الشطرة في وجوه المنهزمين حيث أراد آل سعدون تخريبها خشية أن تكون مركزاً للعثمانيين المتغلبين وقد طاردهم الجيش الفاتح وفروا لا يلوون على شيء الى الجزيرة الشامية وكانت خسائر آل سعدون في هذه الحرب التي قوضت نفوذهم وقضت على سلطانهم كثيرة لا تعد وذلك سنة ١٢٩٨هـ .

« الشطرة والعثمانيون »

لما انتهت الحرب بظفر العثمانيين تم لهم ما أرادوا من تمزيق امارة آل سعدون خضعت لهم قبائل الغراف وبسطوا نفوذهم على ربوع المنتفك في الغراف والفرات فاستحكموا القرى وعمروها وأسسوا الدوائر الملكية وشيدوا الثكن العسكرية وجعلوا الشطرة مركز قضاء وأقاموا عليها عاملا وقائمقاماً هو « رستم بك »[2] وهو أول عامل تركي دخل الشطرة ورتب الادارة ووضع أساليب الحكومة بين أهاليها وبقي رستم بك عاملا فيها الى سنة ١٢٩٩هـ ثم فصل عنها وعين مكانه « فتاح بك » من الاكراد[3]

---

(١) يدعى الآن الموفقية . (٢) رستم بك بابان .

(٣) من اهالي طوزخورماتو .

وكان مهاباً صارم الحكم وقد استعمل مدة حكمه أنواع الشدة وضروب الغلظة والقسوة وخص بهذه الاحكام الصارمة رؤساء العشائر دون غيرهم ولولا هذا التأديب لما تم للحكومة العثمانية التبسط والسيطرة على هذه الديار التي اعتادت أمثال هذه الاحكام القاسية فكانت هذه الاعمال نموذجا للعمال الذين اختلفوا على الشطرة وغيرها من ديار المنتفك •

« آثار فتاح بك في الشطرة »

رأى فتاح بك أن يقيم سداً على نهر البدعة لما رأى أن أكثر مياه الغراف يبتلعها ذلك النهر العظيم فخاف أن يكون من وراء ذلك ظمأ الاطيان بين الشطرة والناصرية وقد كان ذلك ، فدعى القبائل لسد مجرى ذلك النهر فسدوه وتدفقت مياه الغراف في خليج الشطرة ولكن الاطيان الاخرى التي كانت تروى من البدعة أوشكت أن تموت فشكا أهلها الظمأ ففتح لهم مجرى صغيراً لري أطيانهم واحياء مزارعهم وقد اتسع شيئاً فشيئاً حتى عاد الى مجراه الاول فظمأ خليج الشطرة وظمأت جملة كبيرة من الاراضي والاطيان وأصبحت بواراً وما زالت كذلك الى يومنا وبقي فتاح بك عاملا في الشطرة خمسة أعوام وابتاع أطياناً بالفتاحية وعمر دوراً واقترن بفتاة من قبيلة خفاجة وأعقب ولداً منها ثم فصلته الحكومة وعينت مكانه وكيلا « مجيد أفندي » ثم أقامت نشأت أفندي عاملا في الشطرة أصيلا ، أما فتاح بك فبقي ردحاً من الزمن لا منصب له حتى مات وبقي نشأت أفندي عاملا في الشطرة وكانت أعماله فيها أعمالا سيئة جداً ولم يكن من العمال الذين يصلحون للمناصب والادارة فعزل بعد أن قضى مدة أبان فيها جهله وكشف خلالها ظلمه وعينت الحكومة مكانه « قدري أفندي » •

« قدري افندي »

عينت الحكومة العثمانية « قدري أفندي » عاملا على الشطرة وكانت

أعماله وسطاً بين أعمال من سبقه من العمال وفي أيامه كاد خليج الشطرة أن يندرس لقلة ما يحمله من المياه وفي ذلك ما لا يجهل من خراب ويباس وموات المزارع العامرة والأطيان الزاهرة فأمر بسد البدعة فسدت ولكنه لم يدم طويلا فقد كثر تشكي الناس فيهـا من الاضرار العظيمة التي تصيب الحكومة وتصيبهم فيما لو دام السد فأذن بفتح مجرى صغير ينفع أهل البدعة ولا يضر بخليج الشطرة ولكن المياه وسعت هذا المجرى كما وسعت في الايام الاولى « أيام فتاح باك » وعاد خليج الشطرة الى حالته الأولى فبارت الأراضي وقلّت المزارع وكان فتح ذلك السد علة انفصال عن الشطرة .

« الحوادث والفتن في الدور العثماني »

دامت الشطرة ساكنة بعيدة عن الحركات والمشاغبات منذ تسلم العثمانيون زمام الحكم والادارة في بلاد المنتفك الى أيام القائمقام قدري وأوائل أيام خورشيد أفندي ثم بدأت الحركات والمفاسد وكانت فاتحتها حادثة العميرات والسناجر وذلك سنة ١٣١٢هـ فان العميرات اعتدوا على أحد السناجر فشق على قومه الأمر وأدى ذلك الى امتشاق الحسام بين تينك الفرقتين وانضمت الحكومة الى العميرات ولزمت جانبهم في هذه الحادثة فأخرجت طابوراً من الجيش المقيم في الشطرة وأطلق النار على السناجر وذلك بدون توقيع من أعضاء مجلس الادارة فقتل بنار الجند عدد من السناجر فأصبح رئيس العبودة « عبيد » على فعل الحكومة وكان احتجاجاً معقولا فأدرك القائمقام أنه أخطأ خطأ كبيراً وخاف عقاب الحكومة وفصله عن القضاء ولكنه تدارك الامر وأمر بكبت الجلاء على عشيرة العميرات فتفرقوا جميعاً بين قبائل الغراف وسكن أكثرهم قلعة سكر .

« حادثة سعدون باشا ومحمد زلام »

على أثر تلك الحادثة هدأت الفتن في الشطرة وقلت أحداثها ووقائعها حتى جاءت سنة ١٣٢١هـ وكأنها أقبلت للقضاء على النفوذ العثماني في أكثر ديار الغراف فحدثت فيها الحادثة الكبرى وكانت بين الحكومة وسعدون باشا •

« كيف وقعت الوقعة »

جاء سعدون باشا المعروف وهو أبو الوقائع التاريخية في العراق واستأذن الحكومة في اللواء أن يقيم في ربوع المنتفق وقد أقنعها بأن الشامية قاحلة ماحلة لا تصلح للنزول فيها والاقامة فنزل ديار الغراف واختار من بينها أراضي العبودة وكانت قبائل هذا القطر وجلة خائفة من بطشه وغاراته فنهض عبيد ورفع الى الحكومة عريضة أفاض فيها عن مفاسد سعدون وحذرها ان هي أباحت له دخول الشطرة يتزعزع مركزها فمنعت دخوله وعرقلت مساعيه وطالما أراد الوقيعة بعشائر العبودة ولكن العشائر سبقوه فثاروا عليه وأذاقوه العذاب وألوان الموت وقد أسعفتهم الحكومة فأرسلت الى قتاله طابورا من الجند بقيادة « القول أغاسي »[1] « محمد زلام » والتحموا معه في موضع يقال له الجرارة من أراضي آل عواد في البدعة ودامت الحرب على أشدها ثلاث ساعات ختمت بفوز سعدون وانكسار العشائر والجنود واستشهد في تلك المعركة « القول أغاسي » وضباطه وقائد الدرك وثمانون جندياً ثم انجلى عن ربوع المنتفق الى الشامية بعد تهديد بلاد الشطرة أما حكومة بغداد فقد أرعدت وأبرقت لهذا الحادث وأرسلت جيشا الى ديار المنتفق بقيادة محمد باشا الداغستاني • ولما وصل الداغستاني وجد القطر قد أفسد من أقصاه الى أقصاه ولم يستطع أن يقمع الفتن ويسكن الثورات التي استعرت يومئذ في كل ناحية ومكان ولم يجد بداً من الرجوع القهقرى الى بغداد •

---

(١) القول اغاسي ـ رئيس اول •

وخلاصة الامر ان هذه الحـــادثة كانت مبـــدأ حوادث ومصائب على العثمانيين أدت الى اذلالهم وتقلص نفوذهم من بلاد المنتفق •

« حادثة الوجه »

ومن أعظم الغوائل التي اغتالت الشطرة وأخربت عمارتها واستأصلت حضارتها الغائلة المدونة بين القبائل « بمسألة الوجه » ، والوجه اذا قال عربي لآخر اني في وجهك فقد أمن كل عقوبة مهما كانت الجناية عظيمة والجرم كبيرا واذا هين أو جرح أو قتل ما دام في الوجه فقــد نزل البلاء على أولئك المعتدين وان كان اعتداؤهم بحق فمسألة الوجه عند العرب من العادات المقدسة التي لا يجوز خرقها أو هتك حرمتهــا وأول واقعة انتهكت حرمة تلك العادة في العراق حتى اشتهرت باسمها لعظمها عندهم هي الحادثة الآتية واليك بيانها •

من قواعد الرحالة انهم يتبعون المرعى الخصيب لاسيما اذا كانوا أهل ماشية ومن تلك القبائل « البدور » فأنهم أهل انعــام وكانـــوا يجوســـون خــلال العراق اذا خصب وقــد اتفق أن البدور نزلوا في أراضي العبودة في جمادى ١٣٢٤هـ وقد اختاروا أراضي الجاسمية مرعى لأنعامهم فحدثت بينهم وبين آل أبي شمخي ، حادثة قُتل فيها أحد رجال هؤلاء فخاف البدور ونزلوا على « آل جهل » وهــي قبيلة من قبائل العبــودة ، واضطروا الى اداء دية القتيل حتى يأمنوا على نفوسهم وأموالهــم وقد وسطوا لحســم المسألة « رئيس آل جهل » سويلم بن هواش فطلبوا من ذوي القتيل أن يعينوا اليوم لكي يحضروا فيه لحل تلك العقدة حسب العــادة المألوفــة فعينوا آل أبي شمخي يوما ولكنه كان يوم شؤم لا يوم صلــح فتأخر وفد أداء الدية عن ذلك اليوم وحضروا في اليـــوم الثاني للاجتمــاع فعد أهل القتيل تأخر القوم جناية عظيمة وازدراء بهــم فكتمـــوا سخطهم حتى اذا قارب القوم منازلهم أطلــق عليهــم الموتورون نيرانهم على الوفـــد فقتل

« بدري » من البدور ولما كان البدور في حماية آل جهـل عاد رئيسهم سويلم وملء نفسه السخط والغضب فجهز قومه وجمع جمعـه واستعدوا للحرب » بدعوى خرق حرمة الوجه » فكان عامة العبودة في قبالة آل أبي شمخي ونشبت الحرب ودامت سبعة أيام بلياليها حربا شـعواء قتل فيهـا خلق عظيم من الطرفين وفي الأخير سلم آل جاسم وآل أبي شمخي بعـد حصـار طويل وكتب عليهم الجلاء عن الشطرة فغادروها بعـد الأسر الى « شامان » (موضع على ضفة نهر الغراف الايمن) ومكثوا هناك الى سنة ١٣٢٥ هـ وقد اصطلحوا بعد ذلك مع قومهم وعادوا الى أوطانهم ٠

لم تنقض سنة ١٣٢٥ هـ المفعمة بالحوادث حتى جاءت سنة ١٣٢٦ هـ وفيها رضيت الحكومة العثمانية عن سعدون باشا فأمنته وأسندت اليه لقب « مصلح الغراف » (وذلك بأشارة قائد لواء المنتفق مظهر بك يـوم كان أميرلاي) ومطالعته والحاحه على حكومـة البصرة والقيـادة في بغـــداد نفرت الى مساعدة الميرلاي مظهر بك ، سعدون باشـا مساعداً لـه فنزلوا ديار آزيرج ودعاهم الباشا الى طاعة الحكومة فلم يذعنـوا واجتمعـوا لقتاله فقاتلوه وكسروه وأغنموا على المشهور « وارد »[1] ثم عاد الكـرة عليهم بعد أن لم لفه وجمع حولـه مـن مقاتلة خفاجة فأعلنت القبـائل طاعتها فزاره الرؤساء والزعماء ٠ وقد احتفى احتفاء عظيما « بخيون العبيد » فعزّ ذلك على بقية الرؤساء وحنقوا على سعدون وعصوا أمره ومانعـوه دخول الشطرة فتجمعوا وأتحدوا تحت رئاسة عبدالكريـم الفالـح باشا وحامد بن مشاري وكان يومئذ فالح باشـا وولده عبدالله بـك بالبصـرة وذلك لان سعدون لما استلم زمام الامر رفع شـكواه الى الحكومة بأنـه لا يمكن اصلاح ديار المنتفق وفالح باشا فيها فطلبت الحكومة فالح وولده عبدالله بك وأبقي عودة عنـه ولـده عبدالكريم بك وحامـد بك المشاري وأشار اليهما أن يمانعا سعدون ويعرقلا مسـاعيه فجعل هؤلاء يجمعـون

(١) وكان ذلك في شهر رمضان ١٣٢٦ ٠

القبائل ويبثون الدراهم لذلك الغرض فتجمهرت عشائر العبودة وآل أبي سعد وبني زيد وأتباع فالح ضد سعدون والحكومة فدارت رحى قتال عنيف أدت الى انكسار العشائر وآل فالح ودخول سعدون ومظهر ظافرين الى الشطرة ولما دخل سعدون الى الشطرة سنّ على الرؤساء ضرائب لا تطاق وكلف خيون بأداء ما فرض عليه من الضرائب فتمنع وعاضده زعماء العشائر وصادف رجوع عبدالله الفالح من البصرة بعد موت أبيه فيها فتعاقدوا على حرب سعدون وطرده ولما رأى عبدالله تصميم القوم على حرب خاله سعدون جهزهم وأعانهم على مقاصدهم وأمدهم بقومه ونشبت الحرب بين الفريقين وكانت حربا مدهشة دامت في طرقات الشطرة وأزقتها ثمانية أيام بلياليها وكابد السكان من جرائها أنواع الشقاء والاضطهادات وقتلت بعض النفوس البريئة وقد اضطرت العشائر سعدون أن يحصر في « القشلة » (الثكنة العسكرية) وقد اشتركت في هذه الحادثة بني ركاب والعبودة وآل حميد وبني زيد وآل أبي سعد وخفاجة ، أما بني ركاب وخفاجة وقسم من البدور ومن العبودة آل أبي شمخي هم من جانب سعدون والباقون هم مع عبدالله بك وفي الاخير اضطر سعدون باشا الى التسلم فخرج من الشطرة ونزل قلعة شامان فالتف حوله بني ركاب والشويلات وقراغول ثم أن عبدالله جمع عشائر العبودة وبني زيد وآل أبي سعد وأعاد الكرة عليه وهزمه من شامان بعد عراك شديد ، أما مظهر بك فلم ينفع سعدونا بشيء ولم ينصره في هذه الواقعة بل بقي في ثكنته كأنه لم يكلف بأخذ معونته فأصبح بعد ذلك الامر والنهي بيد عبدالله بك وخيون ولكن الاول لم تكن له اطماع بما في أيدي الناس وأقل وطئا من رفيقه ومن خاله • ولم تكن الحكومة في الشطرة بالاسم لا تنفع ولا تضر • وبعد واقعة شامان جمع سعدون باشا جموعا من عشائر بني ركاب والبدور والشويلات وجهز عبدالله بك عشائر العبودة وبني زيد وآل أبي سعد فتقابل الفريقان في محل يسمى

أبو شليلة على ضفة الغراف ولكن بعض زعماء القبائل من الفريقين أدركوا أن الغاية أما الى سعدون أو الى عبدالله فتراجعوا فيما بينهم سحبوا قبائلهم وانسحب الجيشان بلا قتال فيئس سعدون وترك الغراف وعبر الى بر الشام •

« مصطفى باشا »

وفي شهر ذي الحجة سنة ١٣٢٧هـ تأهب العثمانيون لاصلاح الغراف وديار المنتفق واستئصال الفتن واعادة النفوذ العثماني اليه فجهزت حكومة بغداد جيشا تحت قيادة الميرلواء مصطفى باشا فدخل الغراف بسلام لا بخصام وجعل يتنقل من الكوت الى الناصرية مع جيشه فأدخل الرعب في قلوب العرافيين وعشائر المنتفق دون اطلاق رصاصة واحدة فخضعت القبائل وقد أمر بتهديم بعض القلاع والحصون فهدمت وطلب من العشائر بعض الرسوم فسلمت بتمام الامتثال وعندما دخل الناصرية رفع بعض أهالي تلك البلدة على عشائر آل ازيرج شكاوى بدعوى انهم يعارضون الطريق وأنهم يتداخلون في شؤون البلدة فأخرج القائد مصطفى باشا جنده على تلك القبائل وأصر على جلائهم فقاتلوه قتالا عجيبا أفضى الى انكساره بعد أن أخلوا له عدة جمايع « قرى » حتى تمادى الجيش في الفتك والحرق فخسر قسم من جيشه وكل قوته المعنوية وبقي محصورا هو وجنده في الناصرية •

« يوسف باشا والشطرة »

ولما رأت الحكومة العثمانية اتساع الخرق في تلك الديار جعلت توسل بكل ما لديها من الوسائل لبسط نفوذها واصلاح تلك الربوع جردت حملة مؤلفة من ستة طوابير كامل العدة تحت قيادة الفريق يوسف باشا الشركسي وضمت اليه القوة الموجودة في الناصرية المؤلفة من خمسة طوابير فكملت القوة في ديار المنتفق أحد عشر طابورا فوصل

القائد يوسف باشا الشطرة وذلك في اليوم السابع عشر من ذي الحجة سنة ١٣٢٧هـ وأرهب الناس يومئذ بقوته واستعداده وقد انحاز اليه من العشائر آل أبي شمخي وآل جاسم وكانت أطيانهم مغتصبة تحت احتلال العبودة فشكوا ذلك التظاهر فوسط الوجهــاء والاعيان لاسترضاء آل جاسم فلم يقبلوا دوام التفاوض بين الفريقين برهة من الزمن كان يوسف باشا في أثنائها يستميل العشائر للاتفاق معه على مقاتلة خيون اتباعه وبعد ذلك بقليل قرر المجلس الاداري ضرورة الحرب وتأديب خيــون ورفقائه فتقدم الجيش خارج البلد فأطلقت المدفعية نيرانها على الحــادي (منازل السناجر) وذلك في ١٤ ربيع الاول سنة ١٣٢٨هـ أما هؤلاء فلــم يردوا الفعل ولم يطلقوا طلقة واحدة ضد الجيش فصبروا على النار الى ظهــر ذلك اليوم ثم هجموا على الجند بعـــد أن رأوا أعداهم آل شمخي يناوشونهم النار فأضطر الجند على الانسحاب بعد أن ترك مدفعين وجملة قتلى من الضباط وقائد طابور ، وفر آل أبي شمخي الى منازلهم كعادتهم في كل مرة ودخل الجيش المنكسر الى البلدة وتأثرته العشائر فدخلوا البلدة وعاثوا فيها فساداً وجرى فيها النهب والسلب فلم يسلم من عيثم دار ولا سوق ولم تختص قبائل خيون بهذا العبث بل كان للجند وآل أبي شمخي سهم وافر في النهب والسلب ولا تسل عن حالة الابرياء في تلك الليلة السوداء في حال من لا يملك لنفسه نفعا لا يدفع عنها ضرا .

وبعد أن قضت العشائر وطرها من البلدة وبعد أن لم يبق فيها دكان عامر لم ينهب ، تسللوا جماعات جماعات وعادوا الى منزلهم وملاجئهم موفورين بالغنائم والاسلاب ، أما يوسف باشا فقد ضرب نطاق الحصار على البلدة بعد خرابها وطوقها بالمعاقل والمتاريس وبنى مواقــع للحامية ودامت البلدة محاصرة ثلاثة أهلة وعشرة أيام لم يسكن فيها اطلاق النار من الجيش والعشائر ليلا ونهارا ولم يدخلها داخل ولم يخرج منها خارج فأضطر أهل البلدة أن يقدموا الشكايات الى ولاية البصرة على يوسف

باشا الذي أخرب البلاد واضطهد العباد واتفق في ذلك الوقت وصول الوزير ناظم باشا الى بغداد فأمر بسحب الجيش المتوزع في انحاء العراق وجمعه في بغداد ، فغادر يوسف باشا الشطرة وزال الحصار عنها فاستنشق الناس نسيم الحياة وانتهت هذه الفاجعة بزوال السلطة العثمانية من العراق زوالا تاما وتم لخيون كل شيء •

« جلاء خيون »

ولما انفصلت حادثة يوسف باشا انتشر عقد نظام الاتراك في ربوع العراق والمنتفق وأخذ القوي يدوس حقوق الضعيف شأن الامم الفوضوية وعمت هذه القضية الى أبي نجيم وهم أصل هذه الحادثة الكبيرة وذلك ان برغش آل مري رئيس عشيرة أبو نجيم قام ينازع ابن عمه كزار وحدثته نفسه في التغلب على ما في يد كزار من الاراضي وسلبهـا منه وقد أحس كزار بذلك فالتجأ الى آل جهل وأدخل نفسه دار أخيه عليهم أما هؤلاء فقد قاموا بوظيفتهم ودافعوا عن حقوق الرجل أشد الدفاع ووقعت الفتنة بين الفريقين ودامت أياما وختمت بجلاء الى أبي انجيم عن مواطنهم ونزلوا الشطرة وأخذ خيون في اصلاح ذات البين بين الطرفين ولكن الاغراض النفسية تحول بين ذلك وتوسعت هذه الحادثة وعادت أحزابا فانضم الى سويلم عشائر البدعة من العبودة وبني زيد وآل أبي سعد والنمويلات وقراغول وقسم من أهالي الشطرة وانظمت الى قبائل خيون قبائل خفاجة وجاءت بني ركاب لاصلاح هذه الحادثة وبقوا شهرا كاملا ضيوفا عند خيون فلم يتمكنوا من الاصلاح ورجعوا الى أوطانهم وانجلت هذه الحادثة على حوادث عديدة •

« حادثة آل عواد »

اشتهرت هذه الحادثة بحادثة آل عواد وهم قبيلة من قبائل العبودة تحملوا على خيون وانضمت اليهم قبائل بني زيد وفي سنة ١٣٢٢ هـ تجمهر

آل عواد وبنو زيد يريدون كسر نفوذ خيون حتى وصلوا الى منازل الدبات وفر الدبات هاربين وعلت النار في مبانيهم وفي نية المهاجمين دخول الشطرة واجراء النهب والسلب فيها ولكن أهل البلد ولفيف من السناجر وآل أبي شمخي ثاروا في وجوه المعتدين وهزموهم شر هزيمة ورجعوا ظافرين بعد أن أوصلوا المنهزمين الى بيوتهم •

« حادثة المتصرف »

لما انتهت حادثة آل عواد بظفر السناجر ذهب رؤساء القبيلتين آل عواد وبنو زيد الى الناصرية وقدموا عرايض الى الحكومة شاكين بها أفعال خيون وما ارتكبه من الجرائم ضدهم وبرهنوا على اقتدارهم ان ساعدتهم الحكومة فأقنعوا حكومة اللواء حينئذ خرج المتصرف « مصطفى نادر » ومعه حملة من الجند ومدفع واحد وأراد دخول الشطرة عن طريق خفاجة ولكن هؤلاء منعوه عن ذلك ثم جاء من طريق آل ابراهيم والتف حوله آل عواد وبنو زيد وقضوا على أتباع خيون القضاء المبرم • أما خيون فقد كان في نفس الشطرة وعندما علم بذلك ترك البلد وخرج الى « الحاوي » ودخل المتصرف الشطرة وهجمت عشائر بني زيد وآل أبو سعد والجند والأهالي على الحاوي وأشعلوا النار في أطناب خيون بعد نهب أمواله وأثاثه وما في القرية •

« ما هو الحاوي »

الحاوي يبعد عن الشطرة بنحو ميلين من جهة الجنوب الشرقي تأسس سنة ١٣٠٧هـ وقد استوطنت قبيلة السناجر لما عزمت الحكومة التركية على تسجيل النفوس في البلدة خوفاً من اثباتهم في سجلات الحكومة ودامت الى يومنا هذا • ولما دخل المتصرف بلاد الشطرة عمد خيون على ترك الاقامة في الحاوي وأرسل على وجهاء آل أبي سعد وفاوضهم في ذلك فحسنوا له الرأي وتعهدوا له في حفظ وطنه « الحاوي »

وضد المتعرضين ولكن هؤلاء بعد أن رحل خيون طمعت نفوسهم في أمواله فأجروا فيها النهب والسلب ثم أضرموا النار في داره ودور أصحابه أما خيون فقد رأى أن الصبر على هذه الحالة يعد من الجبن فألوى عنان جواده وكر هو وأصحابه على آل أبي سعد واشتد القتال بين الفريقين وذهب في ذلك خلق كثير لا سيما من آل أبي سعد وما فصل بينهم الا سواد الليل ، هذا المتصرف في الشطرة ثم أقفل راجعاً الى اللواء خوفاً من أن ينقطع به الطريق •

« لماذا عاد المتصرف الى الناصرية »

وحين ما رأت القبائل انكسار خيون واضرام النار في منازله خافت أن يجري ذلك عليهم ولو بعد حين فأدرك المتصرف ذلك وخاف سوء المغبة • وحينئذ غادر الشطرة مخافة أن يعكس الفوز الذي أحرزه فيعود بنكبة لا تقوى عليها الحكومة وعند وصوله مركز اللواء أمر بعزل وكيل القائمقام في الشطرة وتعيين قائمقاماً لها « محمد علي بك الكردي » •

« محمد علي بك والشطرة »

ولما دخل محمد علي بك الشطرة جعل يطلب خيون ومن ينتمي اليه طلب وحقر بعض الوطنيين وسجن آخرين أما الوجوه من الوطنيين ، فحين انكسار خيون أظهروا ما كانوا يكتمونه من العداء لخيون وأخذوا يساعدون الحكومة • وأما الحكومة فقد خصصت بعض الأموال لبناء المتاريس والقلاع في ظاهرة البلدة صداً لغارات خيون الليلية •

« الصلح الكاذب »

لما كتب الجلاء على خيون نزل على قبائل خفاجة فأكرموا مثواه وعاضدوه ونصحوا له في النصرة • وكان خيون يكره عداء الحكومة فأخذ يتوسل بوسائل الصلح فأرسل على « سويلم » ورؤساء العبودة

التابعين الى الحكومة وعقد معهم صلحاً على أن يدخل أراضي الصديفة ويقيم في القلعة المسماة « البيضة » أجابه « سويلم » على طلبانه ولكن عندما رجع من هذه الجلسة أوعز الى أهل الصديفة أن يمنعوا خيوناً عن الوصول الى الصديفة والاقامة بالقلعة المذكورة • أما خيون فعند ختام هذه الجلسة أرسل معتمديه الى الصديفة وأمرهم أن يقيموا في قلعة البيضة وعند وصولهم منعهم آل عواد وآل حسن وذلك باشارة من « سويلم الهواش » فغادروا راجعين وتسببت عن ذلك حرب شعواء انتهت بتسليم ثمانية قرى بقلاعها •

« تسليم ثماني قلاع في يوم واحد »

لما يئس خيون من الاقامة في أراضي الصديفة ولم يحصل على رضاء الحكومة عنه صمم على نشوب الحرب وندب قبائل خفاجة للتنكيل بسويلم الناكث للعهد فنشط رايته والتف حوله أصحابه وحول نظره الى افتتاح قلعة عيسى آل محمد يحيى لأنها مفتاح باقي القلاع ثم أحاط بها وسلم أهلها فدخلوها وزحفوا على قلاع آل أبي خليف فسلمت على أيديهم وعند صبح ذلك اليوم تواترت جموع خفاجة وعدوا على قلاع سويلم وفتحوها من دون حرب وعلت النار في الجميع وفر « سويلم » ومن معه الى الشطرة وقد استوطنوها وقد رجعت جموع خفاجة الى مواطنها وبقي السناجر يتجولون في تلك الربوع والأراضي العامرة بالمزارع •

« حادثة البدور »

البدور قبيلة من العرب قوية الساعد شديدة المراس من القبائل الرحالة يتبعون المرعى الخصيب لأنعامهم ولما خلت أطيان « سويلم » من السكان نزلها البدور واتخذوها مرعى لأغنامهم فلم يسهل ذلك على خيون وجعل يطارد البدور حتى أجلاهم عن أطيان العبودة ، أما البدور فقد

استوطنوا في أبي مهيفة وعادوا في اليوم الثاني لحرب خيون وانضمت اليهم الحكومة والشطرة وآل جهل ووقعت الواقعة ودامت الى عصر ذلك اليوم وانتهت بانسحاب خيون عن أطيان « سويلم » وبقيت هذه الأراضي الواسعة فارغة من الطرفين ثم تلت هذه الحادثة حوادث كثيرة •

« حادثة ابي عضيلة »

هو جارالله من قبيلة آل عواد ولكنه تبع خيون في هذه الحروب وفاء منه لأنعامه عليه وهو في مكان يبعد عن الشطرة بنحو أربعة أميال وقد بقي في قلعته لمنع الشويلات والقراغول من الالتحاق بالحكومة في حملة الوقائع فعظم على الحكومة ذلك فدبرت سراً وأرسلت على البدور وأعطتهم التعليمات اللازمة لصد خيون وأعوانه ثم أخرجت في الساعة السادسة مساء واحتاطت على قلعة أبي عضيلة احاطة السوار بالمعصم وأنزلت به البلاء المبرم ولكن الرجل صبر لهم صبر الكرام واستمات حول وطنه حتى نفذت مؤونته وتهدمت قلعته بقنابل المدافع فاضطر الى ترك موقعه والتحق بخيون •

أما خيون وأصحابه فقد نفروا جميعاً لنصرة جارالله فصدهم كمين الحكومة وهم قبيلة البدور فقصدوا البلد قصد الفتك بها والتحموا مع حاميتها وهم رهط من الشرطة والأهالي فمنعوهم عن دخول البلد بعد حرب شديدة ذهب فيها خلق كثير أما أطيان « أبي عضيلة » فقد صارت مركزاً الى « سويلم الهواش » واتصلت قبائل قراغول والشويلات بالبلاد وبقيت الحكومة تندبهم لكل غائلة فيخوضون غمارها •

« الأمان الصوري »

وبعد تلك الحادثة عزمت الحكومة على التنكيل بخيون فندبت قبائل الشويلات والقراغول وبني ركاب ومن يتبعها من العبودة فحضروا في نفس الشطرة وأعطت أماناً الى « علي الفضل » زعيم خفاجة بوساطة

يوسف خيرالله فجاء به الى دار الحكومة ولما مثل بين يدي الأمراء فرضت عليه جلاء خيون عن ربوع المنتفك • وبعد المفاوضة رفض « علي » التكليف بكل صراحة فأودع على ظهر باخرة صغيرة كانت راسية أمام الشكة وجاءوا به الى باخرة كبيرة راسية في صدر البدعة ونقلوه اليها وسارت به الى البصرة واعتقل هناك حتى وقعت الحرب العامة والمعركة التي قتل فيها عمر لطفي وأطلق سراحه وكلفته باصلاح هذه المسألة •

« مقتل البكباشي عمر لطفي »

وبعد تسفير الزعيم « علي الفضل » وسجنه في ولاية البصرة أخرجت الحكومة الجيش والقبائل التي ندبتها لحرب خيون عن ديار المنتفك وأخرجت جندها ومدافعها ونزلوا خارج الشطرة في مكان يقال له « اسليم » وكان القائد للقوة التركية يومئذ « سيف الله بك » الذي أسر فيما بعد في الحرب العامة في منطقة العمارة وجاءت قوات خيون كالسيل الجارف بقلوب أقسى من الحديد ونزلت في مكان يقال له « الشفعة » في قبالة الجيش التركي ثم استعرت نار الحرب بين الطرفين وقد انجلت الغبرة عند المساء عن انهزام الجيش التركي والقبائل الموالية له وقتل البكباشي عمر لطفي مع عدد من الضباط وكثير من الجند وتأسير البعض وغنمت جموع خيون مدفعين ورشاشات وجميع الذخائر وأثقال القبائل ومضاربهم وكثير من البنادق الأميرية والعتاد والخيل والبغال ورجع الجيش مغلولا والقبائل منهزمة الى أهلها وأمست البلد مهددة من قبل خيون ولو أراد لدخلها بدون مقاومة - وبعد هذا جعل خيون عندما تكون المناوشات يطلق مدافعه التي غنمها من الحكومة على البلاد بواسطة أحد اللاجئين اليه من رجال المدفعية ارهاباً للأهالي والحكومة حيث أصبحت الحكومة لا مدفع لها •

« واقعة آل ابي سعد »

وقبل خروج الجند من الشطرة لمقابلة خيون أخرجت الحكومة قسماً من الجند وبعض المدافع تحت قيادة القائمقام محمد علي بك بقصد التضييق على خناق خفاجة الذين محاددين الى آل أبي سعد فنزل الجند في قلعة حسين بن جعين زعيم آل أبي سعد وعندما نشب القتال بين خيون والجند اشتركت هذه القوة ومن يتبعها من القبائل وهم بنو زيد وآل أبي سعد وهجموا على قبائل خفاجة ولما انكسر العسكر بقيادة سيف الله تهقروا هؤلاء والتجأوا الى القلعة وبقي القائمقام وجنده محصورين في قلعة حسين آل جعين أياماً اذ انقطع بهم الطريق وبقيت الشطرة من غير حاكم يدير شؤونها وبلا قوة معنوية حيث حاكمها قطع عليه الطريق ، أما « محمد علي بك » القائمقام « فخاف المسؤولية لتركه القضاء قرر أن يرجع اليها وحده فاتخذ طريقاً على بني سعيد والدواية ثم الكرادي ومنه الى الشطرة وترك الجند هناك محصوراً بدون مؤونة •

« ولابد للخسران من بارد الغدر »

لقد ظن رؤساء الشويلات وغيرهم أو زعموا أن ذلك الانهزام الشنيع الذي لحقهم والحكومة انما هو خيانة آل عواد وآل حسن فصمموا التنكيل بهم •

« قبائل الشويلات والتنكيل بآل عواد »

لما وصلت قبائل الشويلات وآل حميد الى مواطنها بعد تلك الهزيمة الشنعاء التي ألحقت بهم العار عظم ذلك عليهم فتآمروا فيما بينهم على الوقيعة بآل عواد وصادف ورود قوة من بغداد تحت قيادة « عبدالحليم بك » (الذي صار أخيراً قائداً على قوة الأتراك في منطقة العمارة وأخذه الانكليز أسيراً) فجمع الشويلات وعموم آل احميد جموعهم وهجموا على آل عواد ونكلوا بهم أشد تنكيل من نهب وسلب ثم أضرموا النار في

ديارهم ثم رجعت الشويلات ثملة بحميا النصر وقد أدركت الحكومة ميول القبائل نحو الزعيم خيون وثبت ذلك في قبائل آل أبي سعد فجهزت قوة للوقيعة بمن تظن به خيانة وثانياً لتعمل الطريق لارجاع القوة المحصورة عند آل أبي سعد . أما خيون فقد كان نازلا في موضع يقال له « البركة » « الرجة » بقرب آل أبي سعد لكي يضيق الخناق على الجند المحصور وعندما خرج الجند من الشطرة وصار قريباً من منازل خيون أطلقت النيران على منازل خيون ونشب بينهم القتال الى العصر فاضطر الجند الى الانسحاب وفي الأخير الى الانهزام فاغتنم أصحاب خيون كثير من البنادق والعتاد وقتل من الجند مقتلة عظيمة وأسروا كثيراً وعاد المنهزمون الى البلاد شر هزيمة وقد يئسوا من الفوز والتزموا خطة الدفاع في نفس الشطرة واستنجدوا بجاويد باشا والي بغداد وقائد الفيلق السادس وهذا في كنانة الأتراك .

« جاويد باشا والشطرة »

ولما رأت الحكومة تفاقم الأمر واتساع الخرق في ربوع المنتفك جهزت حملة عسكرية بقيادة والي بغداد وقائد الفيلق السادس « جاويد باشا الذي تسلمت الحكومة الانكليزية البصرة بزمن قيادته على الجيش العراقي » لقمع الفتن واستتباب الأمن في ساحة الغراف وعودة النفوذ التركي في تلك الأصقاع ، جاء جاويد حتى وصل كوت الامارة وانتدب قبائل ربيعة لهذا الغرض ووصلت مقدمة الجيش الى قلعة سكر وتهيأت قبائل الغراف للالتحاق بجاويد باشا ، فبينما كان جاويد باشا على أهبة الحركة الى الغراف اذ ورد عليه الأمر باعلان النفير العام للحرب العمومية وأن يغادر الكوت فرجع الى بغداد ليجهز جيشاً لسد ثغر البصرة وعرّف جاويد حكومة الشطرة بذلك وأمر الجيش بالالتحاق به ولكن حكومة الشطرة أبرزوا الصورة في غير محلها وعقدوا مع خيون مهادنة وسلم

ايهم المدافع وقسماً من البنادق والمؤن البارزة للعيان والذخيرة الأميرية ثم غادرت الشطرة الحكومة التركية ودخلها خيون وتراجع اليها بعض الوطنيين الفارين ودامت هذه الحادثة المحزنة ستة أهلة وقد كابد الوطنيون في خلالها العذاب الأليم وكان يوم دخول خيون في الشطرة من الأعياد الا أفراد من الذين تظاهروا بالعداء له .

« الحوادث والفتن في الحرب العامة »

ومنذ انسحاب الجيش التركي من الشطرة قام بخفارة البلاد وحفظها من أيدي العابثين والمعتدين « خيون العبيد » وأما البقية الباقية من شرطة الأتراك والجنود الاحتياط فلا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا يدفعون عنها ضراً ودامت الشطرة منذ تسلم زمام الحكم فيها الزعيم خيون بعيدة عن الحركات والمشاغبات الى يوم احتلال الجيش البريطاني لمدينة البصرة وهو اليوم الرابع في محرم سنة ١٣٣٣هـ . وحينئذ قامت قيامة القبائل الخارجة عن البلاد وقعدت تروم تجريد أولئك التعساء من السلاح وخيون يمانعهم عن ذلك الى يوم السابع من محرم تجمهر لفيف من أولئك القبائل تساندها فئة من آل أبي شمخي حول السراي وثكنة الجيش وهاجوا على الموظفين وانتزعوا السلاح من أيدي الجيش وانتهبوا الذخيرة ، هذا وخيون في أراضي الصديقة . ولما علم بذلك جاء مسرعاً وكف الهاجمين عن البلاد باطلاق النار خوفاً من تسرب الفساد الى البيوت والأسواق ثم غادر الشطرة أولئك المسلوبين وعلى رأسهم وكيل القائمقام « عبدالقادر الباجه چي » قاصدين بغداد بعد أن جمع لهم الأهالي من آخر شهم ما يساعدهم على السفر وقد كتب خيون كتاباً الى قائد الحملة الانكليزية يعرفه بما يجري في نفس الشطرة .

« خيون والدعوة التركية »

ولما تحولت الحرب بين الانكليز والأتراك الى الشعيبة واستعرضت

الحكومة التركية القبائل وفي طليعتهم قبائل الغراف ولكنها أدركت أن محط أنظار الغرافيين هو زعيم العبودة « خيون » فأرسلت اليه تطلب حضوره في الناصرية وقد وسطت لذلك أعجمي السعدون للمفاوضة معه في بعض الأمور وقد أسرع خيون لهذه الدعوة حتى وصل قريب الناصرية سيرت أفكاره وخشي أن يؤخذ غرة وكان الظن أن تكون المفاوضة خارج الناصرية فلما لم ير أحد حسب أنها مكيدة عاد راجعاً الى الشطرة وأسقط بيد أعجمي وحكومة اللواء وقد توصلت الحكومة لهذه الغاية بارسال البعثات الدينية في أنحاء العراق لحث الناس على الجهاد والمدافعة • وقد جاءت احدى البعثات الدينية حتى وصلت بلاد الناصرية • وكان رئيس هذه الهيئة المرحوم المبرور السيد محمد سعيد الحبوبي فطلبت منه الحكومة جلب خيون اليها لكي يفسح الطريق لمواصلة الجيش عن طريق الغراف فكتب السيد رحمه الله الى خيون كتاباً يستنهضه فيه ويدعوه للمثول بين يديه في مركز الناصرية وقدمه مع مندوبين من قبله • جاء المندوبون وأحدهما الشيخ عبدالحسين مطر الى الشطرة وسلما الكتاب الى خيون وعندما اطلع عليه أجاب بالسمع والطاعة وسار من وقته ودخل بلاد الناصرية وتشرف بالمثول بين يدي السيد رحمه الله وقد احتفل أهل الناصرية بخيون احتفالا باهراً ، وجاء به السيد الى دار الحكومة وسلم عليها وفي تلك الساعة جلب له حضرة السيد عضواً من الباب العالي « استانبول » وبقي خيون في الناصرية أياماً ثم استأذن من السيد في العودة الى الشطرة قصد قضاء بعض شؤونه ثم توجه الى حرب الشعيبة وذلك في صفر سنة ١٣٣٣هـ •

« خيون والحكومة البريطانية »

لما احتلت الجيوش البريطانية مركز لواء المنتفك « الناصرية » وانسحبت الجيوش التركية عن ساحة الغراف دخلت الشطرة تحت نفوذ

خيون وسلمت له الحكومة التركية زمام الأمور وعينته قائمقاماً وذلك في رمضان سنة ١٣٣٣هـ • وبقي كذلك حتى احتل الانكليز كوت الامارة ودخل عموم الغراف تحت سيطرة الحكومة الجديدة بادر خيون بالطاعة للحكومة الجديدة • وقدم الى الناصرية وسلم على حاكمها السياسي « الميجر هاملتون » أما الحاكم المذكور فقد بالغ في اكرام « خيون » واعطائه التعليمات اللازمة لادارة البلاد وأمره باسقاط بعض الضرائب والرسوم عن الأهالي التي كانت تؤخذ منهم ثم استأذن من الحكومة في العودة الى الشطرة فعاد اليها معززاً •

« مظهر باشا وتأثيره السياسي في الغراف »

وعندما انسحبت الجيوش البريطانية عن سلمان باك وحوصر القائد « تاونسند » في كوت الامارة بذل الأتراك آخر سهم لهم في الرمية لنهج الغراف ضد الانكليز وصد تيار الجيش المقيم في الناصرية وعنوا لهذه المهمة الكبيرة الشيخ مظهر باشا جاء المير لواء مظهر باشا وقد اتخذ الشطرة مركزاً سياسياً لهذه الغاية والتف حوله الناس أول كلمة فاه بها حول هذا المجتمع تقديمه النقود الذهبية والملابس الحريرية لرؤساء القبائل وأردفته الحكومة التركية ببعثة علمية برئاسة المرحوم السيد علي التبريزي المشهور بالداماد فنالت الحكومة التركية مقصدها بفضل وجود الهيئتين الدينية والسياسية دوام مظهر باشا في نفس الشطرة الى أن تلاشى نفوذ الأتراك في جهة الكوت وحينئذ غادرا الشطرة وغادرتها البعثة الدينية ودخلت الشطرة مرة أخرى تحت نفوذ الانكليز الى يومنا هذا وقد عينت الحكومة البريطانية للشطرة حاكماً وطنياً من قبلها •

« تعيين حسن الجاسم رئيسا لبلدية الشطرة »

لما احتلت الجيوش البريطانية عاصمة العراق خاف خيون انتقام الحكومة البريطانية واضطربت الأفكار ضده وضاقت به الأرض فجمع

أهل بيته وعهد اليهم بما عنده وأوصاهم بلزوم الطاعة للحكومة الانكليزية والخلود الى السكينة ثم ترك الشطرة وأقام في أراضي بني ركاب حيث عبدالله الفالح هناك فاشرأبت أعناق بعض الرؤساء العموميين على العبودة وحكومة الشطرة وكان منهم حسن بن محمد الجاسم فذهب الى الناصرية ووسط بعض الوجهاء واجتمع بحاكمها السياسي « الميجر هاول » وأعلمه بكفائته لتدبير شؤون البلاد الداخلية والخارجية • وقد تفحصت الحكومة من ذوي الخبرة والدراية في أحوال الشطرة فحسنوا لهـا ذلك وعينتـه رئيسـاً لبلديتها ـ أي الشطرة ـ ولا حل بين جدرانها وصـار يتظاهـر بمظهر الحاكم فاضطربت أفكار العبودة وقامت المشاغبات وتحركت الغراف بين قبيلة السناجر وقبيلة آل أبي شمخي وجرت بينهما عدة حوادث •

« الحادثة الاولى »

وقعت الحادثة الأولى في ٢٨ رجب سنة ١٣٣٥ هجرية وتقابل الفريقان في الأزقة والطرقات وكانت حرباً شـعواء شديدة ، ودامت المناوشات من الصبح الى عصر ذلك اليوم ثم جاء آل عواد وهادنوا الطرفين ولكنهم بقوا تحت السلاح وفيها اعتزل الأمر حسن وتوجه الى الناصرية فصادف من حاكمها الغيظ وعزلـه عن منصبه وذلك استناداً لشكاية البـلاد وارسال وفـد مـن الأهلين قابل الحـاكم وظهرهم رضائهم برئاسة حسن وبقيت الشطرة في أسوأ حال وأظنك عيش •

« الحادثة الثانية »

حدثت الواقعة الثانية في ٢٧ من شهر رمضان ١٣٣٣ هـ وقد اطلقت النار من الطرفين وقتل في هـذه المعركة الدموية خلق كثير حتى جاء آل جهل فهادنوهم ولكن بقيت حالة البلاد بأشد اضطراب وتشتد الحالة من آونة الى أخرى الى أن حدثت الثالثة وخرجت طائفة آل أبي شمخي من البلد فحينئذ استنشق الأهالي نسيم الحياة •

« الحادثة الثالثة »

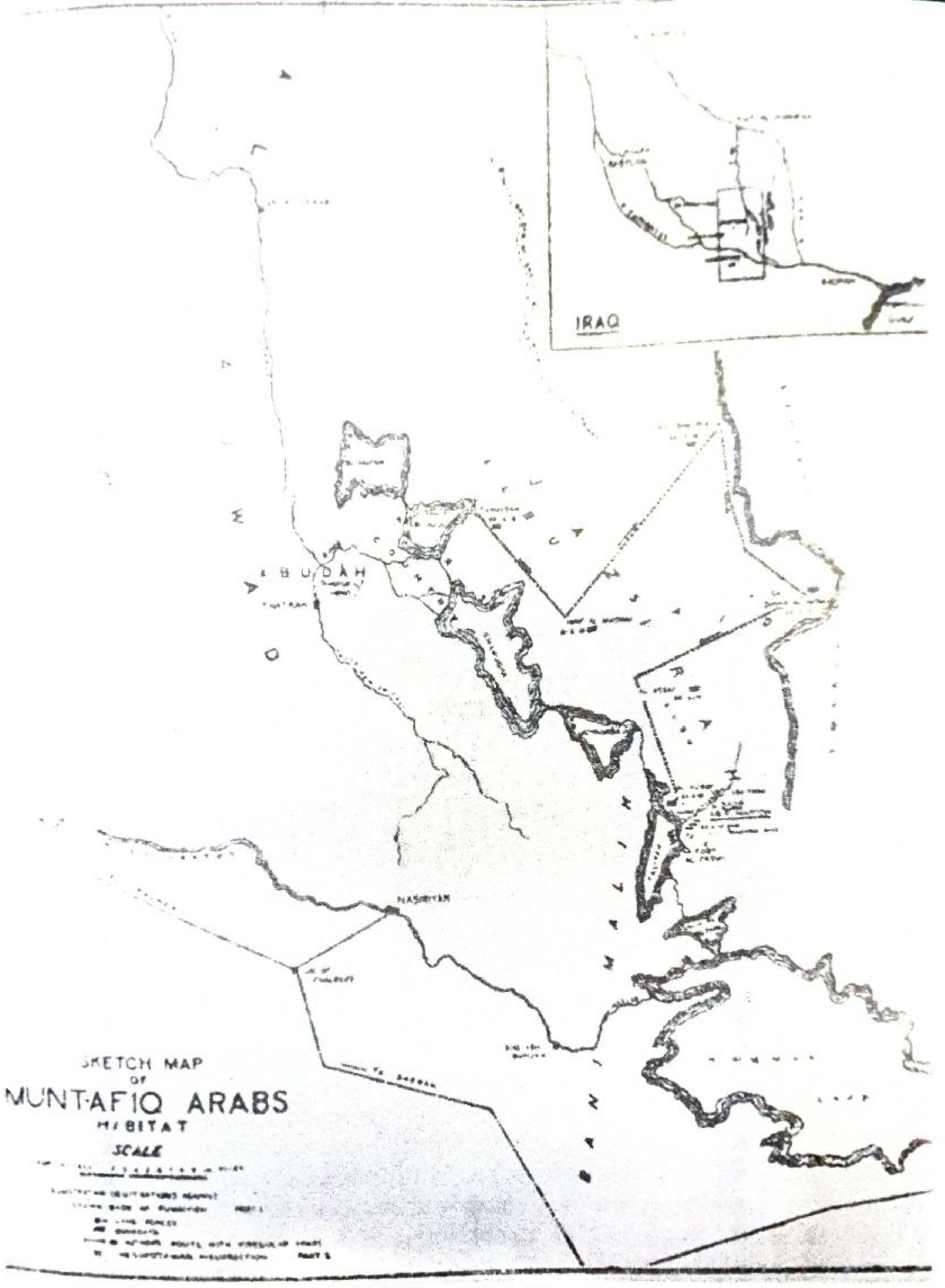
بينما الشطرة ترقب رضاء الحكومة من خيون والميجر دكسن حاكم سياسة المنتفق يشير اليها والى اصلاحها بكل ما أوتي من سياسة اذ أنه حسبت طائفة آل أبي شمخي حساب الفوز والسعادة الابدية لقبيلة السناجر عند الحكومة البريطانية فأرادت قلب هـذا الاصلاح وتوسلت الى ذلك بقتل صديق الزعيم « خيون العبيد » « كاظم العلي آغا » ختلا وخدعة فثارت طائفة السناجر طلبا لثأرهم من آل أبي شمخي وكان ذلك في ١٤ من ذي الحجة ١٣٣٥ هـ ووقعت المناوشات بين القبيلتين وأسفرت عن جلاء آل أبي شمخي وآل جاسم عن البلاد بعد ان أضرمت النار في بيوتهم وأكواخهم وبعد أيام قضت لم يدخلوا البلاد وسجلوا بذلك بنود الاتفاق فيما بينهم تحتوي على مسألة تجريدهم من السلاح حين دخولهم الشطرة والا يبان أحدهم فيها مهما كان غرضه وقد اتخذ الاهالي من ذلك اليوم « يوم الجلاء » يوم عيد . وقد تم لخيون كل شيء من تطهير أرض الشطرة من أقدام المفسدين وقطع جرثومة الفساد وتنظيم قواعد الامن في البلاد وقد اعتقد الميجر دكسون صدق نية خيون نحو البلاد فاستجلبه الى الناصرية وتفضل عليه برضاء الحكومة عنه وأعطاه بعض التعاليم الادارية اللازمة لضرورة البلاد . وقد زار الميجر دكسون قضاء الشطرة وصادف من أهلها كل الحفاوة الدالة على الطاعة وكان ذلك في هلال جمادي الآخر عام ١٣٣٦ هـ وبقيت الشطرة تحت مراقبة الميجر دكسن راكدة مطمئنة .

« الكرنل هاول يتجول في الغراف »

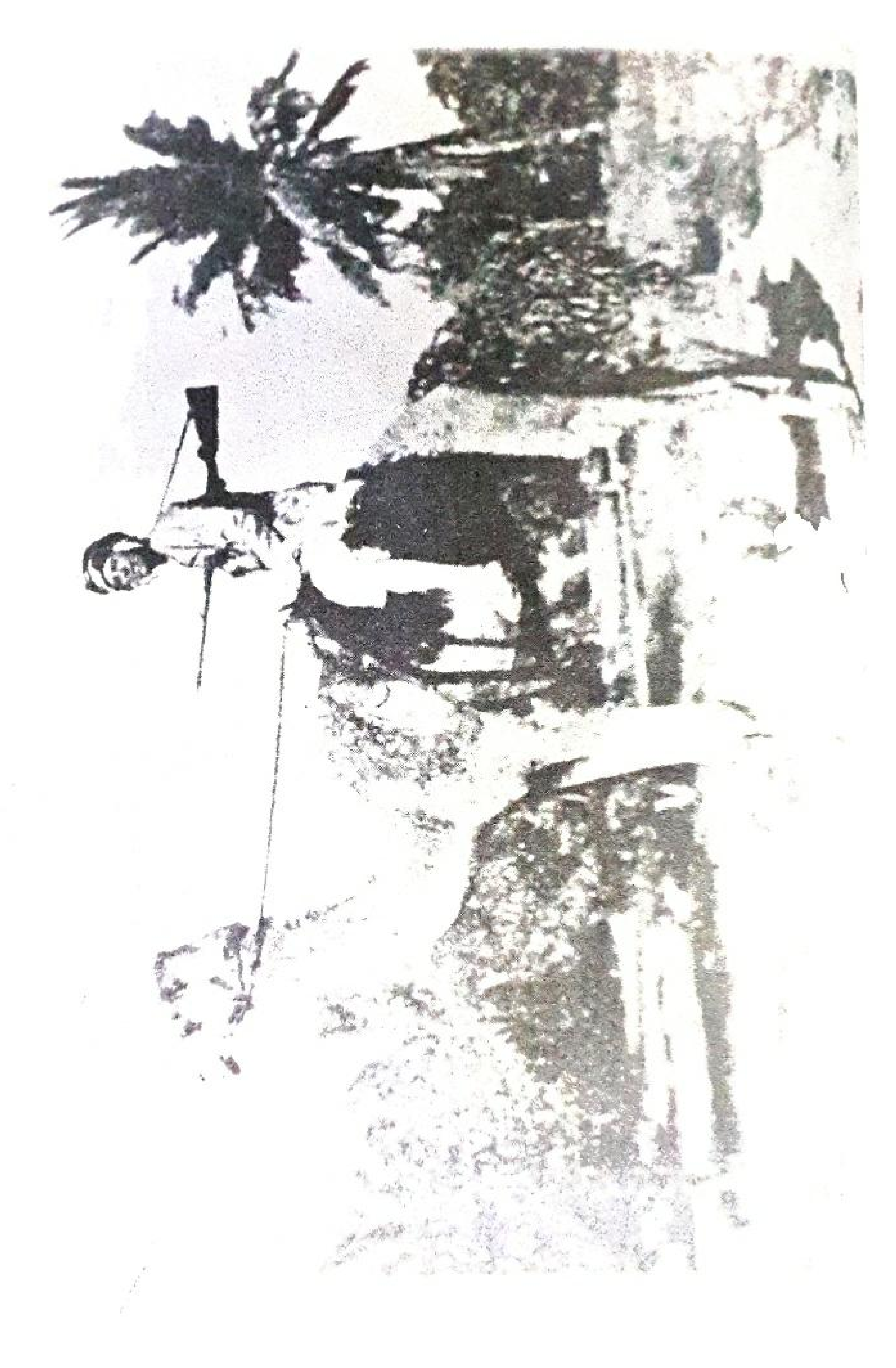
وفي رجب ١٣٣٦ هـ تجول في ربوع الغراف الكرنل هاول والي البصرة يومئذ والميجر دكسن حاكم رئاسة المنتفق وناظر الزراعة وناظر المالية المهندس « مكن طوش » واللفتن هيسم حاكم سوق الشيوخ يومئذ فقوبلوا مقابلة حسنة من عموم الغرافين وعلى الاخص أهالي الشطرة ودرسوا كثيرا من أحوالها وأحوال الغراف ولكنهم ترددوا في تعين حاكم الى الشطرة وأخيرا تعين لها اللفتن هيسم .

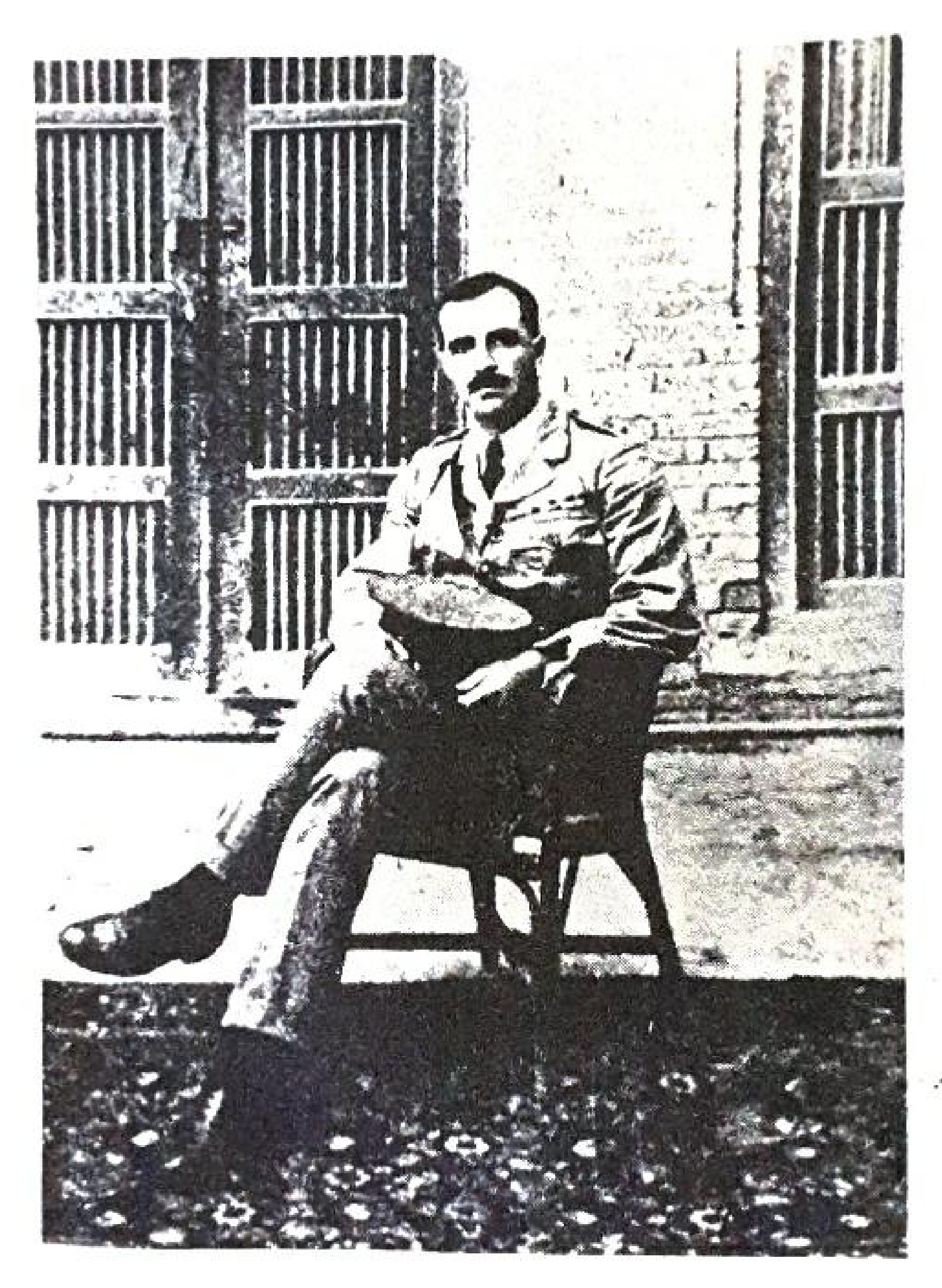


صُوَرٌ تذكاريّة نادرة



خارطة عرب المنتفك



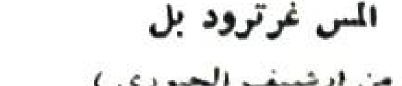


السر أي. تي. ولسن
نائب الحاكم الملكي في العراق



المس غرترود بل

(من ارشيف الجبوري)





الميجر صون

(من ارشيف الجبوري)



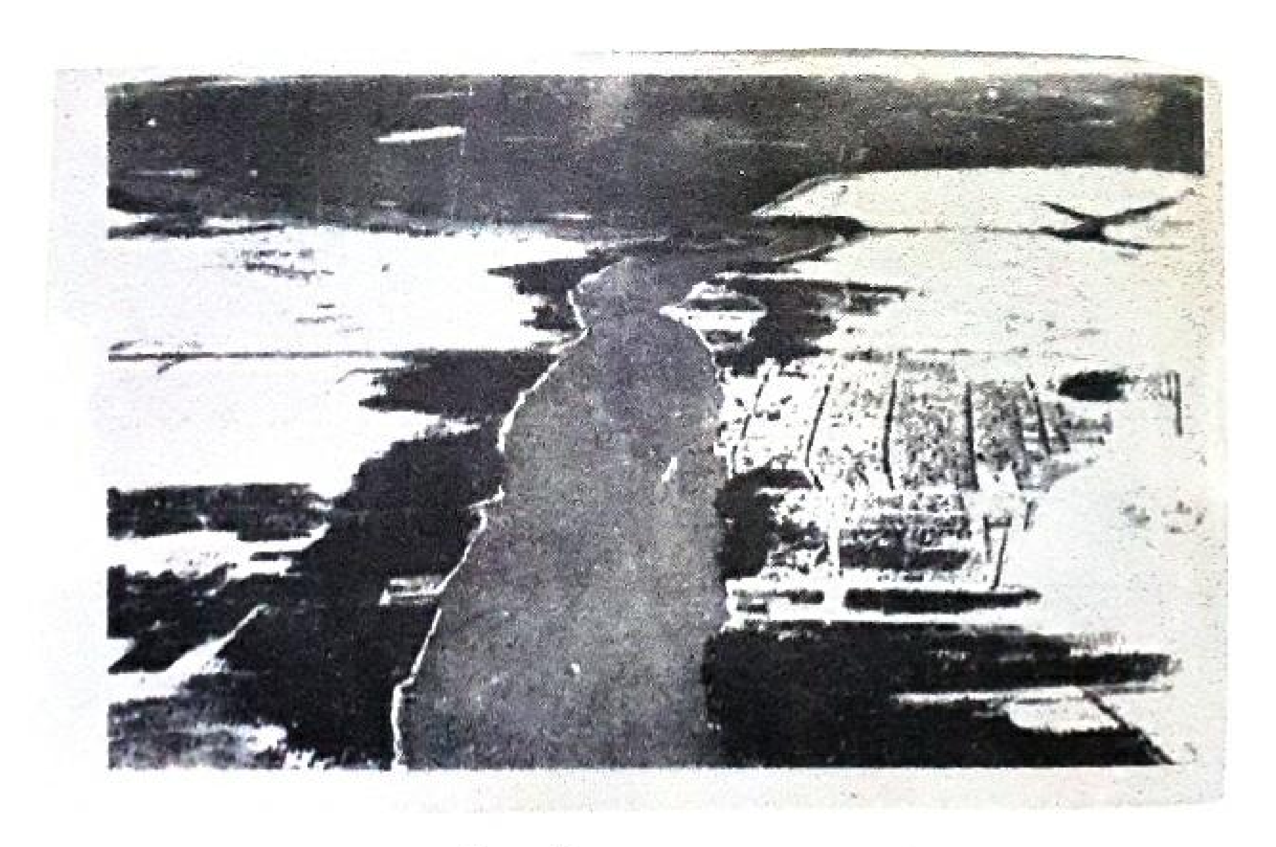
برترام توماس – يتوسط مشايخ سوق الشيوخ

(من ارشيف الجبوري)



الشطرة ـ صورة جويه

(من ارشيف الجبوري)



الناصرية من الجـو

(من ارشيف الجبوري)



الحاكم السياسي ومشايخ المنتفك

(من ارشيف الجبوري)



الليفي العرب (الشـبانة)

(من ارشيف الجبوري)



قلعة سكر ـ صورة جوية

(من ارشيف الجبوري)



برترام توماس وحاكم سياسي آخر يتوسطان مشايخ المنتفك



الحاج خيون العبيد

(من ارشيف الجبوري)



الكولونيل لچمن بالزي العربي

(من ارشيف الجبوري)



قلعـة الفتحي



مؤتمر القاهرة

(من ارشيف الجبوري)



الشريف حسين

(من ارشيف الجبوري)



الملك فيصـل الاول

(من ارشيف الجبوري)

الفهرست

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع
١٧٩	ذهاب ناصر باشا الى الاستانة وتقلص نفوذ آل سعدون
١٨٠	كيف تم ذلك للعثمانيين ؟
١٨٠	الشطرة والعثمانيون
١٨١	قدري أفندي
١٨٢	الحوادث والفتن في الدور العثماني
١٨٣	حادثة سعدون باشا ومحمد زلام
١٨٣	كيف وقعت الواقعة ؟
١٨٤	حادثة الوجه
١٨٧	مصطفى باشا
١٨٧	يوسف باشا والشطرة
١٨٩	جلاء خيون
١٨٩	حادثة آل عواد
١٩٠	حادثة المتصرف
١٩٠	ما هو الحاوي ؟
١٩١	لماذا عاد المتصرف الى الناصرية ؟
١٩١	محمد علي بك والشطرة
١٩١	الصلح الكاذب
١٩٢	تسليم ثماني قلاع في يوم واحد
١٩٢	حادثة البدور

الصفحة	الموضوع

تم طبع الكتاب في ١٧/٢/١٩٨٦ بعدد ٣٠٠٠ نسخة
رقم الايداع في المكتبة الوطنية ٢٠٥ بتاريخ ١٦/٢/١٩٨٦

- **الكابتن برترام · اس· توماس**

أحد الضباط الانكليز الشباب الذين عينتهم الادارة البريطانية في العراق وأعطتهم مقاليد وصلاحيات في مناطق واسعة ·

- كان فارساً في الحرس الوطني لشمال سومرسيت في الفلاندرز عام ١٩١٤ ·
- اشتغل في عدن واستطاع ان يعبر الربع الخالي في الجزيرة العربية ·
- شغل منصب مساعد الضابط السياسي في سوق الشيوخ في ٦ آذار ١٩١٨ ·
- نقل الى الشطرة في ٦ شباط ١٩١٩ ·
- نقل الى بغداد في ٦ شباط ١٩٢٠ كمساعد ثان في سكرتارية الدخل الحكومي ·
- اعيد الى الشطرة في حزيران ١٩٢٠ ·
- اضيفت له قلعة سكر بعد ٣٠ حزيران ١٩٢٠ ·
- عُزِّز بالكابتن (هول) في تموز ١٩٢٠ ·
- غادر الشطرة الى الناصرية مع هول في ٢٧ آب ١٩٢٠ ، وعيّن فيها ضابط استخبارات للواء ٧٤ ·
- عاد حاكماً سياسياً للشطرة وقلعة سكر وضم اليه الغراف أيضاً في شباط ١٩٢١ ·
- ودع الشطرة في آب ١٩٢١ ·
- كان من جماعة فلبي المناوئين لتنصيب الملك فيصل على العراق ·
- بقي في العراق مفتشاً ادارياً الى سنة ١٩٢٤ · حيث فصل عن الخدمة في العراق برغم الحاح مستشار الداخلية كورنواليس على إبقائه ·
- شغل وظيفة وزير المالية لسلطنة مسقط وعمان ، ثم رئيساً للوزراء فيها ·

طبع الغلاف في مطبعة منير

السعر / دينارين